سفر الصين

رحلة فى فكر وحياة ومجتمع الصينيين

تأليـف

حسين اسماعيل

obeikan.com

طبعة ٢٠١٧

اسماعيل ، حسين

سفر الصين:- رحلة فى فكر وحياة الصينيين/ حسين اسماعيل-الجيزة: اطلس للنشر والإنتاج الإعلامى، ٢٠١٧ .

٢٧٢ ص ، ٢٤ سم .

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٥٣٠ .

١- الصين - الاحوال الاجتماعية

٢- الصين - الاحوال الثقافية

أ- العنوان

٣٠٩,١٥١

obeikan.com

سفر الصين

رحلة فى فكر وحياة ومجتمع الصينيين

تأليــف

حسين اسماعيل

obeikan.com

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٧/٢٩٦٥

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥٣٠-٠

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : سفر الصين

المؤلف : **حسين اسماعيل**

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

Sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

مقدمة المؤلف

الكتابة عن الصين وأنت في الصين، ليس كمثل الكتابة عنها وأنت خارجها، فالصين في الداخل تختلف، قليلا أو كثيرا، عن صورة الصين في الخارج، بجمالها أو قبحها. ولا شك أن الكتابة عن الصين، وخاصة في السنوات العشرين الأخيرة باتت غواية يقع في شراكها المفتونون بجمال الصورة والمنزعجون من قبحها، كما تصوره لهم أوهامهم أو هواجسهم.

البعض يكتب عن الصين مبشرا ومرحبا بصعودها أو نهوضها أو تقدمها، أياً كان الوصف الذي يُلصق بها، والبعض يكتب مُحذرا متوجسا من هذا الصعود أو النهوض أو التقدم. ولكن الكتابة عن الصين تظل مغامرة، ذلك أن هذا البلد الكبير بحجمه وتنوعه الهائل؛ المكاني والسكاني والعرقي والثقافي والتاريخي، يعطيك الصورة ونقيضها، فالصين لا تعرف الأحكام المطلقة. أنت تستطيع أن تكتب عن الثراء والرخاء في الصين، ويمكن أيضا أن تناقض هذا فتكتب عن الفقر والعوز، وبوسعك أن تتحدث عن التصاق الصينيين وتمسكهم بتقاليدهم وتراثهم وإرثهم الثقافي، ولديك مساحة واسعة للحديث عن تآكل تلك التقاليد والتراث والإرث، تكتب عن لادينية الصينيين، وعن أديانهم وعقائدهم الكثيرة، عن سرعة بديهتم وقدراتهم الإبداعية وعن بطء تفكيرهم واستجابتهم، كما يصوره لك فهمك. تكتب عن التقدم التكنولوجي المدهش وعن الفقر التقني، عن انفتاح الصينيين على العالم وعن انغلاقهم على أنفسهم، عن سياسة الصين الخارجية النشيطة ودورها العالمي الفاعل وانخراطها في الشئون الدولية، وعن السياسة الخارجية المنكفئة على مصالحها، عن الأثر الإيجابي لنمو الاقتصاد الصيني على اقتصاد العالم وعن الأثر السلبي له. الكتابة عن الصين مثل النظر في لوحة حبر صينية، يمكنك أن ترى فيها صورا شتى متناغمة أو متناقضة، حسب النظارة الفكرية والمعرفية التي تقرأ بها. لا أحد يملك الحقيقة الكاملة عندما يكون الحديث عن الصين. ومعضلة الكتابة عن الصين، أنك كلما عرفت عنها أكثر فتر حماسك للكتابة وزادت حيرتك، وآثرت الانتظار حتى تنجلي الصورة، أو هكذا تظن.

معظم ما كُتب عن الصين، في السنوات الأخيرة يدور في فلك الاقتصاد والسياسة، فتأثير التجربة الاقتصادية الصينية ونمو الاقتصاد الصيني طغى على جوانب كثيرة من الصورة الصينية، وبحثُ حالة التنمية الاقتصادية والتنمية السياسية الفريدة في الصين جار على النظر في مجتمع الصينيين وثقافتهم وأدبهم وفنونهم. وفي عبارة قصيرة، لا يرى كثيرون في الصين غير السلع الصينية التي تشاركهم حياتهم، يرونها منتجات اقتصادية، وتلك رؤية مبتورة ومجحفة بحق الصينيين.

عندما كنت في الطائرة إلى الصين، كان وخز عقلي لقلمي عنيفا، يستفزه للكتابة، متصورا أن ما عرفته عن الصين، قبل أن أصل إليها، يكفي لكتاب، فالصين فضاء هائل وبحر عميق؛ تخال أنه يسمح لك بالتحليق والسباحة، ولكنه فضاء ما إن تحلق به حتى تضيع في المجهول، وبحر ما إن تسبح فيه حتى تأخذك أمواجه وتدفعك إلى أعماق هيهات أن تصلها. وعندما ترسو قدماك على أرض الصين تحار من أين تبدأ، وإلى أين تنتهي، وتظل الحيرة رفيقا لك، تغذيها سرعة تغير وتحول تعجز العين عن ملاحقتها، أو كما يقول الصينيون، تهز الأرض والسماء.

ولا شك أن إقامتي وعملي في الصين لسنوات طويلة أتاحا لي فرصة لمعرفة الصينيين عن قرب، ومتابعة ما يكتبه الصينيون عن أنفسهم وعن بلادهم، وما يكتبه الآخرون عنهم، ولهذا فإنني اعتمدت رئيسيا في (سِفْر الصين) على بيانات ومعلومات من مصادر صينية، وأسجل هنا أن مجلة "الصين اليوم" وإصدارات المجموعة الصينية للنشر الدولي، والكتب العديدة الصادرة عن وزارة الثقافة الصينية والتي تغطي مجالات متنوعة، من ثقافة الطعام عند الصينيين إلى فن عمارتهم وطبهم ولغتهم وفنونهم وموسيقاهم وأعيادهم، وفرت لي مادة ثرية لفهم جوانب متنوعة من فكر وحياة الصينيين، كما أن جهود الزملاء الصينيين في إيضاح وشرح ما استشعرت فيه غموضا من فكر وتاريخ وحياة الصينيين، كانت عونا وحافزا لي لخوض مغامرة الكتابة عن الصين.

وتنبغي الإشارة إلى أن (سِفْر الصين) ليس كتابا عن اقتصاد أو سياسة الصين بقدر ما هو محاولة لفهم الشخصية الصينية في ماضيها وفي حاضرها، والتغيرات التي شهدها

المجتمع الصيني في السنوات العشرين الماضية، وإن كان هذا لا يعني أنه يخلو من إطلالات على التنمية الاقتصادية والسياسية في الصين، ولكنها إطلالات لم يكن ممكنا تجاوزها لعلاقتها الجدلية بكافة جوانب حياة الصينيين المعاصرين.

لقد نصح الصينيون منذ قديم الزمان بأهمية "التدبر بعناية قبل مباشرة الفعل" وقال العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده، لو غُير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قُدم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل". وأحسب أن هذا إن كان صحيحا بالنسبة لكل كتاب فإنه أكثر صوابا وصدقا بالنسبة لكتاب عن الصين، لهذا أتمنى أن يلتمس لي العذر من يجد في (سِفْر الصين) نقصا أو رؤية لم أوفق في توضيحها، أو رأيا مخالفا، وأتمنى أن يكون هذا الكتاب عونا لمن يريد أن يعرف شيئا عن الصين، فرحلة الألف ميل- إلى الصين- تبدأ بالخطوة الأولى والتي هي في رأيي فهم الصينيين أنفسهم.

حسين إسماعيل

بكين ٨ أغسطس ٢٠٠٨

obeikan.com

obeikan.com

تقديم

إبـان عملي سـفيراً لمصر فـي الصين كتبت مقدمـات لعدد من المؤلفـات، ولكن هذا التقديـم لكتـاب (سـفر الصين) لم يكن سـهلاً رغم حماسـي لـه وترحيبي بالفكـرة عندما طرحها الصديق حسين إسماعيل.

ولعل مرجع الصعوبة ثلاثة أمور:

الأول: أن تقديم كتاب لصديق يجعل الاختيار أمراً ليس سهلاً.

الثاني: أن الصين تتغير بسرعة غير معتادة، مما يجعل الكتابة عنها يحتاج إلى تحديث الفكر والمعلومات باستمرار حتى لا يشعر المرء أنه يعيش ويتحدث عن عصر غير العصر.

الثالـث: أنـه بعـد الإطلاع علـى الكتاب، وجدتـه عميقاً وشـاملاً من حيـث المعلومات والتحليـل والأفـكار، فهو يجمع مـا بين الكتابة السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية، وما بين الكتابة الصحفية السلسـة، ويجمع ما بين السياسـة والثقافة، إنه يهم العامة كما يهم الخاصـة. إنـه يتحدث عن صين كونفوشـيوس كما يحلل صين دنغ شـياو بينـغ، إنه يتناول الفكر والدين والتقاليد والطقوس والمراسـم بسـهولة واقتدار. ومن ثم أصبحت المسـيرة صعبة حول ماذا يمكن أن يكتب المرء في تقديمه لمثل هذا الكتاب.

وأخيـراً حزمـت أمري وأغمضـت عيني وأطلقت العنان للقلم ليكتب هذه السـطور في لحظـة مـن لحظات السَـحّر، حيـث الهدوء والصفـاء لعل الإلهـام يأتي بكلمـات تليق بهذا العمـل الإبداعـي. وأنـا أسـميه عمـلاً إبداعياً بحـق لأنه يكفـي أن تقرأ محتويـات الكتاب لتجده يتحدث عن الطعام ليس كمادة للحفاظ على الجسـد وإنما كثقافة لمجتمع ولشـعب ولحضارة. إنه يتناول الأقليات أو بالمصطلح الصيني القوميات ويقارن بينها وبين نظيراتها في الدول الأخرى في سطور أشبه بالسهل الممتنع.

إنـه يحلـل موقـف المجتمـع الصينـي من فكـرة الديـن والآلهـة ويوضح كيف اكتشـف الصينيـون مفهوم الآلهـة، أو بالأحرى كيف اخترعوه، ثم كيف طغى على الإنسـان، وأخيراً كيف أعاد الإنسان الصيني مفهوم الإله ليؤكد على مفهوم الإنسان الفرد.

ويقـارن المؤلـف بين نظرة الصيني للدين ونظرة شـعوب أخرى وأديان وعقائد أخرى. ولعـل هـذا يُذكر بمدارس الفلسـفة في أوروبا في عصر النهضة التـي تحدثت عن اختراع الإنسـان للإله لملء الفراغ النفسـي، وهذا بالطبع يختلف عن نظرة الأديان السماوية التي تذهـب إلـى أن اللّه هـو الذي خلق الإنسـان. ثم نجد عبقرية الشـعب الصينـي في تاريخه الثقافـي، حيـث نظرتـه لخلق الكون مـن كتلة من الهيولي ثم انشـقاقها وهـذا يعيد للذهن نظريـة (الانفجـار العظيـم) في خلـق الكون التـي تحدث عنها بعـض العلمـاء المعاصرين فـي أمريـكا، رغم أن القرآن الكريم أشـار إليها بقولـه: (إن السـماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) "سـورة الأنبياء الآية رقم ٣٠"، أي التصاق السـماء والأرض ببعضهما في كيان واحد ثم فصلهما بواسـطة اللّه سـبحانه وتعالى. السؤال هو: أي من النظريات والمدارس تأثر بالآخر؟ وأيهما أسبق زمنياً؟ أم أنه لم تتأثر أي من تلك النظريات بالأخرى، وأن الإله هو المبدع الحقيقي للكون، ومن هذا المنطلق هو الذي وضع في عقل الإنسان في أقصى الشرق وأقصى الغرب وفي الوسط، حيث الأديان السماوية، نفس المفاهيم والأفكار.

و (سـفر الصين) هو حشـد فريد للمعلومات والتحليلات يعد بحق ضرورة لكي يقرؤه كل شـخص، لمعرفة كيف تفكر الصين اليوم وكيف تتطور وتتغير نحو المسـتقبل وما هي الخلفية الفكرية لكل ذلك.

ويمتاز الكتاب بثلاث سمات:

الأولى، السلاسة في الأسلوب.

الثانية، البساطة في استخدام الكلمات.

الثالثة، فهم المؤلف للأفكار التي يطرحها ويعبر عنها، مما جعله في سـياق ما يسـمى بالسـهل الممتنـع. فنظريـات مثل الين واليانغ، والتي هي أحد المحاور الرئيسـة للفلسـفة الصينيـة يشـرحها المؤلف بأسـلوب جذاب بحيث يربـط فيها ما بين الأسـطورة والخيال والفلسـفة والحقيقـة الكونيـة الثنائيـة، فتعاقـب الليـل والنهـار، الظـلام والنـور، الرطوبة واليبوسـة، الأنوثة والذكورة، يعبر عنها السـيد حسـين إسماعيل في سـطور قلائل ولكنها عميقة وواضحة.

إن الصين من أعظم الحضارات، ولكن الأعظم من حضارة الصين هو الشعب الصيني الذي استطاع أن يبني تلك الحضارة ويحولها إلى كيان سياسي يحافظ عليه عبر آلاف السنين مهما واجه من تحديات، كما استطاع أن يعيد بناء ذاته وينطلق في مسيرة طويلة نحو القرن العشرين، ويؤكد ذاته في مسيرة سريعة هي معجزة بكل المقاييس مع دخوله القرن الحادي والعشرين.

ولهذا ليس عجباً أن يفتتن حسن إسماعيل بكل ما هو صيني كما افتتن كثيرون غيره. وقد عبر حسين إسماعيل عن هذا الافتتان بحديث هو أشبه بحديث العاشق الولهان الذي ابتعد عن محبوبته، رغم أنها قريبة منه أو بالأحرى هي بجواره. حسين إسماعيل شهد كيف تتغير الصين ولكنها على حد تعبيره (تُغير جلدها ولكن روحها باقية). وفي تقديري إن روح الصين تعكس ما عبر عنه أرنولد توينبي في مؤلفه المشهور، بعد دراسته العميقة لتاريخ البشرية والحضارات والشعوب، وهي نظرية التحدي والاستجابة. أو ما عبر عنه فيلسوف أوروبا الحديثة العالم الألماني فريدريك هيغل في نظريته عن الفكرة ونقيضها والتأليف بينهما، وهكذا تتجدد المسيرة الفكرية والتي نقلها بعد ذلك كارل ماركس في المجال المادي إلى مجال التطبيق العملي على أرض الواقع بتغيير الصين السريع، حيث كل مرحلة من مراحل التطور تخلق نقيضها أو بالأحرى متناقضاتها، ويسعى الشعب الصيني لحلها، وهكذا يحقق مرحلة أعلى من التطور وتستمر مسيرة التقدم عبر حلقات متصاعدة من التحدي والاستجابة.

ولكن حسين إسماعيل مع تعمقه وعشقه للصين لم ينس للحظه تراثه الوطني والقومي، ولهذا يقارن في كل فصل من فصول (سفر الصين) بين ما يراه ويقرؤه ويعيشه في الصين وبين ما حدث في مصر الفرعونية، وما يعرفه من التراث العربي الإسلامي، وكأنه يقول بلسان الحال: هل من عودة لحضارة عريقة عاشت على أرض وادي النيل، كما عادت الحياة لحضارة عريقة على أرض النهر الأصفر؟ وهل يعود التاريخ الفرعوني من حيث قدرة الشعب المصري على الإبداع والإنجاز الذي ما زالت رموز الأهرامات ومعابد الأقصر وآثار أبو سمبل شاهداً عليه، كما عاد التاريخ الصيني الذي تشهد عليه رموز مثل سور الصين العظيم أو التماثيل الصلصالية للجنود والخيول بعد اختفائها لمئات السنين.

بعد العرض الشيق، يعود حسين إسماعيل إلى ذاته لكي يكرر المقولة الشهيرة عن تواضع العلماء مقتبساً من العماد الأصفهاني قوله: (إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قوم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر). ويربط هذا التواضع الذاتي مع الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الصينية ليؤكد على النصيحة الصينية بضرورة التدبر بعناية قبل مباشرة الفعل. إن هذه النصيحة ليست إلا النظرية الحديثة في التخطيط والتحليل الاستراتيجي. وحقاً أنجبت الصين المعلم كونفوشيوس كما أنجبت سون تسي، أقدم استراتيجي في العالم.

ولا غرو أن رحلة حسين إسماعيل في الصين سعت لمسيرة الألف ميل ولكنها بكل تأكيد عبرت بسلاسة ويسر الأميال الأولى، وانطلقت في المسيرة مثل انطلاق سفينة الفضاء الصينية بعد أن استكملت كل مقومات التقدم العلمي واستوعبته باقتدار، وسعت لتطويره بتواضع. وأذكر أول جملة قالها لي الرئيس الصيني السابق جيانغ تسه مين عندما قدمت له أوراق اعتمادي سفيراً لمصر لدى الصين عام ١٩٩٨م، إذ قال بحكمه الأستاذ للتلميذ: (إنك قرأت كثيراً عن الصين القديمة، والصين اليوم مختلفة، ولا يجب أن تنخدع بالمظاهر في بكين وما فيها من تقدم بل اذهب إلى الريف الصيني لتجده ما زال متخلفاً). هذه كلمات تنم عن التواضع من جانب، وعن الإصرار على مواصلة المسيرة لتطوير البلاد بعيداً عن إدعاء الإنجاز وخداع النفس، بل هي (التدبر بعناية قبل مباشرة العمل) ولهذا كله تنطلق الصين في مسيرتها لتغيير مظهرها مع الحفاظ على روحها.

وإنني إذ أهنئ الصديق حسين إسماعيل على كتابه هذا، فإنني أرجو له المزيد من الإنجاز في بحوثه وكتاباته في مجلة "الصين اليوم" العربية والصينية.

السفير د. محمد نعمان جلال

مستشار الدراسات الإستراتيجية والدولية وحوار الحضارات بمركز البحرين للدراسات والبحوث

الفصل الأول
الطريق إلى الصين

عندما هبطت طائرة الخطوط الصينية (إير تشينا) القادمة من القاهرة، بمطار العاصمة الدولي في بكين ظهر الثلاثاء، الثاني من شهر ربيع الثاني للسنة الثالثة عشرة بعد المائة الرابعة عشرة للهجرة، التاسع والعشرين من سبتمبر للعام الثاني والتسعين بعد المائة التاسعة عشرة للميلاد، شعرت أنني سمكة صغيرة في أعماق محيط هائل. كانت هذه أول مرة أسافر فيها هذه المسافة الطويلة؛ عشر ساعات متواصلة من العاصمة المصرية إلى العاصمة الصينية مرورا بمدينة دبي في دولة الإمارات العربية. كان رفيقي، بالصدفة، في تلك الرحلة رجل صيني يعمل بالقسم العربي لإذاعة الصين الدولية اسمه العربي سليم، واسمه الصيني ليو يوان بي. وقد ظل سليم ليو خلال سنوات إقامتي في الصين شخصا حاضرا في كل مكان أذهب إليه تقريبا، لدرجة أنني قلت له ذات مرة.. أخشى أن أفتح درج مكتبي يوما فتخرج لي منه يا سيد ليو. بعد دقائق من خروجي من المطار، الذي كان صغيرا ومتواضع التجهيزات، كنت في المقعد الخلفي لسيارة سانتانا فولكس فاغن كُحلية اللون، وعن يميني السيدة وانغ فو، رئيسة القسم العربي بمجلة "الصين اليوم"، وهي الوحدة التي جئت إلى الصين للعمل بها، وفي المقعد الأمامي السائق وبجواره مسؤولة شئون الخبراء الأجانب في "الصين اليوم"، شياو شيوي. وكلمة شياو تعني الصغيرة، برغم أن السيدة شيوي في ذلك الوقت كانت جاوزت الخمسين ربيعا!

رحبت وانغ فو بي بكلمات عربية مبينة لم أدهش لها فقد صادفت، حتى قبل رفقة سليم ليو، صينيين يتحدثون العربية كأهلها في القاهرة، ففي سفارة الصين لدى مصر، وبينما كنت أتحدث بالعربية الفصحى مع الدبلوماسي الصيني قاو يوي شنغ «حسن»، الذي كان مستشارا أو سكرتيرا أول بسفارة بلاده في القاهرة، والذي أصبح سفيرا للصين لدى اليمن ثم لدى الإمارات فيما بعد، إذ به يقول لي بعد عبارات قصيرة بالعربية الفصحى.. خلينا نتقابل ونلعب عشرة كوتشينة! عرفت لاحقا أن قاو يوي شنغ كان ضمن دفعة من

الصينيين بدءوا تعلم اللغة العربية في المرحلة الثانوية، وليس في المرحلة الجامعية كما هو معمول به في الصين، فنبغ أفراد هذه الدفعة جميعا في لغة الضاد وأجادوها.

تناولت وانغ فو من السيدة المكتنزة اللحم، شياو شيوي، مظروفا ودسته في يدي قائلة، هذا مبلغ لتنفق منه. لم يكن من اللائق أن أعُد المبلغ، فأنا لم أر من قبل العملة الصينية، التي يسمونها في الصين رنمينبي، أي النقد الشعبي أو العملة الشعبية وأعلى فئاتها يسمى يوان، وبالطبع لم أكن أعرف فئات لها. كان المبلغ يعادل أكثر قليلا من ثلاثمائة دولار أمريكي في ذلك الوقت. تحدثنا قليلا، وانغ فو وأنا، ونظرت أنا كثيرا من نافذة السيارة التي قطعت بنا مسافة أكثر من عشرين كيلومترا، قبل أن تعبر بنا ساحة واسعة، لا أدري من أي اتجاه، وقد أدركت بحدسي أن هذا المكان لا يمكن إلا أن يكون ساحة تيان آن من (السلام السماوي)، أكبر ميدان مساحة في العالم، حيث يغطي أربعة وأربعين ألف متر مربع. وقد لفت انتباهي، في جانب من الميدان، اللون الأحمر المميز لبوابات ضخمة تعلوها صورة كبيرة للزعيم الصيني الراحل ماو تسي تونغ. ذكرتني البوابات بباب دار جدي القديمة في منشاة قاسم بالشرقية في مصر، حيث لم يكن به مفصلة معدنية واحدة كأبوابنا هذه الأيام، وإنما يعتمد على ما يُسمى بالعقب، وهو عبارة عن محور ارتكاز خشبي يربط هيكل الباب بالحائط، ويعتمد عليه في حركته، ويصدر صريرا عند فتحه وغلقه. تلك البوابات الحمراء المرصعة بما يشبه رؤوس مسامير صفراء كبيرة الحجم، عرفت فيما بعد أنها بوابات القصر الإمبراطوري، الذي يسمى أيضا المدينة المحرمة التي لم تعد محرمة، فبواباتها مفتوحة لمن يدفع ثمن تذكرة الدخول. كانت المدينة المحرمة، التي تسمى بالصينية (سي جين تشنغ)، مقر إقامة وعمل إمبراطور الصين وحاشيته، وكان آخر ساكن لها هو الإمبراطور بو يي، الذي تنازل عن العرش في الثاني عشر من فبراير عام ١٩١٢ بعد نجاح ثورة ١٩١١ بقيادة الزعيم الصيني صون يات صن، وهي الثورة التي أنهت حكم أسرة تشينغ الإمبراطورية (١٦٤٤ – ١٩١١م) وأسست جمهورية الصين عام ١٩١٢، واختير يوان شي كاي رئيسا لها، ولكن يوان شي كاي أراد أن يُعيد الحكم الإمبراطوري فأعلن نفسه إمبراطورا للصين عام ١٩١٥، لتدخل الصين بعدها في مرحلة تاريخية أخرى.

●●●

بعد دقائق توقفت السيارة وترجلنا نحن الأربعة (وانغ فو، شياو شيوي، السائق وأنا) لأجد نفسي، وأنا في الصين الشيوعية- باعتبار ما كان وما كانت تختزنه ذاكرتي من معلومات حول الصين- داخل مطعم غربي اسمه كنتاكي فرايد تشيكن (كيه إف سي)! وكان الوقت موعد غداء، متأخرا قليلا، بالنسبة للصينيين الذين يتناولون غداءهم ما بين الساعة الحادية عشرة ونصف صباحا والثانية عشرة ظهرا. بعد غدائنا، واصلنا السير في طرقات بكين وخلال سيرنا لاحظت وجود كثير من أصص الزهور المرتبة بطريقة بديعة والتي تتحول إلى ما يشبه التلال في أماكن معينة، وكان أكثرها وأجملها في ساحة تيان آن من، هذا إضافة إلى الأعلام الصينية الحمراء المعلقة على بوابات المتاجر وتلك التي تمد أعناقها من نوافذ وشرفات البيوت. قلت في نفسي، ليس معقولا أن العاصمة الصينية ترحب بقدومي بهذه الطريقة الباذخة. ولكنني استمتعت حقا بالمشهد، الذي ظل يتكرر في كل مناسبة وطنية أو تقليدية بالصين. أخذني مشهد الزهور المتنوعة الألوان والأشكال والتي خلقت مع نسمات خريفية خفيفة أجواء منحتني شيئا من الشعور بالسكينة كنت حقا في حاجة إليه، فكنت أطيل النظر إلى تشكيلات الزهور، منها ما هو على شكل قوس ومنها ما هو على شكل بناية وما يُحاكي تنسيق حديقة صغيرة. هكذا حتى وصلنا إلى يو يي بين قوان (فندق الصداقة)، وهو المكان الذي يقيم فيه من كان يُطلق عليهم في الصين في تلك الفترة وقبلها "الخبراء الأجانب" الذين يعملون في وحدات عمل صينية مختلفة، ومنهم الأجانب العاملون في واي ون جيوي (دار النشر باللغات الأجنبية التي تغير اسمها إلى المجموعة الصينية للنشر الدولي) التي تتبعها مجلة "الصين اليوم".

حمل السائق حقيبتي، وكانت صغيرة، بها بعض الملابس والكتب، من بينها كتاب القواعد الأساسية للغة العربية المقرر على طلاب المرحلة الثانوية في مصر، وأكياس كثيرة ولفافات أخرى أصرت أمي أن أحملها برغم معارضتي، فقد ظنت "الحاجة" أنني ذاهب إلى بلاد قد لا أجد فيها ما يكفي من الطعام ومستلزمات المعيشة الأخرى. دخلت مسكني رقم ٦٤٩١٢ بمُجمع يا يوان في ذلك الفندق الضخم العريق الذي أنشئ عام ١٩٥٤، أي بعد خمس سنوات من تأسيس جمهورية الصين الشعبية، ويقال إنه أكبر

فندق مساحة في آسيا ويتميز بطرازه المعماري اللافت وخاصة أفاريز سقوفه الخضراء وتشكيلات بوابات مداخله وحدائقه. كان الفندق، ومازال، مكونا من مجموعة بنايات للنزلاء الذين يقيمون لفترة قصيرة وعدد من المجمعات السكنية يضم كل منها عدة بنايات ارتفاع كل منها أربعة طوابق ويتوسطها حديقة، ولكل مجمع(كومبوند) بوابة أو أكثر، فهو عالم مستقل حتى عن المجمعات السكنية الأخرى داخل نفس الفندق. كانت هذه البوابات تُغلق في الساعة الحادية عشرة مساء وتفتح في السادسة صباحا، وكان هذا يعني أن الذي يقيم في تلك المجمعات عليه أن يعود إلى مسكنه قبل الحادية عشرة مساء ولا يغادرها قبل السادسة صباحا، وإلا عليه أن يوقظ الحارس النائم في غرفة الاستقبال المجاورة للبوابة، ويتحمل نظراته، خاصة في برد الشتاء، وهو يفارق فراشه ليفتح له. وكان على من يزور شخصا مقيما في تلك المجمعات السكنية في يو يي بين قوان أن يسجل اسمه وبياناته قبل الدخول، وأن يغادر المكان قبل أن تدق الساعة الحادية عشرة مساء، موعد إغلاق البوابات. والحقيقة أنه نادرا ما كان أحد يخالف تلك المواعيد فبكين كانت مدينة تنام مبكرا جدا وتستيقظ مبكرا، ونادرا ما كان يجد الفرد مكان تسوق أو تنزه مفتوحا بعد الساعة السادسة مساء. ثم أن الفندق كان به دار سينما تعمل في أوقات محددة للخبراء الأجانب وعائلاتهم، وسوبر ماركت وناد، يسمى نادي الخبراء الأجانب، وقد تغير اسمه حاليا إلى "نادي اللياقة والرشاقة Fitness club".

وفندق الصداقة، الذي يغطي مساحة ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ألف متر مربع، اشتهر في فترة العلاقات الطيبة بين الصينيين والسوفيت، أيام كانت هناك دولة اسمها الاتحاد السوفيتي، باسم "دروجبا"، وهي اللفظة التي تعني الصداقة باللغة الروسية، نظرا لإقامة العديد من الخبراء السوفيت به في حقبة الخمسينات قبل أن تسوء العلاقات بين القطبين الشيوعيين. هذه المعلومة الأخيرة عرفتها بعد أن قرأت رواية للأديب السوري حنا مينة الذي عمل عدة سنوات في الصين وفي دار النشر باللغات الأجنبية تحديدا، إبان حقبة المد الشيوعي في بداية ستينيات القرن الماضي. الرواية التي تحمل عنوان «حدث في بيتاخو»، كتبها مينة ضمن ثلاثية عن الصين ضمت أيضا «عروس الموجة السوداء»

و«المغامرة الأخيرة»، ونشرها سنة ١٩٩٥، ولم تتيسر لي قراءتها إلا سنة ٢٠٠٢.

فندق الصداقة في بيدايخه Beidaihe، التي كتبها مينة في روايته «بيتاخو»، وهو فرع لفندق الصداقة ببكين، كان ساحة الأحداث الرئيسية لرواية حنا مينة، التي تعتبر سجلا وثائقيا لفترة من تاريخ الأجانب في الصين، وبخاصة العرب منهم. في غرف فندق الصداقة ببيدايخه، الذي أقمت فيه خلال زياراتي لتلك المدينة الساحلية الصغيرة، كنت أجلس بعد قراءة «حدث في بيتاخو» وأكاد أرى شخوص رواية مينة تمرق من أمامي أو تمشي متسكعة بين أشجار حديقة الفندق الواسعة التي تتناثر بينها الفيلات ذات الثلاثة طوابق. تغيرت أشياء كثيرة في بيدايخه التي زرتها آخر مرة عام ٢٠٠٧ عن بيدايخه رواية مينة، ولعل فندق الصداقة بها هو المعلم الوحيد الذي لا يزال محتفظا بملامحه التي كان عليها قبل نصف قرن تقريبا.

●●●

وبيدايخه التي أخذت بلُبي وبألباب كثيرين ممن زاروها، منتجع سياحي يعني اسمها "الواقعة شمالي نهر داي"، وتوجد مقابلها على الضفة الأخرى للنهر مدينة أخرى اسمها نانداخه، أي الواقعة جنوبي نهر داي، (بي تعني الشمال ونان تعني الجنوب) وكلمة داي تعني الحزام أو النطاق، وربما يحمل النهر هذا الاسم لأنه يشبه الحزام فعلا. وكل من بيدايخه ونانداخه يقع في زمام مقاطعة خبي بشمالي الصين، على مسافة نحو ثلاثمائة كيلومتر إلى الشرق من بكين. كان القطار يقطع المسافة بين العاصمة الصينية وبيدايخه في تسعينات القرن الماضي في نحو أربع ساعات، ولكنه اليوم يقطعها في ساعة ونصف فقط، دليلا آخر على ما تشهده الصين من تغير متسارع. وكانت بيدايخه من المقاصد الصيفية المفضلة للزعيم الصيني الراحل ماو تسي تونغ، وقد رأيته في ألبوم يضم مجموعة نادرة من الصور له بلباس البحر يسبح في مياه بحر بوهاي في بيدايخه. كانت مصلحة الدولة الصينية للخبراء الأجانب، وهي الجهة المعنية بالأجانب العاملين لدى الحكومة الصينية، تنظم في صيف كل سنة رحلات إلى بيدايخه للأجانب

التابعين لها الذين يعملون في بكين مقابل مبلغ ليس كبيرا يدفعه الخبير. كان الخبراء الأجانب يذهبون برفقة زملائهم الصينيين في مجموعات تقضي كل منها أربع ليال في هذه المدينة الساحلية، يقيمون بفندق الصداقة في بيدايخه، على مسافة أمتار من بحر بوهاي، وتوفر لهم الجهة المنظمة كل سبل الإقامة المريحة، وما حدث في رواية مينة، كان ضمن واحدة من تلك الرحلات.

في عام ألفين واثنين توقفت زيارات الخبراء الأجانب التي تنظمها مصلحة للخبراء الأجانب إلى بيدايخه، ولفترة انزوت بيدايخه في ذاكرتي وذاكرة كثير من الذين صحبتهم في رحلات بيدايخه، ولكن هذه المدينة الصغيرة حفرت ذكرياتها في أذهان كثير من الأجانب الذين عملوا في الصين، بجمالها الهادئ وطبيعتها الساحلية الساحرة، والأجواء الخاصة التي كان يعيشها الأجانب. جمعتني رحلة بيدايخه ٢٠٠٧ بخمسة وخمسين فردا من الخبراء الأجانب وزوجاتهم، يحملون ست عشرة جنسية مختلفة، ويعملون في شتى أنحاء الصين تقريبا؛ من شينجيانغ إلى شاندونغ، ومن يونان إلى لياونينغ، في تخصصات مختلفة، من الجيولوجيا إلى هندسة السيارات، ومن التدريس إلى الصحافة والإعلام، ربما الشيء الوحيد الذي يجمع بينهم هو أنهم قدموا ويقدمون للصين خلاصة علمهم وتجربتهم وخبرتهم، ولهذا حصلوا على جائزة الصداقة الصينية، التي هي أعلى تكريم تمنحه الحكومة الصينية للأجانب الذين يعملون بها، وقد حصلت في عام ١٩٩٩ على هذه الجائزة التي بلغ عدد الحاصلين عليها منذ إنشائها عام ١٩٩١ حتى الآن ثمانمائة وتسع وتسعين فردا.

ووصف "الخبير الأجنبي" في الصين هو التسمية التي تُطلق على المتخصصين الأجانب الذي يعملون في الصين، بطلب من الحكومة الصينية، في مجالات الإدارة الاقتصادية والتكنولوجية والتعليم والعلوم والثقافة والإعلام والصحة. وتمنح الحكومة هؤلاء الخبراء بعض الامتيازات التي تيسر لهم إقامتهم ومعيشتهم في الصين، خاصة أن عددا ليس قليلا منهم يختار الصين وطنا ثانيا له.

في بيدايخه ٢٠٠٧ اختلط الجمال الصيني بالجمال الروسي، إذ أنها أقرب مصيف للقاطنين في شرقي روسيا، وتداخلت فيها المقاطع الصينية مع الكتابات الروسية التي تكاد تغطي واجهة كل متجر ومطعم وفندق، وتنوعت الموسيقى الهادرة من أبواق منصوبة على الشواطئ، ما بين الأغاني الصينية والروسية والعربية والأمريكية. وعلى مدى أسبوع، هو فترة إقامتي في بيدايخه عام ٢٠٠٧، تحول شاطئ بحر بوهاي إلى أمم متحدة مصغرة، شهدت حوارات في السياسة والاقتصاد والدين والثقافة.

رحلات بيدايخه ظلت بالنسبة لي أكثر من مجرد سفرة إلى مصيف، إنها عالم واسع يجلي الفكر ويوسع الأفق، تُخرجني من إسار وإطار زمن الحياة اليومية في المدن اللاهثة المكتظة بالبشر والبضائع والحافلات.

●●●

في غرفتي، أو شقتي إن شئت بفندق الصداقة ببكين، حيث تتكون من صالة وغرفة نوم وحمام ومطبخ، جلست وانغ فو معي قليلا، وقالت: يمكن أن تستريح غدا وبعد غد هو إجازة العيد الوطني للصين، الأول من أكتوبر، والعمل يبدأ بعد العطلة، وسألتني ما إذا كنت أريد شيئا فشكرتها واستأذنت وانصرفت.

جلست منفردا بنفسي، وكانت الساعة جاوزت الثانية بعد الظهر، أفكر في ما سيأتي من أيام غير متيقن من شيء إلا أنني هنا، وسط هذا الخضم من البشر والأرض، بشر ظننتهم يختلفون عني في كل شيء، الشكل والفكر والاهتمامات والثقافة والطعام والشراب، وأرض بعيدة كان الناس في بلدي يستعيرون اسمها للتعبير عن المكان القصي، فيقولون: "سنأتي به حتى ولو في الصين"، بديلا عن "ولو وراء عين الشمس". لم أشعر برغبة في إراحة البدن، الذي كان فعلا مُنهكا، وإنما تهدئة الذهن الذي كان أكثر إنهاكا وتشتتا، ولم يكن ثمة من يُسعفني في هذا غير مواطن مصري سبقني إلى الصين بأيام للعمل خبيرا بوكالة أنباء الصين الجديدة (شينخوا)، لم أره من قبل، وإنما عرفت عنه الكثير من زوجته، زميلتي في العمل بمصر، وقد تحدثت معه هاتفيا في القاهرة مرة أو

مرتين قبل السفر إلى الصين، فهو الذي رشحني دون أن يعرفني لمكتب مجلة "الصين اليوم" بالقاهرة لهذا العمل. توجهت إلى موظفة الاستقبال بفندق الصداقة، حيث يقيم أيضا السيد صلاح أبو النجا، خبير القسم العربي بوكالة أنباء شينخوا، وأعطيتها اسم الرجل، وحاولت هي وتحليت أنا بالصبر على طول المحاولة، برغم أنني لم أكن قد عرفت بعد بمقولة الزعيم الصيني الراحل ماو تسي تونغ: "إن الصيني لا يمل الجلوس على الشاطئ حتى تأتي السمكة". وفي النهاية جاءت السمكة، فقد حددت لي الموظفة رقم مسكنه. اتصلت به فكان ودودا كريما وبعد دقائق كنا، هو وأنا، وجها لوجه. دعاني إلى تناول العشاء في مطعم الفندق، الذي يتميز بتقديم وجبة قال لي العاملون بالفندق إنها تناسب ذوق الأجانب، وبنصف السعر للخبراء المقيمين بالفندق، وحيث أنني لم أكن استخرجت بعد البطاقة التي تشهد بأنني خبير أجنبي، دفع السيد أبو النجا ثلثي السعر، باعتباري ضيفا عليه، كما كانت تقضي لوائح الفندق. في المطعم الذي رأيت به وجوها متعددة الأشكال والألوان وكأن العالم كله قد تم تصغيره في ركن بمطعم، حدثني السيد أبو النجا عن الصين، حسب خبرته السابقة في العمل بمكتب وكالة أنباء شينخوا في القاهرة وتجربته في التعامل سنوات طويلة مع الصينيين، وحسب ما تيسر له من انطباعات خلال الأيام القليلة التي أمضاها قبلي في بكين. وقد استشعرت من حديثه أن الطعام يتصدر قائمة المتاعب ومن بعده تأتي اللغة. في شأن الطعام لم يكن ثمة ما يؤرق، فلا أنا أكول ولا أعدم حيلة الطهي، أما اللغة فكان عليَ أن أجد حلا سريعا، ساهم الرجل فيه بمنحي قصاصة ورق بها بعض من الكلمات الصينية للضروريات المعيشية مكتوبة بحروف إنجليزية، وهي طريقة في الكتابة يسميها الصينيون بينينغ، أي استخدام الحروف الرومانية في كتابة الكلمات الصينية بطريقة نطق خاصة لبعض الحروف، فحرف Q مثلا ينطق شين أقرب إلى الجيم المعطشة. جمعت الورقة كثيرا من أسماء الخضراوات والفواكه والمواد التموينية من زيت وسكر وأرز وخلافه، وقد احتفظت بتلك الورقة زمنا طويلا حتى بعد أن أصبحت في غير حاجة إليها، فهي وثيقة من وثائق طريقي إلى الصين.

بعد الجلسة القصيرة، ولكن المفيدة، في المطعم الذي لم أستطب طعامه، رجعت إلى شقتي ليجافي النوم عيني، ورحت استعرض شريط أحداث عام مضى منذ أن طُرحت عليَ فكرة السفر إلى الصين للعمل.

●●●

كانت فكرة مثيرة، فالناس في بلدي عندما يبحثون عن عمل خارج الوطن يسافرون إلى الدول العربية النفطية غالبا، والأكثر طموحا ومغامرة منهم يقصدون إلى أوروبا وأمريكا الشمالية. والحقيقة أنني قبل السفر إلى الصين لم أكن أبحث عن عمل لا في الصين ولا في غيرها خارج مصر. كنت راضيا ومقتنعا بعملي في أرض الكنانة. وعندما أخبرت جدي، على شبل، بأمر السفر، لم يكن متحمسا ولم يكن رافضا، ولعله كان يتمنى أن أواصل أنا دراساتي حتى الحصول على درجات علمية أعلى، ولما لمس مني إصرارا وعزيمة، أخذ يحدثني عن الصينيين، وقال إنهم يتسمون بمهارة الصنعة، وراح يصفهم لي، فحكى لي عن جد الصينيين واجتهادهم وعزيمتهم مستشهدا بأنهم عندما ألحقت العصافير بمحاصيلهم ضررا كبيرا خرج الشعب كله يحمل خشخشات يطاردون بها الطيور حتى تخلصوا منها جميعا، وغيرها من الحكايات التي كانت بالنسبة لي أقرب إلى الأساطير، فقد كنت بحكم دراستي للعلوم السياسية أعرف عن الصين شيئا، ربما ليس كثيرا، فقد كانت الجامعات المصرية في ذلك الوقت تولي أهمية أكبر للدراسات الغربية. وقال صديقي أمجد العيسوي: ستكون أطول شخص في الصين، فالناس هناك قصار القامة! وأوصاني محمد خلف، الرجل الذي سبقني إلى الصين وعمل لمدة سنة في "الصين اليوم" بأن أستعد للجو البارد في بكين.

قبل السفر إلى الصين استفسرت من تشنغ بو رونغ، مسؤول مكتب "الصين اليوم" في القاهرة، وزميله لي هونغ جيه عن أشياء كثيرة في الصين، الطعام والشراب ودور العبادة والمواصلات وهلم جرا. وكانت ردودهما مطمئنة ولكنها أيضا حيادية... فكل شيء متروك لك أن تقرره، ليس هناك إجابات مطلقة أو قاطعة.

لـم تكـن ملاحظة "عدم الحسـم أو الجزم" من جانـب الأصدقاء الصينييـن غائبة عن ذهنـي وأنـا هنا على أرض التنين. وقد اكتشـفت لاحقا أنها رفيق لمـن يعيش في الصين. لا أحد يؤكد لك شـيئا، فكل شـيء دائما "يبدو"، "تقريبا"، "ربما"، "سـنرى" الخ من قاموس كلمات الوسـط ومنتصف العصا والـ"بين بين"، وعليك أن تعتمد على فراسـتك في تخمين ما يحدث، فالناس هنا، أو على الأقل المعنيون بأمرك، يقولون لك القدر الذي يريدونك أن تعرفه من العبارة، وبالشكل الذي يريدونه، وفي كل الأحوال بلطف شديد وأدب جم لا تملك أمامـه إلا أن تعجـب وتلجم. ولو كنت من أهل الفضول جهد عقلك وتعب ذهنك، لتكتشـف فـي النهايـة أنـك لن تعرف إلا ما قُـدر لك، من جانبهم، إلى أن تبدأ الاسـتيعاب بنفسـك، وتلك مهمة شـاقة في بلد يتكلم أهله لغة مختلفة ويمارسـون طقوس حياة وعادات وثقافة مغايرة تثير دهشـتك، على الأقل في البداية. ملاحظة "عدم الحسـم أو الجزم" تلك، أشار إليها وسـعى إلى تحليلها البروفيسـور فرانسـوا جوليان، الأسـتاذ بجامعة باريس السابعة، في مقال بالنشرة العربية لصحيفة لوموند دبلوماتيك لشهر أكتوبر ٢٠٠٦، بعنوان "الصين في مرآة الغرب"، حيث كتب قائلا: «يبدو لي أن المفكر الصيني في العصور القديمة طور فكـرة ما أسـميه "الجهوزيـة" أي ترك كل الإمكانات مفتوحة. ذلك أن ما يخشـاه الإنسـان "الحكيـم" هـو التحيـز الـذي يقـوده، إذا مـا اصطدم ببعـض ظواهر الأشـياء، إلـى فقدان الآخر. وقد قال مونشـيوس عن كونفوشـيوس: "عندما كان من المناسـب أن يتولى مهمة، كان يتولاهـا، وإذا لـم يكن مناسـبا، كان يتخلى عنها". وهناك على الأقـل طريقتان لتصور موقـف الصينـي "البين بين"؛ إذ يمكن فهمه على أنـه نقطة توازن بين حدين، فـ"البين بين" لـدى الحكيـم الصيني، هو القدرة على أداء كلا الأمرين مع بقاء "الانفتاح بالتسـاوي" على الحديـن. وفي هذه "المسـاواة" يقوم "الوسـط"، ولا يعني ذلك ملازمـة الحذر في منتصف الطريق ما بين هذا وذاك».

كان النوم حلما بعيد المنال بالنسبة لي في أول ليلة أقضيها على أرض التنين.

●●●

في العطلة الأسبوعية الأولى لي ببكين، الأحد الرابع من أكتوبر عام ١٩٩٢، استخدمت المواصلات العامة في الصين لأول مرة.. الباص رقم ٣٢٠ الذي يمر بمحطة لي قونغ دا شيوي (جامعة بكين للتكنولوجيا) القريبة من فندق الصداقة إلى محطة مو شي دي القريبة من قصر الضيافة الرسمي الذي ينزل به كبار ضيوف الصين، والذي أقمت فيه ليلة السادس من إبريل عام ١٩٩٩، ومن هناك الباص رقم ٤ إلى محطة ريتان لو، أمام يو يي شانغديان، أي متجر الصداقة. وقد لفت انتباهي تردد كلمة "الصداقة" (يو يي) في الصين وبين الصينيين في تلك الفترة، فأنت الصديق "بَنغ يو" دائما وهم الأصدقاء أيضا. كانت كلمة تونغجيه "رفيق أو رفيقة" التي سادت الصين منذ قيام الدولة الجديدة سنة ١٩٤٩ مازالت مستخدمة، ولكن "الأصدقاء" الصينيين نصحوني بعدم استخدامها كثيرا وخاصة عند مخاطبة الفتيات الشابات في المتاجر والمطاعم، فالأفضل هو "شياو جيه" أي الآنسة «صارت كلمة شياو جيه بعد ذلك تحمل مدلولا آخر في بعض الأماكن، إذ يقصد بها الفتاة اللعوب التي ترافق الرجل في الرقص والشرب في البارات». ولكن لا أدري لماذا كانت نفسي تميل إلى استخدام كلمة "رفيق" الجديدة تماما على قاموس لغة حياتي.

اخترت أن أذهب بالمواصلات العامة إلى "صبحي"، وهو رجل من أبناء بلدي، ديرب نجم، بمحافظة الشرقية، كان يعمل بسفارة مصر في بكين. لقد أردت أن أعيش حياتي في الصين مثل أي مواطن عادي. خلال تلك الرحلة التي استغرقت نحو ساعة تعرفت على "خه لي"، الفتاة التي ساعدتني في استبيان المحطات التي مر بها الباص رقم ٤ ونزلت معي أمام متجر الصداقة، بل وأرشدتني إلى مقصدي، السفارة المصرية، التي كنت أجهل مكانها. تبادلنا، خه لي وأنا، أرقام الهاتف، والتقينا في عطلة الأسبوع التالي، وتحدثنا كثيرا عبر الهاتف، هي بإنجليزيتها المتواضعة للغاية، وأنا بمجموعة العبارات الصينية التي كنت أستعد بها، مستعينا بزميلي بالقسم العربي في "الصين اليوم" فائق ما لينغ. كانت فرصة جيدة أن أتعلم مزيدا من الكلمات الصينية وأن أقترب أكثر من الشخصية الصينية، ولكن بعد أيام قليلة من تعارفنا أخبرتني خه لي أنها ستسافر إلى

شنتشـن. كانت هذه أول مرة أسـمع فيها اسـم هذه المدينة، التي اكتشفت، فيما بعد، أنها أرض الحلم لشباب الصين، والتي تحولت لاحقا إلى معجزة في كل شيء.

كانـت شنتشـن، منـذ أن تقرر جعلها منطقـة اقتصادية خاصة عـام ١٩٧٩، مقصد كل المغامرين والطامحين من شـباب هذا البلد، وبخاصة بعد الزيارة التفقدية الشـهيرة التي قـام بهـا زعيـم الصين الراحـل دنغ شـياو بينغ إليهـا عـام ١٩٩٢ وكلمته التـي ألقاها بها، والتي أكد فيها على أن "السـوق موجود أيضا في المجتمع الاشـتراكي، والتخطيط موجود كذلك في المجتمع الرأسـمالي، ويتعين على المجتمع الاشـتراكي تطبيق اقتصاد السـوق، وإلا سـيدخل فـي طريق مسـدود". كانـت كلمات دنغ بمثابة شـرارة الانطلاق، بعد شـرارة التأسـيس، لقرية الصيادين التي كانت مسـاحتها ثلاثة كيلومترات مربعة يسـكنها ٢٤ ألف نسـمة، والتي أصبحت الآن مدينة مسـاحتها أكثر من ألفى كيلومتر مربع ويقطنها أكثر من سـبعة ملايين نسـمة يحققون أعلى متوسـط دخل في الصين، قد تكون خه لي وأسـرتها من بينهم. وصارت شنتشـن نموذجا في التنمية يحرص كثير من زعماء العالم على زيارته للاستفادة من "تجربة شنتشن"، التي تُكتب أحيانا في الصحافة العربية شنجن.

●●●

كانـت بدايـة التسـعينات، وقـت وصولـي إلـى الصيـن، مرحلـة جـد دقيقـة فـي أرض التنين؛ فلا شـمس الاقتصاد المخطط والشعارات الأيدلوجية التي سيطرت على الساحة الاقتصاديـة والسياسـية فـي الصيـن منـذ عـام ١٩٤٩، أفلـت، ولا فجـر اقتصـاد السـوق والواقعيـة الجديدة انبلـج تماما. كان الصينيون ينطبق عليهم قول، "قدم في الداخل وقدم في الخارج". كنت، أنا وغيري ممن شاءت ظروفهم أن يعيشوا في الصين في تلك المرحلة، كمن يشاهد فيلما، تتبدل فيه المشاهد بسرعة بالغة قد تعجز العين عن ملاحقتها، ولكنه فيلم يحدث على أرض الواقع. كان كل شـيء يوحي بأن الصيني يفرد سـاقيه على ضفتي قناة، متأهبا للعبور، ومترددا أيضا؛ أمامه مغريات وآمال وفرص جديدة، ومن خلفه تراث وفكـر يثقلـه ويحـاول تثبيتـه فـي مكانـه وإثنائه عـن عزمه. كان صراعا نفسـيا وسياسـيا

واقتصاديا وعقائديا يحتاج جسارة، ويحتاج أيضا حنكة وتدرجا. البعض من الصينيين امتلك الجرأة في تلك الفترة وقرر "النزول إلى نهر التجارة" وهي العبارة التي كانت تطلق على من يخوض مجال العمل غير الحكومي، وكسر "القدر الحديدي" المملوك للدولة، وهو المصطلح الذي كان يطلق على الوظيفة الحكومية، والذي يتناول منه الجميع طعامهم وشرابهم ولباسهم ودواءهم، بل وكفنهم. كانت مغامرة صعبة ولكنها حقا كانت جديرة بالتضحية، هكذا أثبتت السنون اللاحقة.

●●●

كان عدد الأجانب في عاصمة الصين، في بداية تسعينات القرن الماضي، قليلا. وفي الغالب كان الأجنبي، أو كما يسميه العامة "لاو واي"، مميزا بين جحافل الصينيين. الناس ينظرون إليه في الشارع، كل له أسبابه. وكان معظم عامة الناس هنا، أو على الأقل القادمون من الأرياف إلى المدن بحثا عن عمل، والذين يسمونهم في المدينة "وايدي رن"، أي القادم من خارج المكان، ينظرون إلى الأجنبي على أنه "ثري" وأنه ينفق ليس فقط بسخاء وإنما بسفه، ربما بدون وعي أو تفكير. في أول شتاء لي ببكين، كنت مع صديق في طريقنا إلى مسجد دونغسي بقلب العاصمة، لشراء لحم، حيث كان اللحم المذبوح على الطريقة الإسلامية يباع فقط في دكاكين ملحقة بالمساجد، وغير متوفر بالمتاجر كما هو الحال الآن. في شارع دونغدان الذي يقع به المسجد لمحنا بائع بطاطا مشوية أغرتنا رائحتها والبخار المتصاعد منها في ذلك الصباح الباكر بالاتجاه نحو الشاب الواقف هناك خلف البرميل المشتعل من الداخل بقطع من الفحم الحجري. اخترنا قطعتين، ووضعهما الشاب، الذي تؤكد ملامحه أنه قروي، في ميزان اليد الذي اختفى الآن، ولاحظت أنه لم ينظر إلى مقياس الوزن. سألته كم؟ وعلى الرغم من أن سؤالي كان بالصينية، فإنه لم يجبني بلسانه، بل بيده. أخرج آلة حاسبة صغيرة وضغط على أزرارها لأرى أمامي الرقم ١٥. لم أفهم ماذا يقصد، فليس معقولا أن يطلب ما يعادل ثلاثة دولارات أمريكية في قطعتي بطاطا حلوة، في حين كان كيلو البطاطا يباع في السوق بيوانين، أي أقل من ثلث دولار أمريكي، على الأكثر. لاحظ الشاب القروي ارتباكي، فأخرج من جيبه ورقتي نقد واحدة فئة العشرة يوانات والأخرى فئة الخمسة يوانات، ففهمت تماما ماذا يريد.

في اليوم التالي، كنت خارجا من مكاتب "الصين اليوم" مع زميلي الصيني الذي يحمل اسما عربيا هو "حكيم"، وقصصت عليه ما حدث أمس، وسألته: كم ثمن الكيلوجرام من البطاطا المشوية؟ فرد: لا أعرف، فأنا أشتري البطاطة نيئة من السوق وأشويها أو أسلقها في البيت!

●●●

ظلت بكين على مدى أربعة شهور هي عالمي، أو هي الصين بالنسبة لي. ولكن بكين مجرد مدينة، عاصمة سياسية وثقافية، ولا يمكن بحال أن تكون صورة شاملة لتسعة ملايين وستمائة ألف كم مربع ومليار ومائة وعشرين مليونا من البشر، هم عدد سكان البلاد آنذاك. ثم آن لي أن أخرج من عالم بكين.

في الساعة الواحدة ظهر الخامس من فبراير عام ألف وتسعمائة وثلاث وتسعين ميلادية كنت بمطار العاصمة أستعد، مع مجموعة من الصينيين والأجانب، لركوب الطائرة المتجهة إلى قوويانغ، عاصمة مقاطعة قويتشو، في جنوب غربي الصين. لم يكن المطار الذي هبطت فيه طائرتنا بمدينة قوويانغ أكثر من مهبط في نهايته عدة مكاتب.

هنا، أدركت مدى اتساع رقعة الصين فالساعات الثلاث التي استغرقتها رحلة الطائرة من بكين إلى قوويانغ، تكفي لانتقالك من مصر إلى تركيا. وهنا، بدأت أرى صورة أخرى من الصين، تضاريس ووجوها ومستوى معيشة ولهجات. وفي قويتشو التي تبلغ مساحتها ١٧٦ كم مربع ويعيش بها ناس ينتمون إلى تسع وأربعين عرقا، أمضيت نحو عشرين يوما، معظمها بين جبال شاهقة الارتفاع، فأرض قويشتو كلها تقريبا جبال. في صباح اليوم التالي لوصولي قوويانغ كنت مع الآخرين، داخل سيارة ميكروباص تتلوى بنا بين الجبال، صعودا وهبوطا خمس ساعات ليس أقل، حتى وصلنا شيبينغ، وهي محافظة تابعة للمقاطعة يقطنها أبناء قومية مياو. وهنا أيضا انكشف لي وجه آخر من الإتيكيت، واكتشفت على مائدة العشاء التي أعدت لنا بواحدة من القرى، أن قواعد بروتوكول الطعام ليست مقتصرة على علية القوم ومآدب الكبار، وأن عليك أن تنتبه وإلا تعرضت لما قد

يسيئك. جلسنا وفق ترتيب صارم، وبدأت مراسم الترحيب بدخول فتاتين تحملان أقداحا وتمـر كل منهمـا على ضيف لتقدم له قدحين ترحيبا به. قبـل أن يأتي دوري، وبينما أنظر إلـى الزمـلاء لاحظـت أن من حـاول الاعتـذار منهم أجبر على شـرب ما فـي القدح. ملت علـى مرافقي في الرحلة، وانغ يونغ فانغ، وسـألته عما يشـربون فقـال إنه خمر يصنع من الأرز. هنا وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه، فقد قيل لي إن رفض الضيف ما يقدم لـه إهانـة للمضيـف. وهنا كانت قصة سـيأتي تفصيل لها لاحقا في فصـل "ثقافة المائدة الصينية" بهذا "السفر".

كنـت أظـن أن الصينييـن يتكلمـون لغـة واحـدة، ولكـن في رحلة قويتشـو أدهشـني أن هنـاك مـن يتولى "الترجمة" بين أعضاء وفد بكين وأبناء القرى والبلدات التي نزورها، من اللهجـة المحليـة إلى اللغـة الصينية الفصحـى (الماندرين). العـادات والتقاليد واللهجات فتحت عيني على عالم مشوق ومثير في الصين اسمه الأقليات العرقية، عالم لم أكن أرى في بكين شـيئا منه، اللهم إلا الأزياء المزركشـة لممثلي الأقليات العرقية الذين يحضرون اجتماع المؤتمر الوطني لنواب الشـعب والمجلس الاستشـاري السياسـي للشـعب الصيني الذي يعقد في بكين سنويا، فقد كانت أجهزة الإعلام الصينية، ومازالت، تبرز دائما صورة مندوبـي الأقليـات فـي أزيائهـم الفلكلورية المميـزة. غيـر أن اهتمامي بموضـوع الأقليات فـي الصين تجاوز قشـرة الـزي في محاولة لفهم مسـألة الأقليات بهذا البلـد، فالقوميات المعترف بها رسـميا في الصين وهي سـت وخمسـون، منها خمس وخمسون أقلية تختلف في جوانب كثيرة عن الأقليات في دول أخرى.

●●●

هنـا اكتشـفت الخطأ الجسـيم الـذي وقعت فيـه، ومازال كثيـرون يقعون فيـه، عندما ظننـت أن كل الصينييـن يتحدثون ما كنت أسـميه باللغة الصينيـة، فالحقيقة أن ما يقصد باللغـة الصينيـة هو ما يسـمى بوتونغهوا «هـوا تعني اللغة»، أي اللغة السـائرة أو الشـائعة لقومية هان والتي يشـار إليها خارج الصين باسـم "ماندرين". وقد كتب صحفي عربي في

عمود له بصحيفة عربية، تحت عنوان "ثكلتكم أمهاتكم" يقول: لو أن العالم قرية واحدة تضم ألف شخص سوف يتحدث منهم باللغة الصينية ١٦٥ شخصا، وباللغة الإنجليزية ٨٦، وبالهندية ٨٣، وبالإسبانية ٦٤، وبالروسية ٥٨، وبالعربية ٣٧، والبقية يتحدثون بأكثر من ٢٠٠ لغة، وهذا كلام غير صحيح، لأن كاتبنا صدق الاستبيان الذي افترض أن كل الصينيين في بر الصين الرئيسي وخارجه يتكلمون لغة واحدة. ولكن الحقيقة هي أنه من بين الخمس والخمسين أقلية قومية داخل بر الصين الرئيسي ثلاث وخمسون أقلية لها لغاتها الخاصة، باستثناء قوميتي هوي ومان اللتين تستخدمان لغة هان. وتستخدم إحدى وعشرون أقلية سبعا وعشرين لغة قومية مكتوبة، بل إن بعض الأقليات، تستخدم الواحدة منها عدة أنواع من اللغات المكتوبة فتستخدم قومية داي أربعة أنواع من اللغات المكتوبة وتستخدم قومية منغوليا نوعين من اللغات المكتوبة. ويستخدم السكان في بعض مناطق الأقليات القومية اللغة الصينية بالإضافة إلى لغتهم الخاصة نتيجة للتواصل منذ زمن طويل مع أبناء قومية هان. وفي بعض المناطق التي تقطنها أقليات مختلفة، يستخدمون جميعا اللغة الرئيسية المحلية في المنطقة، فكل الأقليات الموجودة في شينجيانغ تستخدم لغة قومية الويغور، والأقليات في منغوليا الداخلية تستخدم لغة قومية منغوليا، وفي منطقة شيشوانغبانا في مقاطعة يوننان جنوب غربي البلاد يستخدمون لغة قومية داي.

●●●

وقد سعت الحكومة الصينية منذ تأسيس الصين الجديدة عام ١٩٤٩ إلى الحفاظ على لغات الأقليات العرقية من الاندثار وفي نفس الوقت توحيد أو على الأقل تقريب لسان الصينيين، ومن هذا المنطلق أجريت في خمسينات القرن العشرين دراسة للغات الأقليات القومية، وبناء عليها ساعدت الحكومة قومية تشوانغ وقومية بوي وقومية مياو وقومية يي وقومية لي وقومية ناشي وقومية ليسو وقومية هاني وقومية وا وقومية دونغ على استحداث لغات مكتوبة لها، حيث لم يكن لأبناء تلك القوميات إلا لغة منطوقة. وساعدت الحكومة قومية لاهو وقومية جينغبوه وقومية داي على تحسين لغاتها المكتوبة

والارتقاء بها وتحديثها. وساعدت قومية الويغور وقومية القازاق على إدخال إصلاحات على لغاتها المكتوبة. وقد اختارت بعض القوميات لغات قوميات أخرى مألوفة لديها لاستخدامها، فاختارت قومية منبا وقومية لوبا مثلا لغة التبت.

رسميا، ينص الدستور الصيني على أن لكل قومية حرية استخدام وتطوير لغتها الخاصة، ولكن واقعيا تنتهج المؤسسات التعليمية ذات الأغلبية الطلابية من الأقليات القومية أسلوب التدريس بلغتين؛ بوتونغهوا ولغة القومية المعنية. وتستخدم لغات الأقليات القومية في كثير من الوثائق الحكومية الرسمية والاجتماعات والإعلام وفي الأماكن العامة، وعلى العملة الصينية الورقية مثلا تجد كتابة باللغة الويغورية والمنغولية. وفي أجهزة النشر والإذاعة والتلفزيون والسينما تستخدم اللغات القومية على نطاق واسع. وفي الإذاعة الصينية المركزية يوجد قسم للأقليات يبث برامجه داخل الصين وخارجها بلغات منغوليا والتبت والويغور وقومية كوريا؛ وتوجد محطات تلفزيونية في المناطق الذاتية الحكم مثل منغوليا الداخلية وشينجيانغ والتبت تبث بلغات الأقليات. وفي المناسبات السياسية الكبيرة مثل المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي الصيني والمجلس الوطني لنواب الشعب والمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني توجد ترجمة فورية بلغات منغوليا والتبت والويغور والقازق وكوريا وتشوانغ ويي للنواب والأعضاء من الأقليات القومية الذين لا يعرفون بوتونغهوا.

ورسميا أيضا ينص الدستور الصيني على أن الهيئات الذاتية الحكم للمناطق الذاتية الحكم عندما تنفذ القانون يجب أن تستخدم اللغة أو اللغات المحلية وفقا لقانون الحكم الذاتي للمناطق الذاتية الحكم للأقليات القومية. وقد قررت بعض الأقاليم الذاتية الحكم للأقليات العرقية استخدام لغة القومية، فمنطقة التبت الذاتية الحكم قررت اتخاذ لغة التبت لغة رئيسية، مع استخدام بوتونغهوا أيضا. ويحق لأبناء الأقليات القومية استخدام لغاتهم في الهيئات القضائية؛ في رفع الدعاوى مثلا، ويكون على المحاكم والنيابات أن تقدم ترجمة للطرف الذي لا يعرف اللغة المحلية، بل إنه في المنطقة المأهولة بأقلية قومية أو قوميات مختلفة يتم نظر القضايا باللغة المحلية الشائعة الاستعمال.

وتستخدم محاضر النيابة العامة وقرارات المحكمة والإعلان والوثائق الأخرى اللغة أو اللغات المحلية الشائعة الاستعمال.

●●●

لم أكد أفيق من مفاجآت اللغة والتقاليد والعادات واللباس ومستوى المعيشة التي صادفتني خلال رحلة قويتشو، حتى باغتتني مفاجأة أخرى جعلتني أعي على نحو أكثر أنني في بلد مختلف في الثقافة ونمط الحياة وأشياء كثيرة. ربما أنستني أيام قويتشو تواريخ الأيام ولكن فور عودتي علمت في اتصال بأحد الأصدقاء أن غدا، الثلاثاء، الثالث والعشرين من فبراير عام ألف وتسعمائة وثلاث وتسعين للميلاد هو الأول من شهر رمضان سنة ألف وأربعمائة وثلاث عشرة للهجرة. ولكنني حقا لم أر شيئا أو مظاهر تشي بأن الشهر الفضيل قادم؛ لا فوانيس ولا إذاعة تبث "رمضان جانا أهلا رمضان" ولا رائحة العرق سوس ولا حركة دءوب في الشوارع عشية بداية الشهر ولا زينات رمضانية معلقة في عاصمة الدولة التي كان عدد المسلمين بها وفقا للأرقام الرسمية التي قرأتها في نشرات وكالة أنباء شينخوا آنذاك ١٨ مليونا. كان ذلك جد صعب على إنسان قادم من مصر، حيث لرمضان نكهة خاصة، وحيث يعلن رمضان عن نفسه حتى لمن لا يعرفه. ومع أول رمضان لي في الصين تعلمت عددا من الدروس التي أفادتني في الرمضانات التالية وفي غيرها من المناسبات.

كان أول درس رمضاني تعلمته في الصين أن لا أشغل بالي باستطلاع هلال الشهر، إذ يتم تحديده فلكيا وتعلنه الجمعية الإسلامية الصينية مبكرا جدا، ولا أشغل بالي أيضا بموعد انتهاء الشهر فأنت هنا تصوم ثلاثين يوما بالتمام والكمال، فأنا لم أصم رمضان أقل من ثلاثين يوما لمدة خمس عشرة سنة متتالية. وتعلمت أيضا أن لا أقلق على طعامي، فالعاصمة الصينية التي يقطنها نحو ثلاثمائة ألف مسلم صيني بها مطاعم إسلامية تكفي أكثر من مليون آكل، ولكن تظل مطاعم أبناء الويغور هي الأكثر تفضيلا لدي، فالمطعم الويغوري الواقع في مكتب منطقة شينجيانغ ببكين، رمز الوجود الويغوري

فـي العاصمـة، ظل قبلتي، فـي إفطار رمضان، وهو مكان يعطيك روحا إسـلامية، فالناس تسـتقبلك بالتحيـة الإسـلامية، والزخارف والأجواء إسـلامية إلى حد كبيـر. وفي زمن لم يكن الإنترنت قد ظهر كانت إمسـاكية الجمعية الإسـلامية الصينية، وهـي الجهة الرسـمية المعنية بشـئون المسـلمين في الصين، هي سندي في تحديد مواقيت الإفطار والإمساك، ولما ظهر الإنترنت وصرت أحصل على التوقيتات من مواقع الإنترنت الإسلامية اكتشفت أنهـا لا تتفـق دائمـا مع إمسـاكية الجمعية الإسـلامية التـي لاحظت أن المواقيـت فيها لا تتغيـر، فعندمـا قارنـت جدول مواقيت الصـلاة الذي حصلت عليه عـام ١٩٩٢ مع الجدول الذي حصلت عليه في عام ٢٠٠٢ لم أجده مختلفا.

وبرغم المسـافة البعيدة بين بيتي وأقرب مسـجد من مساجد بكين التي يزيد عددها على الخمسـين، قررت ألا أحرم نفسـي متعة صلاة القيام جماعة، وكابدت البرد القارس في شتاء عام ١٩٩٣ وتوجهت إلى جامع هايديان، وكانت تلك آخر مرة صليت فيها التراويح بهـذا المسـجد، فقـد أمنـا الإمام الشـاب في صلاة العشـاء وأتبعهـا بصلاة القيـام، التي صلاها إحدى وعشرين ركعة، كل هذا في نصف ساعة تقريبا. كنت أحاول جاهدا مواكبة الإمام في الركوع والسجود ولكن حقا كانت مهمة صعبة.

وخلال رمضاني الأول في الصين اكتشفت شارعا اسمه نيوجيه، وترجمته الحرفية هي شارع البقر، الذي يقع به أقدم مساجد بكين ويحمل اسم الشارع. معظم سكان هذا الشارع ينتمون لقومية هوي، وهي واحدة من عشر قوميات صينية تدين بالإسلام. في هذا الشارع أو الحي شعرت بشيء من رمضان الذي أعرفه.

وقـد ظل إحسـاس خاص يرافقني في رمضان بالصين، ذلـك البلد الذي يمثل الطعام والشراب ركنا هاما من ثقافته، فالناس في الصين يقدسون مواعيد الطعام لدرجة تقترب مـن تقديـس المؤمـن لمواقيـت صلاته ويعجبـون منك، وقـد لا يصدقون أنـك تمتنع نهارا كاملا عن الطعام، وربما ينصحون ويسألون، ألا تشرب بعض الماء؟ وأقول لهم إن المسألة ليست مجرد امتناع عن طعام وشراب.

●●●

بعـد نحـو خمس سـنوات من رحلـة قويتشـو أتيحت لي فرصـة أخـرى للانخراط في عالم الأقليات العرقية، ولكن هذه المرة إلى منطقة يتجمع فيها نحو مليوني نسمة ينتمون إلى قومية هوي. كانت نيغنشـيا قد حفرت لنفسـها في ذهني مكانا ومكانة خاصة قبل أن أزورها في شهر يوليو عام ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين ميلادية. كنت التقيت في بكين بالكثيـر من أبناء تلك المنطقـة الذاتية الحكم لقومية هوي، والتي كانت الامتداد الطبيعي لطريـق الحريـر القـادم مـن غربي إلى وسـط آسـيا منتهيا في الصيـن. كما أنهـا المحور الشـمالي الـذي دخـل منه الإسـلام إلى الصيـن، ذلك المحور الممتد من آسـيا الوسـطى مـارا بشـينجيانغ وقانسـو حتى نينغشـيا، وهو المحـور المقابل لمحور السـاحل الجنوبي، مـن يونـنـان إلى قوانغدونغ ففوجيان. كانت نينغشـيا مرتبطة في ذهنـي بالفقر والصحراء والقحط، وكانت تمثل بالنسبة لي نموذجا صارخا للفجوة الاقتصادية المتزايدة بين مناطق الصين، بين الجنوب الثري المتقدم والوسـط والشمال الغربي حيث الفقر والتخلف. لهذا فإننـي عندمـا وصلت إلى عاصمـة المنطقة، مدينة ينتشـوان، كان الهاجس الذي يراودني هـو البحـث عن شـيئين، الفقر وأبناء قومية هـوي، بنطق الهاء أقرب إلـى الخاء، التي هي ثالث أكبر أقلية قومية في الصين بعد قوميتي تشوانغ ومان، فقد كان عدد أبناء هوي في الصين عندما زرت نينغشـيا عام ١٩٩٨ حوالي تسـعة ملايين فرد حسب الأرقام الرسمية، وحسب البيانات الصينية الرسمية في عام ٢٠٠٧ وصل هذا العدد تسعة ملايين و٨ر٨١٦ ألف نسـمة، أي زاد عددهم أقل من مليون خلال نحو عشـر سـنوات. ويختلف أبناء هوي عن أشـقائهم المسـلمين في منطقة شـينجيانغ في ملامحهم ولغتهم، فأبناء هوي يشبهون تماما أبناء هان في الشـكل وفي اللغة بينما أبناء الويغور أكثر شـبها بأبناء آسيا الوسطى، ويتحدثون لغة تنتمي إلى الأرومة التركية. والانتماء الديني لدى أبناء هوي يفوق انتماءهم العرقي بينما تغلب النزعة العرقية لدى الويغور على نزعتهم الدينية.

فـي نينغشـيا أثار انتباهي شـيئان، حجاب النسـاء والمـآذن التي يتجاوز عددها سـتة آلاف مئذنة لأكثر من ثلاثة آلاف مسـجد، في منطقة يقيم بها عشـرة في المائة فقط من مسـلمي الصيـن، ولهذا يقصد نينغشـيا المهتمون بدراسـات المسـلمين فـي الصين، وقد

أمضى بها الباحث الأمريكي البروفيسور درو غلادني مدة طويلة أثناء دراسته للمسلمين في الصين. وقد أشار في كتابه "الصينيون المسلمون: الأقليات العرقية في الجمهورية الشعبية" إلى دور الدين في تحديد هوية أبناء هوي ودور المسجد كمركز للقرية في تلك المنطقة. ومما قاله غلادني عن أبناء هوي، أنهم مسلمون ملتزمون بتعاليم الإسلام، ويجيد أئمتهم العربية والفارسية، مضيفا أن تاريخهم ملئ بالخلافات الفقهية والمذهبية، وقد حاولت خلال رحلتي في نينغشيا أن أعرف مزيدا حول تلك المذاهب.

●●●

دخل الإسلام نينغشيا مع غيرها من مناطق غربي الصين خلال فترة أسرة تانغ الإمبراطورية، وتقول كتب التاريخ الصينية إن مبعوثا للخليفة عثمان بن عفان وصل الصين في عام ٦٥١ ميلادية، وكان مكان استقباله هو مدينة تشانغآن، التي تسمى حاليا شيآن، عاصمة مقاطعة شنشي. ويرجع كثير من المؤرخين الصينيين أصول أبناء هوي إلى التجار العرب والفرس الذين جاءوا إلى الصين في الفترة الأولى للدعوة الإسلامية وتزاوجوا مع الصينيين، بل يقول بعض الباحثين إن اسم "ما"، الشائع بين أبناء هوي هو تحوير لاسم محمود و"هو" حسين و"ها" حسن و"ساي" سعيد. على أية حال، الحقيقة الراهنة هي أن أبناء هوي صينيون يعتنقون الإسلام تأثروا بالحضارة الصينية وثقافتها كما كان لهم دور في صياغة تلك الحضارة.

في مدينة ينتشوان، عاصمة نينغشيا، كانت الرموز الإسلامية واضحة، ويكفي أن تقول "السلام عليكم" لتجد الرد جاهزا، ولكن تلك الرموز تتكاثف أكثر كلما تقترب من مسجد نانقوان الكبير في المدينة، فالمنطقة المحيطة به بها مكتبات إسلامية ومطاعم ومتاجر لبيع سلع ذات طابع إسلامي.

المسجد ذاته بطرازه المعماري العربي والذي لا يخلو من تأثير صيني دلالة واضحة على الحضور الإسلامي في المدينة. مسجد نانقوان نموذج للمساجد الأخرى في نينغشيا، باستثناء الجامع الكبير في تونغشين. بعد دخول ساحة مسجد نانقوان من

البوابة الرئيسية التي تعلوها قبة خضراء على قمتها هلال، ترتفع على الجانبين مئذنتان، المسافة التي تفصل بينهما عبارة عن فناء واسع تتوسطه نافورة كبيرة محاطة بأنواع من الزهور. ومع التقدم إلى الداخل يواجهك المصلى الذي تصعد له عدة درجات سلم، وعلى اليمين الغرف المخصصة لإقامة الإمام ومدير المسجد والعاملين الآخرين، إضافة إلى قاعة الدروس الدينية وعلى اليسار غرف أخرى تستخدم كمتاجر لبيع سلع لها علاقة بالمسلمين، وإلى أسفل يمين المصلى توجد الميضأة. زخارف القبة والمصلى من الداخل إسلامية عربية بخصائص صينية، كما أن الأبواب والنوافذ مبنية بالطريقة المقببة، كما هو الحال في معظم مساجد العالم.

بعد ليلة في ينتشوان ذهبنا إلى ووتشونغ، وهي محافظة أكثر من نصف أهلها ينتمون إلى هوي، وفي أحد أسواقها رأيت مشهدا مغايرا تماما لأي سوق رأيته في حياتي، داخل الصين.. الرجال كلهم ملتحون ويعتمرون القبعات البيضاء والنساء يضعن غطاء الرأس. والتجار يتفاوضون على سعر البضاعة بطريقة خاصة، فهم يدخلون أيديهم في أكمام بعضهم ويناقشون السعر بملامسة الأصابع وليس بالكلمات.

بعد ووتشونغ توجهنا إلى تونغشين، تلك المدينة التي يسمونها في الصين "مكة الصغرى". كنا كلما اقتربنا من تونغشين أكثر أستشعر أنني مقبل على مكان يختلف حتى عن باقي نواحي نينغشيا من حيث المظاهر الدينية. فعدد المآذن يزداد والعبارات الإسلامية المكتوبة باللغة العربية تتقاطر وحجاب النساء يسفر عن نفسه في كل اتجاه. وفي جولة بالقرب من مقر إقامتي في تونغشين أخذتني قدماي نحو دكان صغير تجلس في أحد أركانه عجوز ترتدي ثيابا أسود فضفاضا وغطاء رأس أبيض. قلت لها: السلام عليكم، فردت بلغة عربية واضحة سلامي. جلست مع الحاجة حليمة حيث حدثتني عن أسرتها ودكانها. رجعت إلى الدكان في اليوم التالي فرأيت ابنتها أمينة وولديها موسى وزينب، وقد فاجأني الطفلان الصغيران بترديد آيات من القرآن الكريم.

●●●

أمام الجامع الكبير بالمدينة، وهو واحد من تسعة عشر مسجدا بالمنطقة الحضرية لتونغشين، ظننت أنني أمام معبد بوذي أو طاوي، فطرازه المعماري يشبه المعابد البوذية، ولهذا ما إن دلفت بوابته وارتقيت السلم الصاعد إلى قاعة الصلاة حتى سألت إمام المسجد محمد ولي الله لي تسي مينغ، الذي يسمى آهونغ، وهي كلمة فارسية تعني الإمام، سألته ما إذا كان هذا المسجد معبدا تحول إلى مسجد. قال الإمام، إن هذا غير صحيح، فهذا الجامع الذي بني في فترة أسرة مينغ الإمبراطورية بناه المسلمون بأيديهم، أما سبب بنائه على هذا الطراز المعماري، فهو أنه كان من غير الممكن أن يقام مسجد آنذاك على الطراز الإسلامي. المسجد يشبه قلعة شاسعة المساحة، به مقصورات وجواسق بأفاريز صينية، وقاعة الصلاة به تتسع لألف فرد. ومن بين ما قاله الإمام لي تسي مينغ، الذي عرفت في أوائل عام ٢٠٠٧ من إبراهيم هونغ يان، إمام الطائفة النقشبندية في نينغشيا، أنه انتقل إلى رحمة الله، قال إن مسلمي نينغشيا ينقسمون إلى عدة فرق تتفرع كلها من الصوفية، مثل الإخوان، وهي فرقة لا علاقة لها بجماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا في مصر عام ١٩٢٨. وأهم ما يميز الإخوان أنهم يلتزمون بالأصول ويمكن القول إنهم سلفيون. وهناك الجهرية، وأبرز خصائصها الجهر بالقراءة والدعاء، وهناك الخُفية، وهي عكس الجهرية فيما يتعلق بالقراءة والدعاء. ثم هناك القدرية.

لم تكن رحلة نينغشيا مجرد انتقال من مكان إلى مكان داخل الصين، وإنما جولة في عقل وفكر ونمط حياة وعقائد الصينيين، فرقاع الصين تتباين فيما بينها تباينا ربما لا يوجد له مثيل في دولة أخرى.

زرت نينغشيا بعد سنتين من زيارتي الأولى ولاحظت أن تغيرات طرأت عليها، ولكنها تغيرات أقل بكثير من تلك التي أراها في بكين وفي مناطق الساحل الجنوبي والشرقي.

●●●

وقد ظلت زيارة منطقة أخرى أملا يراودني، وبعد سنوات طويلة في الصين تحقق أملي وزرت شينجيانغ، وكتبت عنها، وفرق كبير بين زيارة شينجيانغ والكتابة عنها، فالكتابة

عـن هـذه المنطقـة مهمة صعبة، فما يُكتب عن شـينجيانغ داخل الصين يختلف بشـكل أو بآخر عما يقال عنها خارجها. ويكفي أن تتصفح الإنترنت من أي محرك بحث لتجد فيضا من الكتابات عن شـينجيانغ، أو كما تسـميها العديد من الكتابات العربية "سـنكيانج". كان ذلك في شهر يونيو ٢٠٠٥ حيث بدأ ما أسميته أنا موسم الهجرة الإعلامية إلى شينجيانغ بمناسبة احتفال المنطقة بمرور خمسين عاما على إقامة المنطقة الذاتية الحكم بها.

قبـل السـفر اجتمع رئيـس المجموعة المسـافرة، وكانت تضم صينييـن وأجانب، معنا وأسدى العديد من النصائح التي تخيلت معها أننا سننتقل من بكين إلى عالم آخر. وأدركت مـن هذا اللقاء كيف يسـهم الصينيون أنفسـهم أحيانا في خلق الإحسـاس بأن شـينجيانغ مكان بعيد، فما يكتب عن هذا الجزء من الصين يكون أحيانا غامضا غير مفهوم، كما أن اختصـار العديـد من الكتابـات الصينية ثقافة وحياة أبناء الأقليات العرقية في شـينجيانغ بأنهم يجيدون الغناء والرقص يجعلك تتصور أن هؤلاء الناس لا يفعلون شيئا غير الرقص والغنـاء. وتدرك بعد زيارة شـينجيانغ كيف أن هذا الاختصـار مجحف بحق هؤلاء الناس. شينجيانغ تقدم لك لوحة فريدة من الوجوه والتضاريس واللغات والتقدم والتخلف والثراء والفقـر والصحـارى والواحات والأطعمة واللباس. إنها لوحة شاسـعة، مسـاحتها ١ر٦٦٤٩ مليون كم مربع ، تحتل سُـدس مسـاحة الصين، تجاور ثماني دول بحدود تمتد ٥٦٠٠ كم، ترتبط معها جميعا بعلاقات نسب ومصاهرة واختلاط دماء، فشينجيانغ الصينية الانتماء لا تسـتطيع أن تنتـزع نفسـها مـن ارتباطها الوسـط آسـيوي، ولا يمكن بحـال فض تداخل اسمها مع الإسلام في الصين؛ فتلك قراءات لا يمكن أن تتجاهلها وأنت في تلك المنطقة النائية الواقعة شـمال غربي البلاد والتي يعيش فيها عشـرون مليون نسمة ينتمون إلى ٤٧ قومية، على رأسها الويغور (ئيغور كما يكتبها أهلها).

بعـد الوصـول إلـى عاصمة المنطقـة، مدينـة أورومتشـي، (يكتبها الويغـور ئورمجي)، أدركـت أن رحلـة الطائـرة التي اسـتغرقت ثلاث سـاعات ونصف مـن بكين لم تكـن كافية لتختزل مشـاهد العاصمة الصينية من الذاكرة وتأهيلها لمشـاهد أخرى مختلفة. المطار بحد ذاته واجهة طيبة، فمن حيث الاتسـاع والحداثة والتجهيزات يفوق كثيرا من مطارات

دول عربية، وهو مطار دولي تنطلق منه رحلات دولية، واحدة منها إلى الشارقة في دولة الإمارات العربية. وفي الطريق من المطار إلى قلب أورومتشي بوسعك أن تقرأ ملخصا عاما لما قد تراه لاحقا في هذه المنطقة التي تعادل مساحتها مساحة كل من مصر والعراق وسورية معا، فعلي جانبي الطريق تطالعك عن شمالك مدينة ناهضة، أبراج عالية، متاجر حديثة ومظاهر بحبوحة العيش، وتصدمك عن يمينك الغرف الشبيهة بالكهوف في منحدر تل، أمامها أطفال حفاة وعجائز ينطق الفقر في عيونهن.

أورومتشي، عاصمة المنطقة هي أكثر مدينة بعدا عن البحر في العالم، كما أنها مركز قارة آسيا. فيها ترى الجبال من كل صوب. في هذه المدينة يعيش نحو ثلاثة ملايين من البشر من قوميات شتى، فهي بوتقة انصهار لأعراق مختلفة، فالناس هنا ينتمون إلى ثلاث عشرة قومية، وربما لا توجد مدينة أخرى بالصين بها هذا التنوع في الوجوه واللباس واللغات واللهجات مثلها، برغم أن ٧٠٪ من سكان أورومتشي ينتمون إلى قومية هان. وأروموتشي ليست مزيجا من البشر والألسن فحسب، بل خليط من العقائد، ففيها معبد كونفوشيوس الذي بني عام ١٦٧٦، وفيها مساجد أشهرها وأكبرها ثلاثة، مسجد شانشي الواقع بشارع خهبينغ (السلام) الجنوبي الذي بني عام ١٩٠٦، ومسجد يانهانغ المبني عام ١٨٩٧ ومسجد ناداسه المبني قبل أكثر من مائة عام. ومن ردهة مقر حكومة منطقة شينجيانغ ترى بوضوح الصليب مرفوعا فوق كنيسة تتوسط المدينة.

في أورومتشي كان لابد أن أزور البازار؛ ذلك السوق المميز بطرازه المعماري الإسلامي، والمقام بمدخله مسجد بالطابق العلوي ومن تحته عدة طوابق هي متاجر تبيع المنتجات المحلية ومنتجات واردة من جنوبي الصين. وإن كنت من هواة المساومة على الأسعار فذلك مكان مثالي. ولا تخش شيئا فالباعة هنا يتميزون بلطف وذكاء شديدين، وكثير منهم تجار قادمون من مناطق صينية أخرى. وفي الغالب لن تستطيع أن "تفلت" منهم خالي الوفاض. وأبناء الويغور لهم باع في التجارة، وقد وصفهم نائب عمدة أورومتشي ليو تشه يونغ في لقاء مع وفدنا بأنهم "يهود آسيا"، وهو وصف لم يرُق لعدد من زملاء الرحلة من الأجانب، ربما لارتباط صورة الويغوري في أذهان قاطني بكين بباعة الشيش كباب

في شـوارع العاصمة. وشـأن كل بقعة في الصين، تتغير أورومتشـي وتكتسب ألوانا جديدة وحديثـة، فهنا تجـد كنتاكي وماكدونالـد وكاريفور والعلامات التجارية العالمية المشـهورة والفنادق الفاخرة والمولات الضخمة وزحام السـيارات وحياة الليل في المطاعم والبارات ومقاهـي الإنترنـت والحدائق العامة. وكمـا هو الحال في أرجاء الصين، تشـعر هنا بأمان تفتقـده فـي مـدن كثيرة بالعالـم، وتلك ملاحظة لابـد أن يدركها من يأتـي إلى هنا محملا بذاكرة عن الاضطرابات في شينجيانغ!

بعد العاصمة، كانت كاشـغر، أو قه شـقه ر، كما يكتبها الويغور، مقصدنا. وبالطبع لم يكن الوصول إلى كاشغر في عام ٢٠٠٥ سهلا بعد نحو ألف وثلاثمائة عام من وصول القائد المسـلم قتيبـة بن مسـلم الباهلي إليها عـام ٧١٤م، كما تقول الكتابـات التاريخية العربية. فكاشـغر تسـجل وفق بعض المصادر بوابة دخول الإسـلام إلى الصين، عندما وصل قتيبة مشـارفها وبعـث بوفد يفاوض إمبراطور الصين. الوفد قـال للإمبراطور إن قائدهم قتيبة أقسـم أنه "لـن ينصرف حتى يطأ أرض الصين"، وهنا ضـرب الصينيون نموذجا رائعا في فن التفاوض وفي الذكاء أيضا، حيث بعث الإمبراطور الصيني للقائد المسلم بصحاف من ذهب فيها تراب من أرض الصين فوطأه الباهلي وأبرأ يمينه وانصرف!

كانت كاشـغر ذات يوم أحد المراكز الإسـلامية الهامة في آسـيا الوسطى. إنها مدينة عمرها أكثر من ألفي عام منذ أن أسست قبائل توشلان عاصمتها بها، ثم وصلتها البوذية في القرن الثاني الميلادي ووصلها الإسـلام في القرن السـابع. وقد اعترفت كاشـغر في نهاية القرن السابع الميلادي بحكومة أسرة تانغ الإمبراطورية التي كان لها حامية عسكرية بالمدينة ولكن الصينيين انسـحبوا منها من عام ٦٧٠ إلى عام ٦٩٤ بعد أن توسـعت التبت وضمـت إليهـا الأراضي الواقعة بالواحات الجنوبية لحوض نهر تاريم. ومن القرن العاشـر إلـى الثانـي عشـر، بعد أن سـيطر خانـات القرقنيـد على بخـارى وخوتان اتخذوا كاشـغر عاصمـة لهـم. وظلـت المدينة فـي اضطرابات حتـى بداية القـرن العشـرين عندما قامت انتفاضـة إسـلامية بها ضد حكومة الكومنتانغ خلال الثلاثينـات، ولكن هذه الانتفاضة تم القضـاء عليها بعد عشـر سـنوات، وفي عام ١٩٤٩ أعلن جيش المناطـق الثلاث الذي كان مسيطرا على كاشغر قبول قيادة الحزب الشيوعي الصيني.

قـه شـقه ر الحاليـة منطقة إداريـة يتبعها ١١ محافظـة ومدينة واحدة، يسـكنها ثلاثة ملاييـن ونصـف مليـون نسـمة، ٩٣٪ منهـم ينتمـون إلـى قوميـة الويغـور والباقـون ينتمون إلـى قوميـات هـان وطاجيك وأوزبك وقرغيز وغيرها. تقع كاشـغر في جنوبي شـينجيانغ، يحدها من الشـرق صحراء تاكلامكان ويجاورها من الغرب والجنوب الغربي قرغيزسـتان وطاجيكستان وأفغانستان وباكستان والهند.

فـي هـذه البقعة مـن أرض الصين أنـت في واقع مختلـف، المكان الواحد له اسـمان، واحـد بلغة هـان وآخر بلغة الويغور، فمحافظة ييتشـنغ بالصينية هي قاغـلاق بالويغورية، وساتشه هي يه كن وتسيبو هي بوسكام. وهنا ترى واجهات المتاجر والمؤسسات الحكومية والإعلانـات بلغتي الويغور وهـان معا وإن كانت الثانية تقل كثيرا كلما اتجهت جنوبا وغربا حتى تكاد تكون قاصرة على المؤسسات الحكومية الرمزية مثل مقر الحكومة والحزب.

والزائر العربي لهذا المكان لا يجد نفسه غريبا، فالناس هنا تشاطره كثيرا من ثقافته وتقاليده. في إحدى القرى زرنا أسـرة تعمل بغزل القطن مسـتخدمين مغازل بدائية. ولما راحـت ربة الأسـرة، فاطمة، تسـتعرض أمامنا عملهـا "حرن" المغزل العتيق فسـمت عليه، باسم الله الرحمن الرحيم، فأكملت عليها فاتحة الكتاب. وكان منها نظرة فهمتها أنا وهي. إنـه مشـهد تكرر كثيـرا هنا. كلمات عربية وتركية وفارسـية تسـتخدم الحـرف العربي مع طريقـة كتابـة أقرب إلـى الأفغانية، فالحكومة هي هكومتي، واسـتوديو التصوير هو صوره تخانسي، والحياة هي هايات، قلم، تليفون، تلغراف، مركزي، شه مالي (شمالي)، شه رقي (شـرقي)، مـه كتـب (مكتب) ودختورخانـه (عيادة الطبيب) وخاشـوق (ملعقة بالفارسـية)، سياسي اقتصادي، قانون، كتابخنسي (مكتبة)، خوش (جيد بالفارسية) وهلم جرا.

فـي قه شـقه ر المدينة وقفت متعجبا أمام عيدكاه، تلـك التحفة المعمارية التي يرجع تاريخهـا إلـى أكثـر من خمسـمائة عام. عيـدكاه، أو ئيتكار كمـا يكتبه الئيغـور ليس مجرد مسجد تقام فيه الصلوات ويحتشد بداخله، وفي الساحة التي أمامه وتحمل نفس الاسم، نحو عشـرة آلاف مسـلم سـاعة صلاة الجمعة. إنه رمـز للانتماء العرقـي والديني بطرازه

المعماري الذي يشبه مساجد باكستان وأفغانستان والسجاد المفروش أمام المحراب في صحن المسجد والمهدى إليه من زعماء إيران السابقين، خامنئي، رفسانجاني وخاتمي. المنطقة المحيطة بالمسجد تذكرك بخان الخليلي في القاهرة والحميدية في دمشق. عبق التاريخ ينبعث من كل زقاق وبوابات خشبية عتيقة ومشغولات يدوية من النحاس والفضة والألومنيوم. ربما الفارق الوحيد هو ذلك الهدوء والسكون الذي يلف المكان هنا، بل والوقار والتحفظ، فعندما هممت ألتقط صورة لصبيتين تفترشان الأرض أمام دكان أبيهما، نظر إليهما الأب فاستدارت البنتان عن العدسة، وكان على أن أعتذر للرجل كثيرا.

في كاشغر التقيت رحمن عبد الله وناصر الدين وصديق وأمير مختار وإمام علي. وعلى الطرقات رأيت الرجل يؤم طفلته يؤدي صلاة المغرب ورأيت المرأة تنهض بجوار كشكها على الطريق تؤدي صلاة العصر على مشهد من المارة. ولاحظت أن الجميع، رجالا ونساء، يحرصون على وضع غطاء الرأس، ذلك في الأرياف، أما في المدينة فترى من النساء المنقبة والمحجبة والسافرة.

الناس هنا تصارع الفقر الناجم عن ظروف طبيعية قاسية. والحكومة من جانبها تحاول إقامة بنية أساسية تساعد في التخلص من الفقر، فالعديد من الطرق بنيت وغيرها مازال قيد الإنشاء وتقام مدارس بتمويل من الحكومة أو منظمات خيرية، فالتعليم هنا صعب المنال وقد يضطر التلميذ إلى قطع الأميال للوصول إلى مدرسته وتكون الجرارات الزراعية أو الدواب في الغالب هي وسيلة الانتقال. بعض المدارس تقيم بها فصولا داخلية وتوفر الإقامة والطعام لطلابها. والحكومة تسعى لمساعدة الفلاحين في تسويق إنتاجهم، وخاصة من المشمش والعنب والبرقوق وذلك بإنشاء مصانع لمعالجتها وتعبئتها ثم نقلها إلى أماكن أخرى لبيعها داخل البلاد أو تصديرها. إنها خطوات على طريق طويل لخروج هؤلاء الناس من شظف العيش الذي تعبر عنه بنية أجسامهم وملامح وجوههم.

بعد خمسة أيام في كاشغر وليلة أخرى في أورومتشي انتقلت ومن معي إلى واقع آخر؛ مراعي خضراء وخيول وقطعان غنم وبقر وجو معتدل ومياه جارية. مشاهد تتكرر خلال الساعات الأربع التي تقطعها السيارة من مدينة ألتاي إلى بحيرة قاناس المحاطة بجزء من جبل ألتاي في شينجيانغ.

معظم أبناء ألتاي ينتمون إلى قومية قازاق، التي يقال إنها قومية على ظهور الخيل لأنهم يمضون حياتهم متنقلين على ظهور الخيل، وليس ثمة مبالغة في ذلك فقد رأيت الخيول رفيقة لهم لا تفارقهم. وهم يستخدمون لغة خاصة تكتب بالحرف العربي ومهنتهم الرئيسية هي الرعي، حيث ينتقلون وراء الماء والكلأ أينما كان. ولكن الحكومة شرعت تقيم مستوطنات لهم يستقرون بها معظم أوقات السنة. إنه وجه آخر للصين ذات الألف وجه ووجه.

●●●

على مدى سنوات في الصين، تعلمت في الشارع وفي السوق وفي ملاعب كرة القدم ودور العبادة ووسائل النقل ضرورة أن أكون صينيا، أو على الأقل شبه صيني. فإذا كان المثل يقول: عندما تكون في روما افعل مثل أهلها، فإنك عندما تكون في بكين لا بد أن تسعى لتكون بكينيا. والبكيني لابد له من دراجة ولابد أن يأكل بعصوين، ولابد أن يلم بلكنة العاصمة، ولا بأس من إجادة بعض العبارات المحلية القحة، وفي هذا الأمر الأخير أدين بالفضل للزميلين لي هونغ جيه ونيو باو شن اللذين ساهما بقدر لا بأس به في إثراء حصيلتي اللغوية بعبارات لا بد أن تثير انتباه أي بكيني، فكيف يمكن لهذا الأجنبي أن يعرفها، وكأنها أسرار خاصة بهم سطا عليها متطفل.

أخذت أرتاد الأسواق ودخلت الجامعات ولعبت كرة القدم ورياضات أخرى بها وصادقت الإسكافية وباعة الخضار والكهربائية، ودخلت دور السينما، أشاهد أفلاما صينية، وجلست طويلا أمام القناة الثالثة للتلفزيون الصيني المركزي أشاهد أوبرا بكين، وتعرفت بأساتذة جامعات ومفكرين وساسة كبار، نتحدث في كل شيء، وأي شيء، المهم أن الصين دائما في المركز، فقد صارت الصين المملكة الوسطى لاهتماماتي.

يأتي إلى الصين كثير من الأجانب، في زيارات قصيرة أو لفترات عمل تطول أو تقصر. يأتونها حاملين معهم ثقافتهم وفكرهم ولباسهم وطعامهم، غير مستعدين لقبول أو استيعاب أن على كوكب الأرض ثقافات أخرى وبشرا آخرين. يجيئون إلى الصين وفي مخيلتهم صورة لما ينبغي أن يكون عليه الصينيون وفقا لصورة ذهنية مسبقة أو وفقا لأمنيات بأن يجدوا في الصين ما افتقدوه في أوطانهم، أو يتصورون أن الصينيين هم الذين ينبغي أن يكونوا على وعي بثقافات الضيوف القادمين إليهم، وهذا في تقديري مخالف لطبيعة الأشياء. وأذكر أن مثقفا عربيا جاء إلى الصين للعمل بالتدريس في إحدى جامعاتها لمدة سنة عاد بعدها يكتب عن الصين وكأنه لم ير فيها إلا بنات الهوى والشباب المتغرب أو المتأمرك والانهيار الخلقي، وفقا لمنظومته الفكرية ورؤيته لمعايير الأخلاق حسب نسقه الفكري. لم ير في الصين مساحات الحرية التي تتزايد في المعاهد العلمية الصينية ولم يلحظ الابتكارات العلمية والانفتاح على ثقافات الآخرين ولا مستوى معيشة الناس الذي يتحسن يوما بعد يوم، لم ير في وجوه طلابه الأمل في المستقبل والإقبال على الحياة، لم يلحظ التسامح الصيني وثقافة قبول الآخر، أيا كان جنسه وعرقه ونحلته وعقيدته. جاء الرجل إلى الصين راسما صورة يوتوبية لمجتمع تخيلي، ربما افتقده في وطنه فأتى يبحث عن سراب في الصين، وبالطبع كان واهما، فالصين ليست الجنة الموعودة وليست الجحيم على الأرض، وربما لهذا السبب كفر هذا المثقف العربي بكل ما رأى في الصين.

ما أقصده بضرورة معرفة ثقافة الصينيين إن شئت أن تعيش بينهم، هو أن تتعرف على الطعام والشراب والمأكل والملبس وقواعد السلوك والتصرف وآداب الحديث لهؤلاء الناس. فالمنطقي أنك عندما تدخل مطعما صينيا قُحا أن يُقدموا لك عصوين، وليس شوكة وسكينا، والمنطقي أنك عندما تدخل سينما صينية تشاهد فيلما صينيا، أو أجنبيا ناطقا بلغة الصينيين، لأنه مهما بلغ عدد الأجانب في الصين فإنهم قطرة في محيط، ومن غير المعقول أن يؤمن الصينيون بمعتقداتك أو يتبنون أفكارك أو يشاركونك الرؤية في قضاياك الفكرية. إنك لكي تفهم الصينيين مطالب بأن تنخرط وتندمج فيهم،

وأن لا تعيش على الهامش، تحصر معرفتك بشعب كامل من خلال حالات فردية. إن من يعيش في الصين منعزلا غير مندمج في هذا المجتمع يعيش ما قُدر له أن يعيش فيها ويغادرها كما جاءها، لم يضف إلى معرفته شيئا. وأنا أعرف ناسا جاءوا إلى الصين وأمضوا فيها سنوات وتركوها لا يعلمون حتى اسم الشارع الذي سكنوه أو اسم مدبرة المنزل الصينية (آي يي) التي كانت عونا لهم طوال سنوات إقامتهم، وإذا عرفوا من الأسماء شيئا فهي عندهم وانغ وتشن وقاو ولي، وهي أسماء عائلات تعادل تماما أن يقول لك أجنبي زار دولة عربية، إن له أصدقاء وعرف ناسا يحملون اسم النحاس والطويل والجندي والبشر وعثمان والغريب، وغيرها من أسماء العائلات. يأتي هؤلاء ويذهبون ولا يعرفون مذاقا للطعام الصيني ولا يحاولون معرفته ولا يعلمون شيئا عن تاريخ الصين وثقافة الشارع ونفسية المواطن الصيني، ناهيك عن آداب وفنون وتقاليد الصين. الجميع معجب بالنجاح الاقتصادي للصين والتقدم الكبير الذي تحققه الدولة الأكثر سكانا بالعالم، ولكن قليلين هم الذين يسعون لمعرفة ما وراء هذا النجاح والتقدم الاقتصادي، فلا شيء يأتي من فراغ. ولهذا حرصت دائما على أن أذهب إلى ما يقف وراء الإنجازات الصينية، إلى فيزياء وكيمياء المواطن الصيني، تاريخه وثقافته، تركيب بنيته طريقة تفكيره وطبيعة ودوافع سلوكه وتصرفه.

وأزعم أنني استطعت أن أتجاوز القشرة الصينية، إلى عمق النفس الصينية الطيبة المتسامحة، وهي طيبة وتسامح لها أسباب فكرية وجغرافية وتاريخية، فالصينيون في أعماقهم تعاليم كونفوشيوس وفي مقدمتها "النزوع إلى الخير"، والصين تقع في قلب العالم، هكذا تراها على خرائطهم وهكذا اعتقد حكامها وأهلها منذ قديم الزمان، فهي المركز البعيد عن الأطراف ومن ثم فإن ناسها أبعد ما يكونون عن التطرف وإنما يمثلون الوسطية، تلك الوسطية التي تلمسها في رجل الشارع وفي القائد السياسي وفي البائع في الأسواق.

●●●

رويـدا رويدا بدأت أشـعر أننـي أدخل في أمعاء المجتمع الصينـي، وهي أمعاء طويلة؛ خمسـة آلاف عـام، وهيهـات أن تزعـم أنك قطعـت فيها شـوطا طويلا، فكلمـا تقترب من الإدعاء بأنك تعرف عن الصين الكثير، تكتشف أنك درت في حلقة واحدة من تلك الأمعاء، وهنـا يصـدق عليك قول العـرب، من قال أعلم فقـد أفصح عن جهله. فأنـت عندما تصل الصين وتواجه هذا العالم السـاحر المبهر؛ إنسـانا ومكانا وطقسـا وعادات وتقاليد تقول فـي يومـك الأول بالصيـن إنك تسـتطيع، في ليلـة واحدة، تأليـف كتاب، بل موسـوعة عن الصيـن، ثم عندما تبقى شـهرا وتتكشـف أمامك الحقائق على حقيقتهـا يتملكك التواضع الـذي هـو مـن سـمات الصينييـن، وتقول إنك قد تسـتطيع أن تكتـب مقالا عن هـذا البلد الضخـم. وإذا شـاءت ظروفـك وأمضيـت عاما في الصين بين ناسـها ومدنهـا وقراها قد تصـل إلـي قناعة بأنك إذا كتبت صفحة واحدة عن هذا البلد العظيم تكون أنجزت شـيئا. فكم هي مهمة شاقة أن تكتب عن الصين التي تكتنز أسرارا وأساطير وحكما لا حدود لها. وقد قال الرئيس الأمريكي الأسـبق ريتشـارد نيكسون في مذكراته "إن لدى الصين أسرارا لا متناهية، لذلك فإننا لن نعرف كل شـيء عن الصين، ولكن ربما نسـتطيع أن نتعلم شـيئاً منها...".

●●●

الفصل الثاني
الصينيون

أصل الصينيين

لكل شيء في الصين أصل وقصة أقرب إلى الأسطورة، ومن ذلك أصل الصينيين أو الأمة الصينية، ذلك أن الصينيين يؤمنون بأنهم من دم واحد، فهم يُرجعون أصلهم إلى "هوانغ دي" و"يان دي"، وهما أخوان وزعيما قبيلتين من أكبر قبائل الصين، كانتا تعيشان في منطقة حوض النهر الأصفر (هوانغخه). وتقول الأسطورة إن هوانغ دي ناضل سنوات من أجل الانتصار على الأشباح والأبالسة ولكن نزاعا نشب بين الزعيمين، هوانغ دي ويان دي من أجل السيطرة على الأرض والشعب، وانتهى الأمر بانتصار هوانغ دي – كلمة هوانغ تعني الأصفر في اللغة الصينية– على قبيلة يان دي وضمها إلى مُلكه. وواصل هوانغ دي، على مدى سنوات طويلة، بناء دولته حتى أسس أمة هوا شيا، أي أبناء الصين من قومية هان، وفقا للأسطورة. ولعل هذا يفسر لنا سبب إطلاق صفة الجنس الصفر على أبناء الصين، ولماذا يسمي الصينيون من قومية هان أنفسهم بأحفاد هوانغ دي ويان دي، أيا كان المكان الذي يوجدون به على ظهر المعمورة. وتذهب الأسطورة إلى أن هوانغ دي هو الذي اخترع القارب والكوخ، وأن زوجته علمت أبناء شعبها تربية دود القز وصنع اللباس، بينما تولى يان دي تعليم الناس الزراعة، فوضع بذلك النهاية لعصر كان يعتمد فيه الصينيون في حياتهم على جمع النباتات البرية وقنص الحيوانات وأكل لحومها. بل يقال إن يان دي كان يجمع الأعشاب ويجربها بنفسه كي يعالج بها أبناء وطنه، فهو أول طبيب وصيدلي أيضا في تاريخ الصين، وذات مرة تناول عشبا ساما فمات في جبل يانلينغ.

غير أن هناك رواية أخرى لذات الأسطورة تتخذ مسارا مغايرا وإن كانت تنتهي إلى نفس النتيجة، إذ تقول إن الأخوين، هوانغ دي ويانغ دي، كانا من أشهر زعماء العشائر الكثيرة التي كانت تعيش في حوضي نهر هوانغخه (الأصفر) ونهر تشانغجيانغ

(اليانغتسي)، وهما النهران اللذان يشار إليهما على أنهما مهدا الأمة الصينية. غير أن أبناء قبيلة أخرى تسمى جيو لي بزعامة رجل اسمه تشي يو، كانوا أهل حلقة وتروس وذوي بأس شديد، أجادوا صنع الخناجر والأقواس والسهام، وكانت هذه القبيلة دائمة الاعتداء على القبائل المجاورة، ومنها قبيلة يان دي، فلاذ الأخير إلى أراضي قبيلة أخيه هوانغ دي، الذي أبرم تحالفا مع زعماء قبائل المنطقة واستطاع أن يتغلب على قبيلة جيو لي. وتضيف الأسطورة أن قوات هوانغ دي أسرت تشي يو فأمر هوانغ دي بقتله ودفن جسمه في مكان ورأسه في مكان أخر حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك. وهكذا دانت أراضي الصين لمُلك هوانغ دي، الذي مازال ضريحه قائما في مقاطعة شنشي بجانب النهر الأصفر.

●●●

أبناء التنين

ولكن ما هي حكاية أبناء التنين وأرض التنين اللصيقة بالصين والصينيين؟

الحقيقة أنه لو سارت الأمور في اتجاه واحد ولم يتغير مسار الأحداث، وفقا للأساطير الصينية، لكان الصينيون أكثر جدارة بلقب الدُب من الروس. فقبل أن يوحد هوانغ دي منطقة السهول الوسطى في الصين كان الدُب هو طوطم الصينيين، ولكن هوانغ دي بعد أن انتصر على تشي يو، القائد الذي سبقت الإشارة إليه، قرر أن يتخلى عن طوطم قومه القديم ويتخذ طوطما جديدا للدولة الجديدة الموحدة، وقد وقع اختياره على التنين.

والتنين الصيني لا وجود له في الواقع، فهو مخلوق تخيلي أبدعه خيال الصينيين على الصورة التي تجسد الكمال الذي تطلعوا إليه، أو كما تصوروه، فهذا المخلوق له رأس الحصان وعيون السمك، وعنق السلحفاة، وقرون الأيل، وله كفوف النمر ومخالب النسر. والتنين يمثل اندماج طواطم ورموز القبائل الصينية القديمة المتعددة، بعد توحدها معا في شعب واحد هو الشعب الصيني المبكر. وقد ظل التنين طوطم الأمة الصينية ورمزا لها وصاحب الحضور الأقوى في الذاكرة والاحتفالات الشعبية للصينيين، ولكن بعد دخول

الصيـن العصـر الإمبراطـوري الإقطاعـي، تحول التنيـن تدريجيا إلى رمز خاص بالأسـرة الإمبراطورية، حيث كان الإمبراطور يعتبر تجسيدا للتنين، الذي هو رمز الكمال والاختيار الانتقائـي للأفضـل فـي كل شـيء. وقد اكتشـف في مدينة آنيانـغ الصينية مقطـع الكتابة الصينـي الـذي يعني التنين، وهو "لونغ" منقوشـا على عظام يرجع تاريخها إلى زمن أسـرة شـانغ (القـرن ١٦ – ١١ ق.م)، وهـذا دليـل علـى المكانـة الهامة التـي احتلهـا التنين لدى الصينيين منذ أزمان سحيقة.

●●●

الصين هبة الصينيين

ما قلناه عن أصل الصينيين كان مقدمة لا بد منها، فإذا كان المصريون والسـودانيون مثلا ينسـبون أنفسـهم إلى نهر النيل، فهم "أبناء النيل"، بينما ينسـب أهل العراق أنفسـهم إلـى الرافديـن؛ دجلة والفـرات، وإذا كان المؤرخ الإغريقي هيـرودوت قد وصف مصر في منتصـف القرن الخامس قبل الميلاد بأنهـا هبة النيل، فإن الصينيين لا يقولون إنهم أبناء النهر الأصفر (هوانغخه) أو نهر اليانغتسـي (تشـانغجيانغ) برغم اعترافهم أن النهرين من مهـود الأمـة الصينية، وإنما يقولـون إنهم أبناء (يان وهوانغ) أي أبنـاء يان دي وهوانغ دي. ولا شـك أن هـذا الانتسـاب إلـى "رابطة دم" أكثر من الانتسـاب إلى بقعـة أرض أو نهر أو أي معلـم طبيعـي، كان لـه دوره في نسـج لحمة العلاقـة بين الصينيين، ولـه أثره في متانة الشـعور بالانتماء الجماعي والجمعي للأمة والاعتزاز بالهوية الصينية، وهو اعتزاز يتجلى فـي كل مظاهـر حيـاة الصيني حتى فـي العصر الحديـث وزمن العولمة، فهو يتجسـد في العديد من سلوكيات الحياة اليومية للمواطن الصيني؛ ابتداء من الذهاب مبكرا إلى ميدان تيـان آن من لمشـاهدة مراسـم رفـع العلم الوطني للبلاد، في مشـهد نـادر يصعب أن تراه في أي مكان غير الصين، إلى معرفة الطفل الصيني في سـني دارسـته الأولى لمعنى علم وطنـه وشـعار دولته وتاريـخ الأمة الصينية، فهم يعرفون منذ الطفولـة الباكرة من هم ومن أسـلافهم، ويندر أن تجد طفلا صينيا لا يحفظ النشيد الوطني لبلاده بل ومن كتب كلمات هذا النشيد ومن لحنه.

وهنـاك كثيـر مـن الممارسـات التـي تعمـق انتمـاء المواطـن الصيني الحديـث لوطنه وقوميتـه؛ فإضافـة إلى التربية السياسـية الوطنية في المدارس، هنـاك البرامج الإذاعية والتلفزيونيـة، الفعاليـات الثقافيـة، تعبئة الجماهير حول مشـروعات وطنيـة. وقد تدهش وأنـت تـرى أطفـالا صغارا يجوبون الشـوارع والميادين فـي يوم أول أكتوبـر كل عام، العيد الوطني للصين الجديدة، حاملين علم بلدهم، بينما ذات العلم الأحمر ذو النجوم الصفراء الخمس يطل فوقك من نوافذ البيوت وأبواب المتاجر. ولعلك لا تجد شعبا غير الصينيين يعتبر اسـتضافة الألعاب الأولمبية مشـروعا وطنيا ونجاحا وفخرا للشعب الذي تستضيف مدينة في بلده فعالياته. لقد برع القادة الصينيون في جعل هذا الحدث الرياضي مشروعا وطنيا يلتف حوله الصينيون، صغارا وكبارا، يسعى الجميع من أجل المساهمة في إنجاحه، فاستضافة الأولمبياد، ليست مجرد طلب من حكومة مدينة بكين لإقامة دورة أولمبية، بل صارت سقفا جديدا تنهض الصين كلها من أجل الوصول إليه بحلول موعدها في الساعة الثامنة مسـاء الثامن من أغسـطس عام ألفين وثمانية، أما اختيار هذا التوقيت فله قصة أخرى، سنعود إليها في موضع آخر عندما نتحدث عن الأرقام ومغزاها عند الصينيين.

ولعل هذا الشـعور بالانتماء ولحمة العلاقة بين الصينيين يفسـر أيضا ظاهرة "تشـينا تـاون"، أي الحـي الصيني الذي يظهر فـي أي مدينة بالعالم يتجمع فيها الصينيون، فهناك دائما عامل جذب يشدهم إلى بعضهم بعضا.

●●●

والحقيقـة أن الصيـن التي خضعـت في تاريخها لحكـم قبائل وشـعوب دخيلة لفترات مـن تاريخهـا، كانت دائما ومازالت نتاج كد واجتهاد هذا الشـعب الذي أبدع حضارة باهرة مستمرة منذ فجر التاريخ.

ذات مرة سُـئلت في مقابلة تلفزيونية: ما هو أكثر ما تأثرت به في الصين؟ ولم أتردد في القول: المواطن الصيني؛ الإنسان الذي يرجع إليه الفضل الأول والأخير في ما تحققه الصيـن من إنجازات تثير دهشـة العالم، ذلك أن الصيـن، كأرض وموارد، بلد مثل كل بلاد

الدنيا شتاؤها شديد البرودة وصيفها قائظ الحرارة تتعرض لكوارث طبيعية وبشرية آخرها زلزال سيتشوان في مايو ٢٠٠٨. والصين ليس لديها ما يميزها كثيرا عن غيرها سواء في الجغرافيا أو الموارد والثروات الطبيعية بل إن نصيب الفرد بها من الموارد أقل من نصيب الفرد في معظم دول العالم، فمعدل نصيب الفرد في الصين من العديد من الموارد الطبيعية يقل عن المعدل العالمي، فالصين مثلا بها ٧٪ من الأرض المزروعة في العالم، تطعم بهذه السبعة في المائة خُمس سكان العالم. ولعل السؤال هنا يكون: إذا كان الأمر كذلك، فما هو السر في هذا التقدم الصيني المذهل، المذهل للآخرين فما يحققه الصينيون ليس مذهلا لهم، وليس إعجازا بل شيء طبيعي؛ شيء طبيعي أن تتغير الصين بهذه السرعة الفائقة وأن تحقق معدلات نمو عالية وأن تتفوق في المجالات العلمية والرياضية والفنية في منظومة متكاملة للنهضة الشاملة.

الإجابة كلمة واحدة .. الإنسان .. الإنسان الصيني. ولابد من التنويه هنا إلى إن الإنسان الصيني ليس ملاكا منزها عن العيوب والنواقص ولا يمتلك قدرات خارقة تفوق طاقة البشر ولا يحمل عصى سحرية تشق له الطريق، إنما هو بشر عادي للغاية، ويعرف أنه عادي ويتصرف ويعمل منطلقا من حقيقة أنه عادي، فإنك لا تجد في الصين مثلا من يقال له "سبع صنائع والبخت ضائع" فالإنسان الصيني له صنعة واحدة يجيدها ويتقنها فيؤديها على خير وجه في إطار منظومة فكرية تشجع على العمل وسياسات حكومية تضمن إجادة العمل.

عادية الإنسان الصيني من أسرار تفوقه. فهو عادي لا يحاول القفز إلى ما يدور في ذهنك وإخراجه كلاما على لسانه، عادي يسأل عن تفاصيل تدهشك. فإذا كنت تجلس على مقهى في الصين وطلبت كوب ماء للشرب، مسألة في غاية البساطة، غير أن طلبك بهذه الصورة لا يكفي لأن يجيبك الصيني ويلبي مطلبك. عليك أن توضح إن كنت تريده ماء باردا مثلجا أم ماء عاديا فاترا أم ماء مغليا أم ساخنا ثم عليك أن توضح إن كنت تريده ماء معدنيا أم ماء حنفية، وقس على ذلك. وأذكر أن دبلوماسيا عربيا في بكين شكا لي ذات مرة من سكرتيرته الصينية التي "لا تفهم"، وقال إنه طلب منها أن تتصل بمدير

شـركة يتعامـل معهـا مكتبه، وبعـد قليل ردت السـكرتيرة التي "لا تفهم" حسـب رأيه، قائلة إنها اتصلت وقيل لها إن المدير غير موجود. انتظر صاحبنا الدبلوماسـي أكثر من سـاعة وعاد يسألها، لماذا لم تتصلي بالمدير فلان، وردت الفتاة بأنها اتصلت، كما أخبرته، وهو غيـر موجـود، فقـال لها لماذا لم تعـاودي الاتصال، فـردت: أنت لم تطلب منـي ذلك، و لو طلبت لفعلت. قلت له يا سـيدي المسـألة ليسـت أن السـكرتيرة "لا تفهم"، وإنما اختلاف ثقافات، فالشـخص الصيني تربى وتعلم أن يلتزم بالتعليمات والتوجيهات طالما أن موقعه في العمل هو التنفيذ، وقصصت عليه ما حدث معي عندما ذهبت إلى المقر القديم لوزارة الثقافة الصينية لأداء بعض الأعمال، وعلى البوابة الرئيسـية للمبنى شرع الحارس يسجل بياناتي قبل الدخول، وفي الاستمارة التي أمامه يسجل بها الاسم والعنوان وبيانات أخرى موجـودة بهويتي الشـخصية التي أعطيته إياها، حتى وصل خانـة خاصة بالنوع، وهو بيان غيـر مذكور فـي بطاقة هويتي، وعندما بلغها الحارس، الذي ينفـذ التعليمات الصادرة له، رفع رأسـه وسـألني: ذكر أم أنثى؟ فابتسمت له ورفعت هامتي ليرى شاربي بوضوح وقلت: أنثى!! فابتسم هو الآخر بعد أن أدرك مغزى إجابتي وواصل التسجيل.

●●●

إذن مـا هـي العوامل التي أفرزت إنسـانا بهذه المواصفـات العادية للغاية، وبمعني أدق العوامل التي جعلت الإنسان الصيني يشعر ويعيش ويتصرف بهذه العادية.

على أن أشـير إلى أن الإنسـان الصيني بمعناه الشـامل والجامع ليس فقط المسـؤول الذي تلتقي معه وليس أبناء العاصمة بكين والمدن الكبرى من شاكلة شانغهاي وقوانغتشو وشنتشـن، وهـي المقاصد التـي يتم عادة ترتيب زيـارات الوفود الأجنبية لهـا في الصين. فمجمـوع سـكان بكين وتيانجين وشـانغهاي وتشونغتشـينغ، وهـي المدن الأربـع التابعة في إدارتهـا مباشـرة للحكومـة المركزيـة لا يزيد على سـتين مليونـا، فإذا أضفنا إليها سـكان الحواضر الكبرى للمقاطعات المتقدمة اقتصاديا لن يزيد المجموع بحال عن مائتي مليون فرد، ولكي أقرب الصورة أكثر أشير إلى أن ما يزيد على سبعين بالمائة من سكان الصين

يعيشـون في الريف. الإنسـان الصيني إذن موجود في مقاطعة قويتشـو الفقيرة جدا، التي زرتهـا عـام ١٩٩٣ ورأيـت بهـا طبوغرافيا معقدة وبشـرا يصارعـون من أجـل البقاء، وفي نينغشـيا ذات الظـروف الطبيعية القاسـية والأغلبية المسـلمة، موجود فـي هوبي وهونان وآنهـوي وغيرهـا مـن مقاطعات الوسـط والشـمال- الغربـي بخاصة. حتى فـي الحواضر الكبرى مثل بكين، الإنسان الصيني ليس فقط هو ذلك الذي تراه في الأحياء التي يرتادها الأجانب بل إنني أزعم أن الإنسـان الصيني الحقيقي، وبمعنى أدق الإنسـان الصيني على سـجيته وجبلتـه موجود فـي الأزقة التي يسـمونها بالصينيـة "هوتونغ". فتيات بكين لسـن تلـك الفتيات التي يراها السـائحون في البـارات وصالات الرقص والغناء. إنك لكي تعرف الإنسـان الصيني ينبغي أن تزيل القشـرة الخارجية له وتراه في مسكنه وبين أهله وتقترب منـه ومفتـاح ذلـك أن تبتسـم لـه، أن تبدو أمامـه متواضعا مثله وتشـعره بأنـك تنتمي إلى عالمـه وأنـك ليس "لاو واي"، وهي الكلمة التي يطلقها عامـة الصينيين على الأجانب، في حين تسـتخدم كلمة "واي قوه بَنغ يو"، أي الصديق الأجنبي في المناسـبات الرسـمية وبين المثقفين.

هذا يردنا إلى السؤال عن العوامل التي أفرزت إنسانا بهذه المواصفات العادية.

هذه العوامل في رأيي فكرية وتاريخية وجغرافية وبيئية.

فكريـا، الإنسـان الصيني يحمل فـي جيناته حضارة عمرها ينيف على الخمسـة آلاف عام، والحضارة الصينية هي الوحيدة من بين حضارات العالم القديمة التي حافظت على تواصلهـا دون انقطـاع ومـن ثـم فإن الإنسـان الصيني في القـرن الحادي والعشـرين تمتد جـذوره دون شـائبة تشـوبها إلـى أصولها الأولـى، فالصينيـون، وتحديدا مـن قومية هان، مـن أكثـر الشـعوب نقاء، بمعنـى أنهم لم يختلطوا مـع أعراق أخرى، تمامـا مثل حضارتهم التـي حافظـت على نقائهـا، إذا جـاز التعبير، حتى عندمـا تأثرت بحضـارات أخرى فإنها صينـت كل دخيـل، ولهذا فإن العقائد الدينية عندما دخلـت الصين تأثرت بالفكر الصيني المتمثل رئيسـيا في الفكر الكونفوشـي، وينطبق ذلك على البوذية والإسـلام والمسـيحية.

هذا التصيين للفكر القادم من الخارج استمر ومستمر إلى الآن، فعندما اختارت الصين النهج الشيوعي أخذته من منبته الأوروبي وغرسته في التربة الصينية وألبسته رداء صينيا، وعندما تبنت اقتصاد السوق جعلته اقتصاد السوق الاشتراكي ذا الخصائص الصينية. واللافت أن الصينيين تركوا تراثا تربويا وأدبيا وصناعيا ولكننا لا نجد شيئا كثيرا من تاريخ الفكر السياسي الصيني، على العكس من العرب والإغريق والرومان مثلا؛ فالصينيون ليسوا بارعين في التنظير وإنما في التطبيق والصنعة، وقد أشار إلى هذا المؤرخ الجغرافي العربي أبو الحسن المسعودي قبل أكثر من ألف سنة.

فكريا أيضا، الصينيون متأثرون إلى حد بعيد بتعاليم كونفوشيوس وهي في مجملها تعاليم أخلاقية تربوية تحث على الطاعة واحترام وتوقير الكبير والعطف والحنو على الصغير، والأهم أنها تدعو إلى التعلم، التعلم اللانهائي حيث يقول كونفوشيوس: لو أن ثلاثة يسيرون في طريق معا فحتما واحد منهم معلم لي، ولهذا تراهم في الصين لا يكفون عن طلب العلم. الذي حصل على شهادة متوسطة ويمارس عملا يدرس في مدرسة ليلية أعلى والذي حصل على ليسانس أو بكالوريوس عينه على استكمال دراساته العليا خارج الصين في دولة متقدمة، بل إنك تعجب لناس تجاوزوا الستين والسبعين، يتعلمون اللغة الإنجليزية، لماذا؟ لكي يمكنهم التعامل مع الأصدقاء الأجانب الذين سيزورون بلادهم عام ٢٠٠٨ أثناء إقامة الألعاب الأولمبية. ناس بسطاء للغاية ينتظمون في فصول أمام مدرسين من أعمار أحفادهم طلبا للعلم. يدهشك إذا تدخل سوق خضار في بكين أن ترى بائعة الخضار تضع كتابا مفتوحا أمامها فوق بضاعتها فإذا فرغت من بيعها واصلت قراءتها. وقد أزعم أنه لا يوجد أحد في الصين لا يقرأ.

تاريخيا، الصينيون عاشوا حتى عام ١٩١١ في ظل حكم أسر إقطاعية وكان الإمبراطور في الصين بمثابة إله فهو ابن السماء ولهذا فقد جُبل الإنسان الصيني على الطاعة والنظام. بعد تغير النظام الإقطاعي بقيام الثورة الديمقراطية عام ١٩١١ ثم تأسيس الصين الجديدة عام ١٩٤٩، ظلت هذه الطاعة مقرونة بالولاء للوطن وللسلطة، تلك السلطة التي هي الحزام الذي يربط بحر السكان الصيني. تعجب عندما ترى طلاب

مدرسة بالمئات يخرجون إلى الشارع في صفوف منتظمة تقودهم معلمة دقيقة الحجم، لا تدافُع ولا اعوجاج ولا شذوذ على النظام.

جغرافيا، الصين هي مركز العالم، أو هكذا تراها في خرائط الصينيين، فالخريطة الصينية تضع الصين في القلب وإلى الغرب منها الجزء الغربي من قارة آسيا وقارتا أفريقيا وأوروبا، وصولا إلى المحيط الأطلسي الذي هو أقصى الغرب بالنسبة للصين، بينما إلى الشرق، يقع الجزء الشرقي من آسيا والمحيط الهادي والعالم الجديد، الأمريكتان، ولهذا يحدث كثيرا خطأ في ترجمة الكتابات الصينية القديمة التي تشير إلى الغرب، فالغرب هنا لا يعني الغرب بالمدلول الحديث، أي أوروبا وأمريكا وإنما البلاد الواقعة غرب الصين، الهند وبلاد فارس وبلاد العرب، ومن ذلك رواية "رحلة إلى الغرب" التي يقصد بها الرحلة إلى الهند والبلاد المجاورة لها. بل إن اسم الصين باللغة الصينية هو "تشونغ قوه" أي الدولة الوسطى أو المركز، ومن هنا جاء اسم المملكة الوسطى الشائع في الكتابات الغربية عن الصين. وقبل آلاف السنين مما قاله عالم الجغرافيا السياسية الإنجليزي السير هالفور جون ماكيندر (١٨٦١ – ١٩٤٧)، صاحب نظرية "قلب الأرض" القائلة بأن من يسيطر على المركز يسيطر على العالم، وعى الصينيون ذلك- برغم اختلاف قلب العالم بالنسبة للصينيين وبالنسبة لماكيندر- ولهذا كان إمبراطور الصين في الزمن القديم يعتقد أنه إمبراطور الدنيا كلها، وحتى الآن عندما تنظر في خريطة صينية للعالم ترى الصين ليس في أقصى الشرق وإنما في قلب العالم.

هذه الوسطية أعطت الإنسان الصيني الاعتدال والتسامح، وهو تسامح يعبر عن نفسه في سلوك الرجل العادي في الشارع والبائع الذي تناكفه وترهقه في المتجر ثم لا تشتري منه شيئا والصديق الذي قد تسيء إليه، بل وفي سياسة الصين الخارجية؛ وسطية وهبت الإنسان الصيني عاديته البعيدة عن التطرف والشطط. والصيني ليس من أنصار نظرية "إن لم تكن معي فأنت ضدي"، فمن الممكن بل والمقبول جدا للصيني أن تكون صديقه وصديق عدوه في نفس الوقت وأن يكون هو صديقك وصديق عدوك في نفس الوقت. الصيني لا يقاطع من يختلف معه بل يبقى على تواصل معه، ربما ليس قويا،

ولكن شعرة معاوية تبقى. وقد دهش رجل أعمال مصري يتاجر مع الصينيين من شركاء صينيين له اختلف معهم واختلفوا معه في أمور التجارة لدرجة ظن معها أن أي خيط يربطه بهم لا بد أن ينقطع، لكن الشركاء الصينيين فاجئوه بحرصهم على التواصل معه والسؤال عنه ودعوته إلى لقاءات معهم. ولا أذكر أنني اختلفت مع أي صيني وحدث جفاء بيننا، فهم حريصون دائما على بقاء الود، فهم يطبقون مقولة "الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية". ولعل المتابع لسياسة الصين الخارجية يدهش لحجم الخلافات بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية وأيضا حجم التبادلات الودية بينهما، ويعجب لقدرة الصين في الحفاظ على علاقات ودية ودافئة جدا مع كل من العرب، بما فيهم الفلسطينيون، ومع إسرائيل. ذات مرة سأل مراسل صحفي عربي وزير خارجية الصين السابق، لي تشاو شينغ، قائلا له إن سياسة الصين المتمثلة في عدم الانحياز لمن تعتبرهم أصدقاء ربما يفقدها هؤلاء الأصدقاء. ورد الوزير الصيني بأن الصين تنحاز إلى الحق دائما. قد يكون الصيني ليس معك ولكن هذا لا يعني أنه ضدك.

بيئيا، الصين فيها كل الظواهر الطبيعية، تضاريس وطبوغرافيا ومناخ، فالصين ليست كلها شديدة البرودة طوال السنة وليست شديدة الحرارة أيضا والصين أرض واسعة تسافر من دفء وحرارة جنوبها في ذات اليوم إلى برودة وتجمد شمالها، فالإنسان الصيني تتقلب عليه الفصول الأربعة واضحة مميزة ولهذا فإنه ليس حاد المزاج كإنسان البلاد الحارة وليس مثل أبناء البلاد الباردة، إنه مزيج بيئي أفرز إنسانا عاديا للغاية. تلك العادية التي كما أسلفت من أسرار تفوقه.

تلك هي العوامل التي في رأيي تقف وراء تكوين الإنسان الصيني وبالطبع ثمة عوامل أخرى كثيرة. وتنبغي الإشارة إلى أن الصيني المعاصر، في القرن الحادي والعشرين، الذي يعيش في ظل الانفتاح الذي تتبناه الصين وفي ظل العولمة التي تجتاح العالم يتعرض لتيارات عارمة، تيارات أقوى من التصدي لها أحيانا وهذا يثير قلقا بين المثقفين الصينيين بل وبين بعض الشباب، أبناء هذا العصر المنفتح المتعولم. "الثقافة الصينية.. هل تكون ضحية للعولمة؟"، بهذا العنوان كتبت شابة صينية عمرها اثنان وعشرون عاما

مقـالا، طلبـت مني نشـره لهـا في "الصين اليـوم"، واعتبرتـه أنا صرخة من إنسـان صيني يخشى على ثقافته وحضارته من تيارات العولمة، يخشى أن تذوب معالم الثقافة الصينية أو تبهت أو تندثر تحت غبار العولمة.

لقـد قـال الزعيم الصيني الراحل دنغ شـياو بينغ، الذي صمم ونفذ سياسـة الإصلاح والانفتاح في الصين ووضعها على جادة التقدم، قال في بداية انتهاج سياسة الانفتاح: إنك عندما تفتح النافذة يدخل الهواء المنعش ولكن الذباب يدخل أيضا.

الإنسان الصيني، كما عرفته، يمتلك المقومات التي تجعله قادرا على أن يتعولم ولكن دون أن يفقـد معالمـه وشـخصيته وهويتـه الصينيـة لأن جـذوره تضرب فـي الأرض بعمق يضارع عمق حضارته.

أسماء الصينيين

هـذه الجـذور التـي أتحدث عنها تعبر عن نفسـها في اسـم الصيني، فـكل فرد يحمل اسـم جـده الأول، مؤسـس أسـرته، فرئيـس الصين السـيد/ هو جين تـاو، اختار لـه أبواه اسـم «جيـن تـاو»، وهو ينتمي إلى أسـرة اسـم مؤسسـها "هـو". ولا أنكـر أن الأجنبي يجد صعوبـة فـي نطق وتذكر أسـماء الصينيين، وربما لهذا السـبب تجـد الصيني الذي يدرس لغة أجنبية يتخذ لنفسـه اسـما من ذات اللغة التي يتعلمها، فالذين يدرسـون العربية تجد مـن بينهـم عثمان وفريد وليلى وذكيـة، ومن يتعلمون الإنجليزية يختارون أسـماء مثل جون ومايـكل وجوانـا وإليزابيـث، وهكذا. الصينيـون الذين أقصدهم هنا هم أبنـاء قومية هان، الذيـن يشـكلون الغالبيـة مـن أبناء الصين، ويتكون اسـم الشـخص منهم من شـقين، اسـم الأسـرة ويوضـع أولا ومن بعده اسـم الشـخص. هـذا الترتيب فـي الأسـماء الصينية يثير مواقـف مضحكـة عند من لا يعرفونـه، فعندما كان الرئيس المصري حسـني مبارك يزور الصيـن عـام ٢٠٠٦، أجرى التلفزيـون المصري مقابلة معي عبر الهاتـف، وراحت المذيعة تسـألني عـن لقاء الرئيس مبارك مع الرئيـس جين تاو (بتخفيف الجيـم)، ولما كان اللقاء على الهواء مباشـرة فإنني لم أجد بُدا للفت نظر المذيعة إلى نطق اسـم رئيس الصين إلا

بتعمد ذكر اسم الرئيس الصيني أكثر من مرة وبتطويل ملحوظ وتعطيش فيه قسوة لحرف الجيم. والأمر لا يقتصر على مذيعة التلفزيون، بل إنك تقرأ كثيرا في الصحف العربية عن الرئيس جين تاو والرئيس تسه مين (الذي يكتب اسمه في الصحف العربية زيمن) في إشارة إلى الرئيس الصيني السابق جيانغ تسه مين، وهذا يعادل الإشارة إلى الرئيس المصري محمد حسني مبارك بأنه الرئيس محمد حسني أو إلى الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقه بأنه الرئيس عبد العزيز، أو إلى الرئيس التونسي زين العابدين بن علي بأنه الرئيس زين العابدين. الخطأ العربي في التعامل مع أسماء الصينيين لا يقتصر على ذلك، وإنما يكون أكثر فداحة عند نقله إلى العربية عن لغة تكتب بالحروف الرومانية، فالصينيون يستخدمون تلك الحروف في كتابة اللغة الصينية ولكن بنطق خاص لها، فحرف X لا ينطق إكس وإنما أقرب إلى حرف الشين بالعربية، وحرف Q لا ينطق كيو وإنما بشكل يجمع بين الجيم والتاء والشين معا. ومن أكثر الأسماء الصينية التي تعرضت للتشويه في أجهزة الإعلام العربية، وزير خارجية الصين الأسبق تشيان تشي تشن hen-Qian Qic الذي كان يشار إليه باسم كيان كيتشن، ولكي تدرك حجم هذا الخطأ في حق الدبلوماسي الصيني الذي شغل منصب وزير خارجية الصين لمدة عشر سنوات، أدخل كلمة "كيان كيتشن" على أي محرك بحث على الإنترنت بالعربية، لتعثر على فيض من هذا الاسم الذي تم تشويهه.

يتكون اسم الأسرة الصينية في الغالب من مقطع واحد، مثل تشانغ، ليانغ، لي، جيانغ، الخ، ولكن بعض الأسماء تتكون من مقطعين، مثل سي ما، أو يانغ. ولكن الاسم الذي يُعطى للفرد يتكون في الغالب من مقطعين أو مقطع واحد، مثل جين تاو، جيا باو، تسه مين، تسي دونغ، فو، هاو، دونغ الخ. وعليه يكون الاسم الكامل للفرد مكونا إما من مقطعين أو ثلاثة أو أربعة.

وفي الصين ينسب الأطفال تقليديا إلى أسرة الأب، ولكن هذا النظام تغير ويُسمح حاليا بنسب الطفل إلى أسرة الأم من أجل تشجيع الصينيين على عدم التفرقة بين الذكر والأنثى في الإنجاب، فالمرأة أيضا يمكن أن تحافظ على شجرة العائلة. والمرأة الصينية،

مثل المرأة العربية، لا تغير اسمها بعد الزواج، بمعنى أنها لا تحمل اسم أسرة زوجها، فزوجة الرئيس الصيني السيدة ليو يونغ تشينغ تحتفظ باسم عائلتها، عائلة ليو، ولا تحمل اسم عائلة زوجها، عائلة هو. وبرغم وجود ما يقرب من ثلاثة آلاف اسم أسرة للصينيين من قومية هان إلا أن حوالي ٨٤،٧٧٪ من أبناء هان يحملون مائة اسم أسرة فقط، في مقدمتها وانغ ولي وتشانغ، حيث يحمل ٩٣ مليون صيني اسم وانغ، بنسبة ٧،٢٥٪ من سكان بر الصين الرئيسي، ويحمل ٩٢،٠٧ مليونا اسم لي أي ٧،١٩٪ بينما يحمل ٨٧،٥ مليونا اسم تشانغ، أي ٦،٨٣٪. وينتمي لعائلات ليو وتشن ويانغ وهوانغ وتشاو ووو وتشو عشرون مليونا من سكان بر الصين الرئيسي، كل على حدة، بينما يبلغ عدد المنتمين إلى كل من عائلات شو وسون وما وتشو وهو وقوه وخه وقاو ولين ولوه وتشنغ وليانغ ما بين عشرة وعشرين مليونا. ونتيجة لهذا من الطبيعي أن تجد آلاف الأشخاص في مدينة واحدة يحملون اسم وانغ هاو مثلا، وهذا يسبب مشكلة لمصلحة الأحوال المدنية في الصين.

ومثل كل شيء في الصين إبان العصر الإمبراطوري، كانت الأسماء تخضع لتدقيق صارم، فقد كان محظورا على عامة الناس استخدام أسماء الأباطرة، فعندما اعتلى ليو بانغ العرش في فترة أسرة هان الغربية (٣٢ ق.م – ٦٠٢ م)، لم يكن مسموحا لأي شخص أن يحمل اسم بانغ، اسم الإمبراطور، بل إن الذين كانوا يحملون هذا الاسم قبل صعوده العرش اضطروا إلى تغيير أسمائهم.

والأسماء في الصين تعبر عن التطور الاجتماعي والسياسي لهذا البلد، بل وقد ترمز إلى الموقع الجغرافي لمكان ولادة الشخص، فكان من عادة أبناء الريف إعطاء أبنائهم أسماء خشنة تحمل معنى الجرأة والقوة والقسوة، فتجد مثلا قو (الكلب)، ونيو (الثور) وهو (النمر). كانوا يعتقدون أن تلك الأسماء تحفظ أبناءهم وتقيهم من الأمراض والكوارث. وعندما تأسست الصين الجديدة عبرت أسماء أبناء جيل الخمسينات عن هذا الحدث التاريخي، فتجد جيان قوه، أي الدولة الجديدة، وجيان جيون، أي تأسيس الجيش الشعبي، وقوه تشينغ أي ذكرى ولادة الدولة الجديدة. وفي فترة الثورة الثقافية

ظهرت أسماء ذات طبيعة ثورية مثل يونغ هونغ، أي الأحمر دائما، وي تونغ، أي الدفاع عن مبادئ تونغ (ماو تسي تونغ). وبعد انتهاج سياسة الإصلاح والانفتاح ودخول الصين مرحلة سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة خفت حدة الشعارات الوطنية والثورية في أسماء جيل الثمانينات فظهرت أسماء مثل تشي فو، أي الرخاء وشينغ هوا، أي إنهاض الصين.

ويمكن من خلال الاسم الصيني أن تفرق بين الذكر والأنثى في معظم الأحيان، فالأنثى في الصين تحمل غالبا اسما فيه رقة وجمال، فتجد تينغ، أي الرشيقة، ومي، أي المدللة أو الجميلة، هوا، أي الزهرة. بينما تتسم أسماء الذكور بصفات الرجولة والشدة والقوة، مثل قانغ، الصلابة، وجين سونغ، أي الصنوبر المورق، والصنوبر عند الصينيين رمز لقوة الاحتمال، فهو الذي يبقى نضرا عندما تجف الأشجار الأخرى في الخريف والشتاء، وهو الذي يتصدى للرياح وللمطر والثلج ولا ينحني أبدا.

أرقام وألوان

وعلى الرغم من الثورة العلمية في الصين فإن كثيرا من معتقدات الصينيين التقليدية مازال لها دور هام في حياة الصيني، ومن ذلك تعامل الصينيين مع الأرقام، فالرقم ٤ الذي يُنطق «سه» بلغة "بوتونغهوا"، الفصحى الصينية، الماندرين، يشبه في نطقه الكلمة الصينية التي تعني الموت، ومن ثم فإن الصينيين يتشاءمون منه، وقد اضطر المستشفى رقم ٤ ببكين إلى تغيير اسمه، فمن هذا الذي يرغب في الذهاب بمريض إلى مكان يحمل اسم الموت. إنه رقم له نفس دلالة كلمة "الحانوتي" في مصر. وقد تعجب عندما تذهب إلى سوق في الصين وتجد الأسعار دائما، ٩٨، ٦٨، وإذا فعلت مثلي وسألت لماذا ليس ١٠٠، أو ٧٠ يقول لك البائع إنه رقم فيه بركة، وتكتمل البركة إذا كان السعر ١٦٨ يوان، لأن نطق ١(إي)، ٦ (ليو) و٨ (با) معا يكون إي ليو با، وهي عبارة تعني «الرخاء على طول الطريق».

في الثقافة الصينية، الأعداد الفردية ترمز للذكورة، بينما الأعداد الزوجية ترمز للأنوثة، والصفر يرمز إلى اللاوجود والكمال والألوهية التي لا بداية لها ولا نهاية، فهو

أبدي سرمدي، ومن ثم يرمز له بدائرة. والواحد يمثل الشرف والقيادة والتنمية المتواصلة. والاثنان تعني الازدواج، وهو رقم التعاون والتوازن بين ين ويانغ، أي الأنثى والذكر. ومن الأقوال الصينية الشائعة أن "السعادة تأتي ثنائية". ومقطع الكتابة ذو العلاقة بالزواج والارتباط وهو « شي» يُكتب مرتين: سعادة مزدوجة. العدد ثلاثة يجعل كل شيء ممكنا، فهو العدد المرتبط بالحظ والنجاح. وهو أيضا عدد روحاني، فوفقا لكتاب "التغيرات"، الثلاثة توحد السماء والأرض والإنسان. وعندما يذهب الصينيون إلى المعبد وينحنون احتراما يرددون الدعاء ثلاث مرات. العدد الصيني أربعة يرمز إلى كل شيء زائل؛ أساسه الأرض وسقفه المستدير هو السماء. ويعتقد الصينيون أن هذا العدد يعزز التوازن بين السماء والأرض.

العدد خمسة هو الموقع الوسط بين الواحد والتسعة، وهناك خمس بركات، العمر المديد، الرخاء، الصحة، الحياة الطاهرة والموت الطبيعي. ونطق العدد ستة في اللغة الصينية يشبه كلمة الرخاء ومن ثم فإنه رمز للحظ. والسبعة نطقها يشبه نطق كلمة الضمان، وحسب العقيدة البوذية هناك سبعة تناسخات وسبعة أسابيع حداد بعد الموت. وقد اعتقد الصينيون على مدى قرون أن العدد سبعة من سمات حياة المرأة. وفقا لهم، المولودة الأنثى تظهر أولى أسنانها وعمرها سبعة شهور، وفي سن السابعة تظهر سنتها الثانية، وفي سن الرابعة عشرة، أي سبعة مزدوجة تبدأ الطمث، وفي سن التاسعة والأربعين، أي سبع سبعات، تكون سنوات قدرتها الإنجابية قد ولت. والثمانية تُنطق مشابهة للكلمة التي تعني التكاثر والثروة، ولهذا اختار الصينيون أن يكون حفل افتتاح أولمبياد بكين في الساعة الثامنة مساء اليوم الثامن للشهر الثامن للسنة الثامنة بعد الألفين. وكما أن السبعة تعتبر ذات مغزى للمرأة، الثمانية ذات أهمية كبيرة للرجل، فالولد تظهر أولى أسنانه وعمره ثمانية شهور، وتُستبدل وعمره ثماني سنوات، ويصل البلوغ في سن السادسة عشرة، وفي سن الرابعة والستين (٨×٨) تفارقه قدرته الجنسية.

التسعة هي أفضل الأعداد عند الصينيين لأنها تحمل سمات كل الأعداد الأخرى. إنها كاملة ولا تحتاج إلى أرقام أخرى لتكون كاملة، كونها المرحلة الأخيرة لكل شيء. وبالنسبة

للقدماء الصينيين كانت التسعة أكثر الأعداد المرتبطة بشؤون الإنسان، باعتبار أن العشرة وما فوقها تنتمي إلى السماء، ولهذا كان العدد تسعة خاصا لاستخدام الإمبراطور وحده دون سواه، وكان إذا وجد أي مسؤول بالبلاط يرتدي ملبسا مطرزا بتسعة تنانين يُحكم عليه بالإعدام، هو وعائلته.

وإذا كان الصينيون يفضلون أرقاما معينة، فإن لهم في الألوان تفضيلات، وقد كان الأحمر هو اللون الأثير عند الصينيين حتى قبل الحزب الشيوعي والعلم الصيني الأحمر ذي النجوم الصفراء، وقبل مقولة الصحفي الأمريكي الشهير أدغار سنو "الشرق أحمر". كان اللون الأحمر، ومازال، مرتبطا عند الصينيين بالبهجة والسعادة والبركة، ففستان العروس يوم زفافها أحمر، والفوانيس التي تعلق في البيوت والشوارع في المناسبات السعيدة تكون حمراء، والمعلقات والملصقات في أهم أعياد الصينيين، عيد الربيع، تكون حمراء، والأكياس والمظاريف التي تحتوي على الهدايا النقدية والعيدية وغيرها التي تقدم في مناسبات الأعياد والزواج حمراء. وأكثر أنواع ورق التغليف رواجا في الصين هو الورق الأحمر. واللون الأحمر الذي يمثل الشمس، هو المسيطر في اللوحات المرسومة على الصخور التي أبدعها الصينيون قبل آلاف السنين، فقد كان الأحمر مرادفا للمهابة والثروة والشرف، وكانت أسوار المدينة المحرمة وقصور الإمبراطور حمراء وسقوفها صفراء، فالأصفر هو الآخر له مغزى عند الصينيين، فهو مرتبط بمفهوم العناصر الخمسة (الخشب، النار، الماء، المعدن والتراب). والأصفر هو لون التراب، الذي هو أهم عنصر بين العناصر الخمسة. والأصفر أيضا يرمز لسلطة الإمبراطور على الأرض وللعزة وللشعائر. وفي زمن أسرة أسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧م) ومن قبلها أسرة سوي (٥٨١ – ٦١٨م)، كانت أرواب الأباطرة تصنع من الحرير الأصفر، ولم يكن مسموحا لأي فرد غير الإمبراطور أن يرتدي ملبسا لونه أصفر. والأخضر عند الصينيين لون مبارك، وقد عاش الأمراء في قصور سقوفها من البلاط المزجج الأخضر. أما العامة فكانوا يعيشون في بيوت جدرانها وسقوفها رمادية، فقد كان الرمادي هو لون الرعايا والأقل شأنا. أما الأزرق فهو لون السماء، وظل لمئات السنين لون ملابس العمال والفلاحين. ومازال الأزرق اللون المفضل في الملابس للكبار في الصين.

هيئة الصيني

يظن كثيرون أن الصينيين يشبهون بعضهم، وقد سمعت من يسأل: كيف يميز الصينيون بعضهم بعضا؟ والحقيقة أن هذا غير صحيح، فمن السهل للغاية تمييز ملامح الصينيين، بل وتحديد المناطق التي ينتمون إليها. هذه الصورة النمطية عن الصينيين والصينيات ليست قاصرة على شعب معين، وأذكر أن زميلا أجنبيا قال لي ساخرا من صديق أجنبي آخر طلب منه أن ينتظر زميلة صينية لا يعرفها، فوصفها بأنها ذات شعر أسود فاحم مسترسل وعيون ضيقة، ونحيلة البدن. وقد كانت تلك هي صفات الصينيين، عندما حكى لي الزميل ذلك. وبرغم أن أطول شخص في العالم مسجل لدى موسوعة غينيس للأرقام القياسية وهو السيد باو شي شون الذي ترتفع قامته مترين وستا وثلاثين سم مواطن صيني- وإن كان فقد هذا اللقب بعد إعلان غينيس في شهر أغسطس ٢٠٠٧ عن رجل أوكراني كأطول رجل في العالم- كانت الفكرة السائدة عن الصينيين أنهم يتسمون بقصر القامة بشكل عام، ولكن مقاييس الفرد وهيئته وتضاريس جسمه، ولون شعره وعيونه، خاصة بين النساء، في هذا البلد تتغير كما هو الحال مع كل شيء، فمع التنمية الاقتصادية الكبيرة التي تحققها الصين تتحسن مستويات المعيشة للناس بخطوات متسارعة وهذا التحسن يعبر عن نفسه في نواحي كثيرة ومنها ذلك التغير الملحوظ الذي طرأ على تضاريس وبنية الجسم الصيني طولا وقصرا، نحافة وسمنة. وقد وجدت دراسة قام بها أحد مراكز البحوث المتخصصة في الصين أن متوسط طول قامة الصبية الصينيين حاليا أعلى من المتوسط لأترابهم قبل خمس عشرة سنة بنسبة واضحة، وهذه ملاحظة ربما لا تحتاج إلى دراسة وإحصاءات؛ فالأمر جلي بشكل لافت.

وبعيدا عن الطول الفارع للسيد باو شي شون، الذي ظل عازبا حتى بلغ من العمر ستة وخمسين ربيعا، وعندما تزوج في السادس والعشرين من مارس عام ٢٠٠٧ اختار عروسا طولها مائة وثمانية وستون سم ليس أكثر، يتميز أهل جنوب الصين، عموما، بقصر القامة ودقة الملامح بينما يتسم أهل شمال البلاد بطول القامة وعظم البنية. ولكن حتى هذا التقسيم "التاريخي" آخذ في التلاشي بفعل السيولة الحاصلة في المجتمع؛ فالشماليون يتجهون إلى الجنوب، والجنوبيون بات الطريق مفتوح أمامهم إلى الشمال والوسط.

ومواصفـات هيئة الصيني، القديمة، كانت تعبر عن نفسـها فـي مجالات عديدة، فقد كان الرجل الصيني قديما يفضل المرأة القصيرة القامة، الدقيقة الملامح والجسم، وربما لهـذا كان "سـوق" الزواج لفتيـات الجنوب أكثر رواجا، وكان الصينيـون، فيما مضى، يلفون قدمـي الطفلة بأشـرطة مـن القماش للحافظ علـى "دقتها"، كي لا تجد عائقـا في الزواج عندمـا تكبـر. كانت المرأة القصيرة محسـودة بيـن الأخريات، ومما يؤكد هـذا القصر أن السـرير الصينـي التقليدي المُسـمى "كانـغ"، وهو عبارة عـن مصطبة مجوفة تشـعل النار داخلها أيام الشتاء من أجل الدفـء، كان سريرا ضئيل الحجم متواضع الطول والعرض.

لقـد تغيـر الحال وأصبح الطول من معايير جمال النسـاء ووسـامة الرجال، ولا تعجب عندمـا يصـف لـك الصينيون، رجالا ونسـاء، الفتـاة الطويلة بـأن لها قامة عارضـة أزياء، فطـول قامـة الأنثى شـهادة جمال تعفيها حتى من خلل واضح فـي مواضع أخرى، فالطول يَجُب ما قبله وما بعده. والآن تجرى في الصين عمليات تطويل للجسم تُقبل عليها النساء القصيـرات، بأن يتم كسـر عظام السـاق وتزويدهـا بخوابير فولاذية تطيل السـاق. والأمر كذلك بالنسبة للرجل، ففي دارسة حول "فارس الأحلام" أجريت في الصين جاء على رأس قائمـة المواصفات، المسـتوى التعليمي والثراء والوضع الاجتماعي والأخلاق والمشـاعر، إلى غير ذلك، ولكن قبل كل هذا وذاك أن يكون طويل القامة!

ومن أشـهر قصار القامة في الصين، الزعيم الراحل دنغ شـياو بينغ، مهندس إصلاح الصيـن وانفتاحهـا علـى الخـارج، الرجل صاحـب المقولة الشـهيرة .. إننـي لا أتوتر أبدا حتـى وإن سـقطت السـماء على الأرض. لماذا؟ أجـاب الزعيم المحنـك: لأن طوال القامة سـيحملونها عنـي! ومن نجوم المجتمـع الصيني الحالي ذوي القامـة القصيرة لاعبة تنس الطاولة المدهشة دنغ يا بينغ التي حققت في عالم البنغ بونغ، تنس الطاولة، قبل اعتزالها، مـا لـم يحققـه قبلهـا أحد مـن الرجـال أو النسـاء، وهنـاك مو هـوي لان لاعبـة الجمباز، التـي ترتفـع عن سـطح الأرض ١٥٥ سـم لا غير، والتـي حصلت على الميداليـات الذهبية لكافة بطولات العالم في الجمباز باستثناء ذهبية الأولمبياد، والتي أدخلت معجم الجمباز مصطلحـا جديـدا يحمل اسـمها هو "شـقلبة مو هـوي لان" بعد أن لفت بجسـمها الضئيل

القصير لفة ونصف في الهواء في بطولة الألعاب الآسيوية بمدينة هيروشيما عام ١٩٩٤ وكان عمرها لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعا. ومن أشهر طوال القامة في الصين العملاق ياو مينغ، الذي يبلغ طوله ٢٢٦ سم، لاعب كرة السلة الذي انتقل من شانغهاي إلى فريق روكتس بولاية هوستن الأمريكية، ولاعبة الكرة الطائرة تشاو روي روي التي يفصل بينها وبين حاجز المترين سنتيمتران فقط . وهناك أيضا تشن نان البالغة من الطول ١٩٧سم، لاعبة المنتخب الصيني لكرة السلة، وآخرون كثيرون.

●●●

كما أن بنية الصينيين الذين كان يقال في وصفهم "إنهم قُطعوا بمقص واحد"، تبدلت وأصبحت ترى في بعضهم نتوءات من الأمام ومن الخلف، فالطعام الذي يتناوله أغنياء الصين الذين يتزايد عددهم يؤدي إلى سمنة مفرطة، مصحوبة بأمراض شتى، حيث تشير الدراسات إلى أن عددا متزايدا من الصينيين يعاني حاليا من السكري والأمراض المزمنة الأخرى ذات العلاقة بالسمنة، وعلى رأسها ارتفاع ضغط الدم. وتقول الدراسات إن واحدا على الأقل من كل خمسة بالغين في الصين وزنه زائد عن المعدل الطبيعي، وأن واحدا من بين كل خمسة يعاني من ارتفاع ضغط الدم، فحسب دراسة أجرتها وزارة الصحة الصينية ووزارة العلوم والتكنولوجيا ومصلحة الإحصاء، في أكتوبر عام ٢٠٠٥، فإن عدد الصينيين الذين يعانون من ارتفاع ضغط الدم ١٦٠ مليونا، أي ١٩٪ من عدد البالغين في الصين، مقارنة مع ٩٠ مليونا فقط عام ١٩٩١، أي بزيادة ٧٨٪ خلال ١٤ سنة، وبلغ عدد الذين يعانون من البول السكري، وهو مرض آخر من إفرازات السمنة، عشرين مليونا. ويبلغ عدد الصينيين ذوي الوزن الزائد ٢٠٠ مليون، أي ٢٢،٨٪ من البالغين، من بينهم سبعون مليونا وصلوا حد السمنة.

التغير في التركيبة الغذائية بالصين له تأثيره أيضا على أطفال الصين وصحتهم، ففي بكين يوجد طفل واحد عمره ثلاث عشرة سنة أو أقل بين كل عشرين طفلا من نفس العمر مصاب بالسكري. وتحذر أحدث دراسة أجريت على مستوى الصين حول صحة

الأطفال من أن السمنة باتت من أكبر المخاطر على صحة الطفل الصيني، وتؤكد أن مؤشرات الصحة البدنية للتلاميذ تتراجع مع زيادة أوزانهم، والسبب هو نقص التمرينات البدنية. حسب هذه الدراسة زاد عدد الأطفال المصابين بالسمنة بل تضاعف في بعض المدن خلال السنوات الخمس الماضية. في بكين على سبيل المثال تشير أحدث الأرقام إلى أن طول ووزن وعرض الصدر للتلاميذ الصغار يزداد بشكل متواصل، بينما مؤشرات الصحة البدنية، مثل سعة الرئتين والسرعة والقوة تتراجع. وحسب الهيئات المعنية، ضغط الدم لنصف تلاميذ المدارس أعلى من المعدل الطبيعي. وفي بكين والمناطق الحضرية الأكثر حظا في التنمية الاقتصادية تصل نسبة السمنة بين التلاميذ الذكور حوالي ١٣٪، مقارنة مع ٨،١٪ في الحضر و٣،١٪ في الريف على المستوى الوطني. وأشارت إحصاءات وزارة التعليم الصينية في عام ٢٠٠٥ إلى أن ١١،٥٪ من الأولاد و٨٪ من البنات في المدن في سن من ٧ إلى ٢٢ سنة مصابون بالسمنة.

ولكن مع أن كثيرين في مدن الصين يعانون من التخمة يعاني أيضا كثيرون في الريف من فقر التغذية، وهو وضع لم يتحسن كثيرا في السنوات العشرين الأخيرة على الرغم من الطفرة الاقتصادية في الصين. بل إن الصورة قاتمة أكثر في المناطق الأشد فقرا. مقارنة مع الأطفال ذوي الوزن الثقيل في المدن، ٩٪ من أطفال الريف تحت سن الخامسة وزنهم أقل من المعدل الطبيعي، وفقا لمسح أجرى عام ٢٠٠٥. بل إن النسبة ترتفع في المناطق الأشد فقرا إلى ١٤،٤٪. وحوالي ١٧٪ من أطفال الريف تحت سن الخامسة ينمون أبطأ من المعدل الطبيعي. وحسب مسح أجرته في سبتمبر عام ٢٠٠٥ وزارة الصحة الصينية، الأطفال الأكثر افتقارا للتغذية في الريف الصيني يتركزون في المناطق الفقيرة مثل منطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ ومقاطعة قويتشو، فثلث أطفال قويتشو وربع أطفال قوانغشي ينمون أبطأ من المعدل الطبيعي.

●●●

وتشـهد الصين في السـنوات الأخيرة توجها متزايدا نحو "تغيير الشـكل" على طريقة "نيـو لـوك"، وثمة اسـم يكاد يعرفـه كل صيني؛ هاو لو لو، الفتاة التـي لم تحظ من الجمال شـيئا تقريبـا، ولكنهـا تحولـت إلى حسـناء يضرب بهـا المثل، حتـى وإن كان هـذا الجمال اصطناعيـا. الـذي حـدث هو أن الآنسـة هـاو لو لو أجرت على مدى سـتة أشـهر عمليات جراحـة تجميل لكل موضع في جسـمها تقريبا. صحيح أن عمليـات التعديل والتغيير التي خضعـت لهـا هاو لو لو والتـي تبلغ تكلفتها سـتة وثلاثين ألف دولار أمريكـي، أثارت جدلا فـي الصيـن حـول معاييـر الجمـال، ولكن الواقع هـو أن الصيـن عرفت مصطلحـا جديدا فـي علـم الاقتصاد هو "اقتصـاد الجمال"، فإنفاق الصينيين على تجميل الجسـم يأتي في المرتبة الرابعة لإنفاقهم؛ بعد الإنفاق على شـراء البيت والسيارة والسياحة. وقد بلغ عدد المراكز والصالونات التي تقدم خدمات التجميل في الصين نحو مليونين، ينفق في داخلها الصينيون أكثر من عشرين مليار دولار أمريكي سنويا.

ويكفـي أن تقف قليلا في شـارع صيني لتدرك التغير الـذي طرأ على هيئة الصينيات والصينييـن اصطناعيا، فألوان الشـعر والأظافر والرموش متنوعـة، من البني إلى الأحمر مـرورا بـالأزرق، وإذا جلسـت قليلا أمام شاشـة التلفاز سـترى عددا هائـلا من الإعلانات عـن أدويـة تزيـد الطـول وكريمات تبيض البشـرة وتكبـر وتُعـرض الثديين وتشـد الخصر وتخفف السمنة، الأكثر أن الصين أقامت مسابقة للجمال الاصطناعي، يسمونها بالصينية (رنتسـاو ميينيـو). هـذا التحول يتناقض تماما مـع الرؤية الصينية التقليديـة للجمال، في السنوات التي تلت قيام الصين الجديدة، ففي خمسينات وستينات وبداية سبعينات القرن الماضـي لـم يكـن الصينيون يعتبرون الجمـال هدفا ذا قيمة، حيـث كان ينظر إلى الجمال على أنه انحطاط وبرجوازية. وكانت المرأة المثالية في تلك الأيام هي العاملة التي ترتدي البزة الزرقاء، والخالية تماما من أي أثر لمساحيق التجميل، بل إن إجراء عمليات التجميل فـي الصيـن ظل محظورا حتى عام ١٩٨٠. ومع هذا التحول لا عجب أن تتسـابق شـركات منتجـات التجميـل للفوز بنصيب من السـوق الصينية، فالمرأة الصينيـة تنفق ما بين ١٠٪ إلى ١٥٪ من دخلها في المتوسـط على مسـتحضرات التجميل، وتشـير التقديرات إلى أن

النساء من سن العشرين إلى الأربعين في المدن الكبرى بالصين، وعددهن ١٢٠ مليونا تقريبا، ينفقن أكثر من عشرة مليارات دولار أمريكي سنويا على التجميل.

المدهش أنه مع ارتفاع مستوى معيشة قطاعات معينة في الصين، يدخل عدد متزايد من الرجال الصينيين إلى عالم التجميل أيضا، فحسب إحصاء أجرته الجمعية الصينية لصناعة العطور ومستحضرات التجميل والمكياج، بلغت مبيعات مستحضرات التجميل للرجال بالصين في عام ٢٠٠٦ خمسين مليون دولار أمريكي، وتشير التقديرات إلى أن هذا الرقم سيصل خمسمائة مليون دولار أمريكي في عام ٢٠١٠. لم يعد غريبا أن ترى صينيين بعيون زرقاء!

●●●

ليس الذي يتغير هو شكل وهيئة الصينيين فقط، بل عادات حياتهم، فالصينيون المعروفون بالنوم مبكرا والاستيقاظ مبكرا أيضا، بات عدد متزايد منهم يسهر الليل وينام حتى تنتصف الشمس في السماء، وهم يسهرون راغبون ومُكرهون. الراغبون تجدهم في الملاهي الليلية والمطاعم والبارات ومقاهي الإنترنت وأمام شاشات التلفزيون وفي صالات الكاراوكي، ذلك المنتج التقني الياباني الذي يُظهر لك على شاشة عرض كلمات أغنية بالتوافق مع لحنها الموسيقي فتقرؤها وترددها مع اللحن. والمُكرهون تعثر عليهم في المكاتب وأمام أجهزة الكمبيوتر وفي مواقع العمل التي تقتضي السهر، ويضاف إليهم المصابون بالأرق والأمراض الأخرى ذات العلاقة بعدم القدرة على النوم حتى وإن أرادوا.

الآن يعاني نصف الصينيين تقريبا من الأرق وقلة النوم، فحسب دراسة ميدانية أجريت بطريقة العينة العشوائية على عشرة آلاف فرد، ٤٥٪ من أبناء الصين، أي ٥٨٥ مليون إنسان يجدون صعوبة في الخلود إلى النوم. وتشير دراسة أخرى مشابهة أجريت في مدينتي بكين وشانغهاي إلى أن عددا متزايدا من الصينيين ينامون وقتا أقل. وحسب معهد البحوث الصيني للطب التقليدي ببكين فإن الأرق والأبنيا Apnea (انقطاع النفس أثناء النوم)، والاضطراب العصبي المزمن الناتج عن عدم قدرة المخ على تنظيم دورة النوم- الاستيقاظ،

تحتل المقدمة ضمن مائة صنف من أنواع اضطرابات النوم في الصين. ويتبوأ الصدارة في قائمة ضحايا اضطرابات النوم العاملون في مجالات الصحافة والإعلام وأصحاب الأعمال التجارية. في بكين كشفت دراسة ميدانية أجرتها في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٥ مصلحة الإحصاء في المدينة عن أن سكان العاصمة ينامون ٢٥ دقيقة أقل في المتوسط عما كانوا عليه قبل عشرين عاما، ولاحظت الدراسة أن هناك تناسبا عكسيا بين مستوى التعليم وعدد ساعات النوم، فالأفضل تعليما هم الأقل نوما! وفي شانغهاي أجرى نادي صحة العمال بالمدينة دراسة على عشرين ألف عامل، كشفت عن أن ١٧٪ فقط منهم ينامون بين سبع وثماني ساعات يوميا، في حين ينام ٦٧٪ منهم فترة من خمس إلى ست ساعات، أما الآخرون فإما ينامون أقل من خمس ساعات أو أكثر من ثماني ساعات. وحسب هذه الدراسة أيضا، فإن أكثر من ٧٠٪ من العاملين في المكاتب بالمدينة يجدون صعوبة في الخلود إلى النوم و٢٥٪ منهم تقريبا يعتمدون على الحبوب المنومة، و٩٥٪ من الذين يعتمدون على الأدوية من أجل النوم يعانون من الأرق إذا توقفوا عن استخدامها. ولكن في الريف، وعلى الرغم من التحول الهائل الذي شهدته أرياف الصين في السنوات الأخيرة، الوضع مغاير لما هو عليه في المدن الصاخبة، فمشاكل النوم نادرة حيث يلوذ الريفيون إلى فراشهم بعد مشاهدة القليل من البرامج التلفزيونية!

وطلاب الجامعات وتلاميذ المدارس في الصين ليسوا استثناء من اضطرابات النوم على الرغم من أنهم لم يدخلوا معترك الحياة بعد، فحسب دراسة أجراها مركز بحوث الطفل بالتعاون مع صحيفة "شباب الصين" وشملت ٦٨٤٦ تلميذا في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة بعشر مدن، قال نصفهم إن النوم الجيد هو أعز ما يطلبون، ووجدت الدراسة التي أعلنت نتائجها في بداية عام ٢٠٠٦، أن ١٠،٤٪ من الأطفال تحت سن ١٢ سنة ينامون أقل من ثماني ساعات في اليوم، ومن بين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٣ و١٥ سنة ينام ثلثهم أقل من ثماني ساعات يوميا. وربما لهذا السبب قررت مدرسة في بلدية شانغهاي تأجيل وقت بداية أول حصة دراسية كل يوم من الساعة الثامنة إلا عشر دقائق إلى الساعة الثامنة وعشرين دقيقة. وقد جاء القرار بعد دراسة قامت بها إدارة المدرسة

واستطلاع رأي أولياء أمور التلاميذ، حيث لاحظ المعلمون أن التلاميذ يغالبهم النعاس أثناء الدرس لأنهم لا ينامون وقتا كافيا.

●●●

لقد تغير الصيني الجديد كثيرا، في طعامه وشرابه وبنيته وسلوكياته وطريقة حياته، ولكنه تغير ظاهري، لأن هناك ثقافة وحكمة وتقاليد مستقرة في أعماقه، تردُه عندما يجد الجد إلى جذوره وأصوله. فما هي تلك الثقافة والفكر المحفوران في أعماق الصيني؟

●●●

obeikan.com

الفصل الثالث الفكر الصيني وتأثيره في حياة الصينيين

(الطب والعمارة نموذجا)

يخلط البعض بين تاريخ الصين وتاريخ الفكر الصيني، وهما أمران، وإن كانا متصلين، فإنهما أيضا مختلفان. فإذا كان الصينيون يرجعون أصولهم إلى الأخوين هوانغ دي ويان دي قبل نحو خمسة آلاف عام فإن بدايات تاريخ الفكر الصيني ارتبطت بالمفكر الصيني والمعلم التربوي كونفوشيوس، المولود عام ٥٥١ قبل الميلاد، أي قبل نحو ألفين وخمسمائة عام. ولكن من الطبيعي أيضا أن الفترة التي بين زمن الأخوين هوانغ ويان وزمن كونفوشيوس الذي يسمى عصر الربيع والخريف، وهي ألفان وخمسمائة عام تقريبا، لم تكن خاوية من الفكر.

ويلاحظ أن نمط الحياة المختلف للصينيين أدى إلى ظهور اختلافات كبيرة في الفكر الصيني عن الفكر الفرعوني والفكر الإغريقي وغيرهما من الأنساق الفكرية التي عرفتها البشرية قديما، وهي اختلافات تتجلى في وسائل التعبير عن هذا الفكر. ولعل من أمثلة ذلك اختفاء الخنزير من التراث الفكري الفرعوني بل ومن اللوحات الفرعونية في المعابد والقصور والمسلات وكافة آثار الفراعنة، والاحتفاء الذي يحظى به الخنزير في الثقافة والحياة الصينية، لدرجة أن هذا الحيوان يعتبر أحد أكثر أبراج الميلاد الصينية الاثني عشر حظوة وبركة. كما أن الرمز والدلالة شائعان في الفكر الصيني، فالمفكرون والفلاسفة الصينيون استخدموا في الغالب لغة حدسية مجازية للتلميح إلى المعاني العميقة التي يتطلب فهمها واستيعابها قدرة عالية على التفكير الترابطي، ومعرفة أوسع بدلالات الرمز في الفكر الصيني، وهي دلالات قد لا تتفق بل قد تتناقض تماما مع دلالات الرمز في أنساق فكرية أخرى، ومن نماذج ذلك استخدام القرد كرمز للحيوية والنشاط والذكاء في الثقافة الصينية ودلالة الخنزير كرمز للقوة والطيبة عند الصينيين، وهو استخدام يتناقض تماما مع دلالة القردة والخنازير في ثقافات أخرى.

ويلاحظ أيضا أن مفهوم ين ويانغ قاسم مشترك في الأساطير الصينية حول أصول وتطور الإنسان فحسب الفكر الصيني القديم فإن نوي وا، إلهة القمر، هي تجسيد ين بينما فوشي، زوجها، إله الشمس، هو تجسيد يانغ. فقد اعتقد الصينيون القدماء أن الكون يتكون من عنصرين أساسين، هما يانغ وين. يانغ، الذي يرمز أصلا للشمس، يمثل القوة الإيجابية أو النشيطة، بينما ين، أي غياب الشمس فيمثل القوة السلبية أو التقبُلية. والعلاقة بين ين ويانغ تكاملية تجسد كلا من التضاد والوحدة. وقد شكلت نظرية ين ويانغ، التي تطورت من هذا المفهوم، الأساس لفهم الصينيين القدامى للعالم المادي وباتت أيضا الأساس للفكر الصيني القديم.

●●●

وقد شهدت فترة الربيع والخريف والدويلات المتحاربة في الصين اضطرابات سياسية ونزاعات عسكرية، فقد كانت فترة حراك وتغير أدت إلى بزوغ إبداعات فكرية وأدبية ونهضة أكاديمية، وكانت المذاهب الفكرية الرئيسية السائدة في تلك الفترة مذهب الموهية والكونفوشية والطاوية والقانونية (الشرعية).

مذهب موه (الموهية)، الذي أسسه موه تسي (٤٦٨ ق.م – ٣٧٦ق.م)، هو مدرسة فكرية رأت أن سبب الاضطرابات الاجتماعية هو انعدام الحب بين الناس، ومن ثم فقد تبنت هذه المدرسة منهجا سلميا خيريا دعا إلى الحب بين الناس ونبذ الخلافات وعدم الاعتداء على الغير،، كما دعت إلى الحياة المتقشفة ونبذ الإسراف وإلى وضع الفرد المناسب في المكان المناسب. والغريب أن هذا المذهب الذي ظهر قبل مولد أفلاطون، المفكر اليوناني صاحب كتاب الجمهورية، دعا في ذلك الزمان الذي سادته وراثة السلطة، إلى معارضة الملكية الوراثية، ولكنه أيضا، على عكس المدارس الفكرية المعاصرة له، رفض مؤسسة الأسرة وفكرة أن الأسرة هي القاعدة الأساسية للمجتمع الصيني بل دعا إلى تحطيم الحدود الأسرية، ولعل هذه الدعوة هي التي جعلت مذهب موه غير مقبول لدى الأجيال اللاحقة في المجتمع الصيني الذي تحتل فيه الأسرة مكانة مركزية.

أمـا مذهـب القانونيـة (الشـرعية) الـذي يمثله هـان فـي (٢٨٠ – ٢٣٣ ق.م) فقد دعا إلـى حكـم البـلاد بالقانون الاسـتبدادي، حيـث لا حاجة أن يكـون حاكم البـلاد ذا قدرات وأخـلاق، لأن عملـه هـو إعـلان القوانين والأوامـر لأبناء الشـعب؛ ومن مبادئـه أن الفقراء والأثرياء متساوون أمام القانون الذي لابد من تنفيذه بشكل صارم؛ ولابد من توفر الوسائل السياسية لتنفيذ الأعمال واختيار الموظفين. وهذا المذهب ترك تأثيرا كبيرا في سياسة الصيـن في الأوقات اللاحقة، واسـتفاد منه الإمبراطور تشـين شـي هوانغ فـي إقامة أول دولة إمبراطورية مركزية في تاريخ الصين.

●●●

الكونفوشية

كونفوشـيوس، الـذي يكتـب اسـمه بالإنجليزيـة Confucius، هـو أول مـن بلـور الفكر الصيني في صياغات منهجية وقوالب فكرية متكاملة أطلق عليها المدرسـة الكونفوشـية، التـي كانـت أول فكـر منهجي في تاريخ الثقافـة الصينية وأثرت في مجتمـع وثقافة وحياة الصينييـن لفتـرة اسـتمرت أكثـر مـن ألفي عـام. فعندمـا ولد مفكـر الصين الكبيـر كانت هناك مدارس وكان هناك فكر، بل إن كونغ فو تسـي، المعروف في الأدبيات العربية باسـم كونفوشـيوس وإن كان نطـق الاسـم حسـب الإنجليزية يجب أن يكون كونفيوشـوس، شـرع وهو في العشـرين من عمره يدرس المهارات الأساسـية السـت في الصين القديمة، وهـي الثقافة والعلاقات العامة والعسـكرية والووشـو (الكونغ فو) والكتابة والحسـاب؛ التي كان يجب توفرها في من يريد أن يشتغل بالسياسة ويرتقي سلم العمل الحكومي. ومعنى ذلك أن الصيـن عرفـت قبل كونفوشـيوس بزمن طويل مدارس فكرية أرسـت الأسـس لمهارات فكرية ينبغي أن يتعلمها ويجيدها من أراد أن يقتحم عالم الفكر والسياسة ويمارس العمل السياسـي فـي المجتمـع الصينـي القديم. وكما هـو الحال فـي تاريخ الأمـم الأخرى، كان ارتباط مدرسـة فكرية معينة بسـلطة الدولة يضمن لها الاسـتمرار والقوة والتطور، وهذا بالضبط ما حدث مع المدرسـة الكونفوشـية في الصين، التي وضع أصولها كونفوشـيوس

(٥٥١ – ٤٧٩ ق.م) خلال فترة الربيع والخريف (٧٧٠ – ٤٧٦ ق.م)، وطورها من بعده المفكرون الكونفوشيون. ففي عام ١٣٤ قبل الميلاد استطاع العالم الكونفوشي دونغ تشونغ شو (١٧٩ – ١٠٤ ق.م) إقناع الإمبراطور هان وو دي (على العرش ١٤٠ – ٨٧ ق.م) إمبراطور أسرة هان الغربية (١٤٠ق.م – ٩ م) بجعل الكونفوشية الفكر الرسمي للدولة. وهكذا أصبح الفكر الكونفوشي الفلسفة المسيطرة في الصين لفترة طويلة، وامتد تأثيرها إلى كافة مناحي الحياة.

خرج كونفوشيوس إلى النور في عصر عمته الفوضى وانحدرت فيه القيم الأخلاقية في مجتمع دويلة لو (مقاطعة شاندونغ حاليا)، إبان عصر الربيع والخريف (٧٧٠ – ٦٧٤ ق.م). وهو سليل أسرة من النبلاء، ولكنها كانت فقيرة عندما رزقت به. وزاد الأمر سوءا أن والده مات وهو في الثالثة من عمره، بينما ماتت أمه وهو في ربيعه السابع عشر. ولا شك أن هذه الظروف جعلت الفتى كونغ فو، أكثر إصرارا على التفوق والنجاح، وبالفعل أقبل على دراسة العلوم التي كانت وسيلة ارتقاء السلم الاجتماعي، كما أسلفنا. ووضع كونفوشيوس أمامه هدف العودة بالمجتمع إلى ما كان عليه من نزاهة وأمانة في بداية أسرة تشو الغربية (القرن الحادي عشر ق.م – ٧٧١ ق.م) وإعادة نظام الدرجات الاجتماعية الهرمي الهيراركي.

في سن الثلاثين استوعب كونفوشيوس المهارات الست التي أشرنا إليها والتي كانت مؤهلات ممارسة العمل السياسي، وازدادت شهرته وسعى إليه كثيرون طلبا للعلم والمعرفة والحكمة، فأنشأ مدرسة خاصة في داره، هي الأولى من نوعها في الصين، ومارس فيها مهنة التدريس، من أجل نشر الثقافة التقليدية لأسرة تشو التي تأثر بها كثيرا وكانت النموذج بالنسبة له. عمل من أجل إعداد تلاميذه وفقا للمُثل التي آمن بها ودعا إليها، على أساس أن هؤلاء سيصبحون يوما أعمدة المجتمع وقادة الفكر من خلال المناصب التي سيشغلونها لاحقا. كما أن كونفوشويس اعتبر التدريس سبيلا آخر للانضمام إلى النخبة الثقافية والسياسية، ولهذا أمضى حياته كلها ما بين التدريس والعمل السياسي، حيث شغل منصب المسؤول عن دائرة الشؤون القانونية في حكومة

دويلة لو، وكان عمره خمسين عاما، ولكنه ترك العمل بالحكومة بعد مكيدة سياسية دبرها له الحاسدون والكارهون والمعارضون لفكره. بعد استقالته من المنصب الحكومي، شرع كونفوشيوس يتجول مع تلاميذه بين الدويلات، واستمر هكذا لمدة أربع عشرة سنة، سعيا لإصلاح المجتمع وتحقيق المُثل التي دعا إليها من خلال التثقيف والتعليم، ولكن مسعاه لم ينجح، إذا لم يفلح المصلح الاجتماعي في تحقيق ما أراده، فأقفل عائدا إلى دويلة لو، حيث مات ودفن بها بعد ثلاث سنوات من عودته.

وهكذا مارس كونفوشيوس طوال حياته السياسة والتعليم، بكل ما بين الُمثل السياسية والواقع الاجتماعي القاسي من تناقضات، وحاول أن يحقق المُثل التي آمن بها على أرض الواقع في المجتمع، وبذل من أجل ذلك جهودا مضنية، برغم علمه أن تحقيق هذه المُثل أمر صعب. لم ينجح كونفوشيوس في عالم السياسة ولكنه أصبح أعظم معلم في تاريخ الصين، فقد كان مقبلا على التعليم داعيا له، وهو القائل: إذا كان ثمة ثلاثة أفراد يسيرون معا فحتما واحد منهم معلم لي".

قبل كونفوشيوس، كان التعليم حكرا على أبناء الطبقات العليا في المجتمع، ولكن كونفوشيوس في مدرسته الخاصة غير الحكومية التي أقامها، قبل تلاميذه بدون النظر إلى أصولهم العائلية، وأعد أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ، وزاد عدد المتفوقين منهم على السبعين تلميذا. وربما يبدو للبعض أن هذا يتناقض مع دعوته إلى الهيراركية الهرمية الاجتماعية ولكن ذلك يؤكد أن كونفوشيوس اعتبر التعليم مثل الماء والهواء، حق لكل إنسان بغض النظر عن وضعه الاجتماعي أو طبقته، ولعله أول صيني اعتبر التعليم أحد الحقوق الأساسية للإنسان. ويرجع لكونفوشيوس أيضا الفضل في وضع هيكل النظام التعليمي القديم في الصين، من حيث أهدافه التربوية ومناهجه الدراسية وأساليبه التعليمية. لقد سعى إلى تعليم تلاميذه الأخلاق والكفاءة، اقتناعا منه بأن هدف التعليم هو بناء شخص كريم الخلق. كان يطلب من تلاميذه أن يقرءوا أمهات الكتب ثم يشرحها لهم بصورة إبداعية تفتح عقولهم على معارف ومدارك جديدة، واستطاع أن يعلم تلاميذه من الواقع ويثقفهم وفقا لاستعدادات وإمكانات كل منهم، وكان يوقظ ضمائرهم ويجعلهم

يتعلمون ذاتيا ويتنافسون في الدراسة، ويبذلون أقصى الجهود في سبيل التقدم في العلوم التي يدرسونها وفي بناء شخصياتهم. كان منطلق دعوة كونفوشيوس إلى "حق الجميع في التعليم"، هو اقتناعه بأن جميع البشر خُلقوا سواسية، ولكنهم يختلفون عند الممارسة نتيجة تأثير البيئة والعادات المختلفة، ولذلك فإن كل فرد قادر على الارتقاء بنفسه عن طريق التربية والتعليم.

المبادئ الأساسية للكونفوشية هي الولاء والطاعة للأهل والاستقامة والسلطة المطلقة للحاكم على المحكوم وللأب على الابن وللزوج على الزوجة، إضافة إلى حب الخير والحكمة والإيمان، وقد نفذت تلك المبادئ في نسيج حياة وتفكير وعادات الصينيين من بعده. وتحتل التربية الأخلاقية مكانة محورية في النظام التعليمي الكونفوشي، حيث رأى كونفوشيوس أن الأخلاق ينبغي أن تكون الأساس في من يريد أن يمارس العمل السياسي، بينما تأتي المهارات الأخرى في مراتب تالية للأساس الأخلاقي. وقال كونفوشيوس: "على المعلم أن يُدرس بدون ملل ويعلم الناس دون سأم". وقال:"إن الذي يستطيع، بمحاكاة القديم، أن يكتسب معلومات عن الجديد يصلُح أن يكون معلما." ودعا كونفوشوس إلى أن يكون التعليم بالقول والفعل، وأن يدرس المعلم والتلاميذ معا ويتعاونون ويتقدمون معا، وأن يمارس المعلم التدريس والتفكير في نفس الوقت. وشجع كونفوشيوس الطلاب على تجاوز معلميهم في العلم والمعرفة، فقال:"احترم الشباب، فمن يُدريك، لعلهم يصبحون يوما، ما أنت عليه الآن"، ودعا كونفوشيوس المسؤول الذي ينجز مهامه أن يكرس نفسه للدراسة، والطالب الذي يكمل دراساته أن يكرس نفسه لواجباته كمسؤول. وقد كانت هذه الفكرة ذات أهمية خاصة في تاريخ الصين، حيث أنها كانت الإرهاصات الأولى لنظام الامتحان الإمبراطوري الذي ظهر أولا في زمن أسرة سوي (٥٨١– ٦١٨ م)، وكان وسيلة اختيار الموظفين الحكوميين واستمر حتى آخر أسرة إمبراطورية في تاريخ الصين، أسرة تشينغ.

●●●

مفهوم رن (التراحم أو النزوع إلى الخير) واحد من المفاهيم الأساسية للكونفوشية، بل مفهوم محوري في الثقافة الكونفوشية. المعنى الجوهري للنزوع إلى الخير أو التراحم هو أن تحب الآخرين. الإنسان، أولا يجب أن يحب أسرته، ومن هنا يكون توسيع مدى حبه للعالم كله. ويدعو مفهوم النزوع إلى الخير البشر للتعاطف مع بعضهم البعض. فهو مفهوم يدمج بين الوعي بالذات وفهم الطبيعة الإنسانية أيضا كروح عميقة للنزعة الإنسانية. وجوهر النزوع إلى الخير هو الاعتراف بالقيمة الحقيقية للآخرين، والقدرة على أن ترى أنهم لا يختلفون فعلا عنك. وتنقل كتب التراث الصيني عن المفكر الكونفوشي الكبير منغ تسي، المعروف خارج الصين باسم منشيوس (٣٧٢ – ٢٨٩ ق. م)، أنه حكى قصة عن الملك تشي شوان، وهو حاكم دويلة تشي خلال فترة الدويلات المتحاربة (٤٧٥ – ٢٢١ ق.م)، تقول، إن الملك صادف في إحدى جولاته جماعة من الناس يهمون بذبح بقرة، فتألم لمشهد هذا الحيوان الذي يرتعد خوفا، فأمر بوقف عملية الذبح. ويعلق منغ تسي على ذلك بأن تصرُف الملك يجسد النزوع إلى الخير (رن). كما أن الرؤية الكونفوشية للنزوع إلى الخير تؤكد على التربية الذاتية لتحقيق تناغم الفرد مع نفسه وتنظيم الدولة، فمحور منظومة المعايير الخلقية التي طرحها كونفوشيوس هو الرحمة وحب الناس. وقد دعا كونفوشيوس إلى تهذيب أبناء الشعب بالآداب الاجتماعية لغرس الرحمة في قلوبهم وإثارة اهتمامهم بالمراتب الهيراركية أي الهرمية الاجتماعية، في سبيل الحفاظ على انضباط ووئام الأسرة والمجتمع. كما اهتم كونفوشيوس بالأخلاق بدلا من المصلحة الخاصة مؤكدا على دور الأخلاق في حكم البلاد. ودعا إلى الحكم الرحيم وتحقيق الازدهار الاقتصادي لأبناء الأمة والعقاب الخفيف والتعليم السياسي لأبناء الشعب.

وبعد التراحم أو النزوع إلى الخير يأتي مفهوم التوازن والتناغم (تشونغخه) كأحد أعمدة الفكر الكونفوشي، ويلخص كونفوشيوس هذا المفهوم في فكرته حول مبدأ الوسطية. يعتقد كونفوشيوس أن لكل ظاهرة وجهين متعارضين يوجدان في حالة من التوازن النسبي. عندما يتجاوز التوتر بين الجانبين حدا معينا، يضطرب هذا الاعتماد المتبادل مما يسفر عن ظواهر شديدة وربما عكس الوضع الأصلي. وشدد على أن هدف الإدارة الحكومية ينبغي

أن يكون استعادة الحالة الأصلية؛ حالة التوازن النسبي هذه والحفاظ عليها، وهذا يتحقق بتوظيف مبدأ التوسط للتسوية بين الجانبين المتطرفين. هذه الوساطة يجب أن تؤدى بحيادية، وبروح من الاعتدال والتعاون، مؤكدا على ضرورة اللجوء إلى إجراءات لا تكون لينة للغاية ولا صارمة جدا، من أجل الحفاظ على النظام ومنع مزيد من النزاعات.

.....

لم يتحدث كونفوشيوس عن أعاجيب وأعمال قوة واضطرابات أو أرواح، وإنما أوضح العلاقات الاجتماعية، فمحور الكونفوشية كما أسلفنا هو النزوع إلى الخير، التي حددها كونفوشيوس بشكل أساسي باحترام الأبوين والأخوة والأخوات. ولكن مفهوم النزوع إلى الخير في الكونفوشية لا يقتصر على الأخلاق فحسب، وإنما يشمل معاملة الآخرين باحترام، كما أنه، المرشد في ممارسة السياسية ومعيار السلوك الإنساني. وحدد كونفوشيوس طريقتين لإقامة الدولة على أساس النزوع إلى الخير؛ الأولى هي الأمانة والتسامح والثانية هي الالتزام بالشعائر والطقوس. وقد شرح الطريقة الأولى بالقول: إذا أردت أن أقيم مثلا طيبا في حياتي، ينبغي أن أساعد الآخرين على إقامة المثل الطيب، وإذا حاولت أن أحقق المُثل، يجب أن أساعد الآخرين على تحقيقها. وقد قال المفكر الكونفوشي، منشيوس: "إذا كنت كبيرا، وأريد أن يحترمني الناس، علي أن أحترم الآخرين أولا، وإذا كنت طفلا وأريد أن يحبني الناس، علي أن أحب الآخرين أولا". ويعتقد كونفوشيوس أنه ينبغي على المرء أن يسيطر على نفسه ويرتقي بأخلاقه إلى الدرجة العالية ويحقق ذلك بأفعاله، فيستطيع أن يفيد الآخرين في تحقيق الخير. وإذا تناقضت مصالح الحياة والأخلاق لا يجوز التضحية بالأخلاق من أجل مصالح الحياة، فقال: "لا تدع أحدا يسبقك إلى فعل الخير، حتى ولو كان مُعلمك". وحسب الفكر الكونفوشي، إذا ارتقى المرء إلى منزلة طيبة، استطاع أن يفعل ما يشاء دون أن يناقض الأخلاق، فالفقراء يهتمون بأخلاقهم وبعد أن يصبحوا أثرياء يخدمون المجتمع بثروتهم، أو هكذا ينبغي أن يكونوا.

وهكـذا فـإن الفكر الكونفوشـي اشـتمل علـى مبادئ الأخـلاق والتربية والسياسـة في إطـار منظومـة كاملـة وضعها كونفوشـيوس، وعلى مدى سـنوات طويلة ظلـت المثل العليا لكونفوشيوس الهدف الذي يسعى إليه الصينيون جيلا بعد جيل.

●●●

كان كونفوشـيوس يلقـي تعاليمـه علـى تلاميـذه ويشـرح لهم ولـم يـدون أي مؤلف في حياته، وبعد وفاته، جمع طلابه كلماته في كتاب «المحاورات».

وهنـاك سـتة مؤلفـات كونفوشـية، هـي الشـعر" (شـي جيـن)، و"الوثائـق" (شـوجين)، و"الطقوس، أو معايير السـلوك" (لـي)، و"التنجيم" (يي جين)، و"الموسـيقى" (يويه)، و"الربيع والخريف" (تشـون تشـيو). كتاب "الشـعر" هو ديوان جامع للشـعر الصيني، وكتاب "التنجيم" يشـتمل علـى حكم سياسـية وفلسـفة حياة الإنسـان، بينمـا كتـاب "الوثائق"، عبـارة عن جمع لوثائق أسـر شـيا وشـانغ وتشو، أما كتاب "معايير السـلوك، أو الطقوس" فهو تسجيل للآداب والمراسـيم التي سـادت في فترة أسـرة تشـو، وهـي الفترة التـي كانت تمثل النمـوذج الأمثل للسياسـة والمجتمع عند كونفوشـيوس، ويحدد الكتاب معايير وقواعد السلوك لكل فئة وفرد فـي المجتمـع. ويتناول كتاب "الموسـيقى" النظريات الموسـيقية في ذلـك الزمان، ولكن هذا الكتاب اندثر، أما كتاب "الربيع والخريف" فعبارة عن حوليات للأحداث الهامة لدويلة لو.

كتـاب المحـاورات (لـون يـوي)، الـذي ذاع صيتـه وتُرجـم إلـى لغـات عديـدة، يسـجل محاورات كونفوشيوس مع تلاميذه وتابعيه، وقد جمعها، كما أسلفنا، بعض من تلاميذه في هذا المؤلف الذي صار أحد أهم الأعمدة الفكرية للفكر الكونفوشي.

والحقيقة أن الشـهرة والمكانة التي نالها كونفوشيوس بعد وفاته تفوق بكثير ما حققه خـلال حياتـه، ففي عام ١٩٥ قبل الميلاد، أي بعد وفاته بنحو مائتين وأربع وثمانين سـنة، عندمـا مـر الإمبراطور قاو تسـو، حاكم أسـرة هـان الغربيـة (٢٠٦ ق.م – ٢٤ م)، بمنطقة دويلة لو، مسقط رأس كونفوشيوس والتي دفن بها أيضا. عبر قاو تسو عن الاحترام لهذا المعلـم وطلـب مـن وزرائه التعبير عن الاحترام له أولا قبل ممارسـة العمل السياسـي، في

تقليد يشبه أداء اليمين الدستورية أو القانونية هذه الأيام. وفي عصر الإمبراطور وو دي، حاكم أسرة هان الغربية، وصلت الكونفوشية إلى قمتها في الصين بعد أن حظر البلاط كافة المدارس الفكرية إلا الكونفوشية، التي أصبحت الفكر الرسمي للدولة. وقد أدى تبجيل الصينيين لكونفوشيوس إلى تأليهه تدريجيا. وكان من بين ألقابه العديدة سيد نشر الثقافة، المنجز العظيم، الحكيم المطلق، المعلم الأول، والحكيم. وقد توارث أسلافه ألقاب الشرف التي منحهم إياها العديد من الأباطرة في تاريخ الصين. في عام ١٠٥٥م، نال حفيده من الجيل السادس والأربعين لقب أمير يانشنغ، الذي يعني "المغمور بالقداسة". وأصبح مقر إقامة أسرة كونفوشيوس أكبر دار رسمية في الصين، لا يسبقها إلا مقر إقامة الإمبراطور. وقد احتفظ أسلاف كونفوشيوس بهذه المكانة على مدى السنوات الثمانمائة والثمانين اللاحقة، حيث تقلد أفراد ستة وثلاثين جيلا منهم مناصب حكومية رفيعة. وعشيرة كونفوشيوس هي الأسرة الوحيدة في تاريخ الصين التي لم تفقد مكانتها النبيلة مع صعود وانحطاط الأسرات الإمبراطورية، وهو أمر لا يمكن أن يقال بالنسبة للعديد من الأسر الصينية المرموقة عبر العصور في الصين.

●●●

بعد كونفوشيوس، ظهرت مذاهب مختلفة للكونفوشية، كان مذهب منغ تسي ومذهب شيون تسي أكثرها تأثيرا. دعا منغ تسي إلى أن الإنسان خير منذ ولادته؛ كما دعا إلى الحكم الرشيد على أساس الرحمة. حظي مذهب منغ تسي باحترام عظيم كمذهب أصيل للكونفوشية في فترة أسرة هان. وفي فترة أسرة سونغ أدرج كتاب "منغ تسي" الذي يسجل أعمال وأقوال منغ تسي مع كتاب "المحاورات" في المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشية. أما شيون تسي (٣١٣ – ٢٣٠ ق.م) فقد اعتقد، على العكس من منغ تسي، بأن طبيعة الإنسان شريرة منذ ولادته، وطور فكرة الحكم بالأخلاق للكونفوشية إلى تحديد الدرجات الاجتماعية بالأخلاق؛ ودعا إلى الحكم الرحيم والحكم القانوني الاستبدادي، لذلك اعتبر هذا المذهب، لاحقا، من مكونات مذهب القانونية. وعلى مدى ألفي عام، من أسرة هان إلى نهاية أسرة تشينغ، كانت الكونفوشية الفكر الرسمي للنظام الإمبراطوري الصيني،

فبعد وفاة كونفوشيوس، تنافس حكام الأسرات المختلفة في تقديم احترامهم له وأقاموا معابد لتقديسه في أرجاء الصين. وتواصلت مكانة كونفوشيوس كأعظم معلم في الصين إلى أن اندلعت انتفاضة الفلاحين في أواسط القرن التاسع عشر، عندما حطم الفلاحون تماثيل كونفوشيوس وهدموا معابده، وأحرقوا كتبه. ولكن في تسعينات القرن التاسع عشر، رفع الإصلاحيون البرجوازيون في الصين مكانة كونفوشيوس وأصبح كونفوشيوس المعلم الأول للإصلاح والتجديد. ولكن خلال حركة الرابع من مايو الثقافية عام ١٩١٩، تعرضت الكونفوشية لهجوم وانتقاد حاد، وفي فترة الثورة الثقافية (١٩٦٦ - ١٩٧٦)، تعرض الفكر الكونفوشي للهجوم والنقد مرة أخرى. ولكن مع انتهاء الثورة الثقافية وتبني الصين سياسة الإصلاح والانفتاح عادت الكونفوشية إلى الظهور، ولكن هذه المرة في إطار فكري أكثر رحابة وتسامحا، فالكونفوشية لم تعد الفكر الرسمي للدولة، ولكنها أيضا لم تعد رمزا للتخلف والرجعية. وقد أصبح اسم كونفوشيوس في الصين المعاصرة رمزا للفكر الصيني، لدرجة أن المدارس التي تقيمها الحكومة الصينية خارج البلاد لتدريس اللغة الصينية تحمل اسم "معهد كونفوشيوس".

وقد تركت الكونفوشية، شأن كل مدارس الفكر الصيني، بصماتها الواضحة على كافة أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والطبية، بل والمعمارية والغذائية في الصين، فالفكر الصيني، قديما وحديثا، لم يكن يوما حبيس الكتب أو مادة للجدل النظري، وإنما طريقة حياة وعمل. ويتضح ذلك من استعراض التأثير الذي تركته الكونفوشية في مجالات الطب والعمارة، بالصين، وهو التأثير الذي استمر زمنا طويلا.

●●●

ترك الفكر الكونفوشي بصمات واضحة على علوم الصحة والطب في الصين، من القيم والأخلاقيات الطبية إلى مفاهيم الصحة وطول العمر، ومبادئ التشخيص والعلاج، والممارسة الإكلينيكية.

الكونفوشية ترى أن الطعام والجنس هما الغريزتان الأساسيتان اللتان تضمنان بقاء الفرد واستمرار النوع. ولكن على الرغم من ضرورة هاتين الغريزتين ينبغي التحكم فيهما بصرامة. وتحدد الكونفوشية السبيل لتحقيق ذلك بالانصياع للطقوس وقواعد الآداب والسلوك، وهي مجموعة القواعد التي وضعها كونفوشيوس. وقد قال كونفوشيوس: "لا تنظر إلى الأشياء التي لا تتسق مع الطقوس، ولا تنصت إلى الأفكار التي لا تتسق مع الطقوس، ولا تقل الأشياء التي لا تتفق مع الطقوس، ولا تفعل الأشياء التي لا تتسق مع الطقوس". وأكد بشكل خاص على ثلاثة انضباطات ينبغي أن يمارسها الشخص قائلا: "ثمة ثلاثة أشياء يحذر منها الشخص السامي. في الشباب، عندما تكون القوة البدنية لم ترسخ، يحذر الفرد من الشهوة. وعندما يكون قويا، والقوة البدنية في نشاطها الكامل، يحذر الفرد من المشاكسات، وعندما يكون عجوزا وقد خارت القوة البدنية، يحذر الفرد من الاشتهاء".

ونلاحظ تأثير تلك التعاليم الكونفوشية في الطب التقليدي الصيني الذي يؤكد على أهمية تنظيم النشاط الجنسي من أجل الحفاظ على الصحة والحيوية. ووفقا للكونفوشية، الانضباط الذاتي ضروري للحفاظ على عنصر ين ويمكن الوصول إليه من خلال التربية الذاتية الروحية. واعتقد كونفوشيوس أن التربية الذاتية تنتج شخصية أخلاقية تكون بالتالي صافية هادئة عند التعامل مع الآخرين، وهذا يعزز الصحة والعمر المديد. واعتقاد الطب التقليدي الصيني أن العمل الخيري يأتي بالفضائل وطول العمر مأخوذ أيضا من الكونفوشية، التي اعتبرت أن التربية الروحية الذاتية هي أساس الصحة الجيدة.

●●●

ويجد مفهوم "النزوع إلى الخير" في الكونفوشية تطبيقا له في الطب الصيني القديم، حيث يؤكد مفهوم النزوع إلى الخير للطب التقليدي الصيني على علاج المرض لمواءمة الجسد وإنقاذ الأرواح. ومن أقوال كونفوشيوس: "الطبيب العادي يداوي المرض، الطبيب

الوسـط يـداوي النـاس، والطبيب المتفوق يـداوي الدولة". هذا التأكيـد على تناغم صحة الفرد وصحة المجتمع يشير إلى أن الكونفوشية والطب الصيني التقليدي يتقاسمان نفس القيم الأساسية.

وقد جاء وصف واحد من أبرز أطباء الصين قديما، وهو سـون سـي مياو (٥٨١ – ٦٨٢م)، المعروف باسم حكيم الصيدلة، الذي عاش خلال فترة أسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧م) للأخلاقيات الطبيـة للطـب التقليدي الصيني متوافقـا مع مفهوم النزوع إلى الخير الكونفوشـي، حيث قال: "عندما يعالج الأطباء مرضا يجب أن يكونوا معتدلين وعطوفين، وملتزمين تماما لإنقاذ الناس جميعـا مـن المعاناة دون التفكير في مكاسـب شـخصية. عليهم أن يعتبـروا كل من يأتون إليهم طلبـا للمعونة كأفراد من أسـرهم، سـواء كانوا أغنياء أو فقراء، صغـارا أو كبارا، ذوي جمال أو قبح، صينيين أو أجانب. على الطبيب أن لا يتردد في التصرف واتخاذ اللازم (لعلاج المرض)، حتى وإن خشـي على سـلامته الذاتية، عليه أن يسـتجيب لآلام الآخرين كما لو كانت آلامه هو. لا يمنعه من مسـاعدة الآخرين مسـاعدة قلبية، خطر أو جوف ليل، برد أو حر، جوع أو عطش أو تعب. على الطبيب أن يعالج مرضاه على أتم وجه وبإخلاص عظيم وبأعمق مشاعر. وأولئك الذين لا يفعلون ذلك ليسوا أكثر من لصوص".

وقـد أفـرز قانون الأخلاقيـات الطبية للطـب التقليـدي الصيني، معتمـدا على مفهوم النـزوع إلـى الخير، شـعورا عميقـا بالمسـؤولية الاجتماعية لـدى أطباء الصيـن القديمة. وعرفـت الصيـن في تاريخهـا ظاهرة "الأطبـاء الكونفوشـيين"، الذين كانـوا متضلعين في كل من الفلسـفة والطب. وكان بعضهم في الأصل علماء كونفوشـيين أصبحوا أطباء وكان البعض الآخر أطباء متمرسين أصبحوا في النهاية علماء كونفوشيين.

وقـد برزت ظاهرة الطبيب الكونفوشـي بفضـل التناظر بين وظيفـة الطب في مداواة النـاس ووظيفـة الكونفوشـية فـي تنظيـم الدولـة. وقـد اعتبـر العديـد مـن الكونفوشـيين التقدميين أن ممارسـة الطب لا يسـبقها في الفضل إلا العمل في الحكومة. هذا التقدير العالـي للطـب وفـر السـياق التاريخـي والاجتماعي الـلازم لظهـور عدد كبير مـن الأطباء

الكونفوشيين. وقد جاء في قول صيني قديم: "إن لم تستطع أن تصبح رئيس وزراء مرموقا اجتهد لتكون طبيبا" وكان يُعلق في عيادات الأطباء لوحات مكتوب عليها يي شيانغ (مساو لرئيس الوزراء)، أي أن مساهمة الطبيب للمجتمع تضارع مساهمة أعلى مسؤول حكومي، وهو ما يشير على نحو أكثر إلى العلاقة الوثيقة بين الحكم والطب.

●●●

كان من تعاليم كونفوشيوس أنه من الضروري السعي إلى تحقيق التوازن والانسجام عند حل النزاع، وهي الفلسفة المعروفة باسم مبدأ التوسط. وقد اعتقد كونفوشيوس أن لكل ظاهرة وجهين متعارضين يوجدان في حالة من التوازن النسبي، ومبدأ التوازن والتناغم موجود في كافة أوجه الطب التقليدي الصيني؛ من أسسه النظرية إلى مبادئه الفلسفية وعلم الأمراض وعلم نشوء الأمراض والعلاج والوقاية من المرض. فوفقا للطب التقليدي الصيني، جسم الإنسان عبارة عن نظام متكامل يتكون من أعضاء ووظائف متداخلة عديدة تعمل معا في تناغم. عندما يضطرب التوازن في هذا النظام يظهر المرض والخلل. ويتعامل الطب التقليدي الصيني مع المرض بتحليل الأعراض أولا لتقدير مرحلة ودرجة عدم التوازن. بهذه الطريقة، يمكن تحديد طبيعة المرض ثم استخدام السبل المناسبة لاستعادة التوازن. هذه العملية من التشخيص والعلاج، والتي تسمى تحديد النموذج أو النمط، تعتبر عملية محورية في الطب التقليدي الصيني. وعندما يحقق جسم الإنسان حالة من التوازن والتناغم تكون النتيجة صحة جيدة.

وفقا للفلسفة الصينية التقليدية والفكر الكونفوشي، يتكون الكون من عناصر لا حصر لها. وتكون العلاقة بين هذه العناصر دائمة التغير وتدير سلسلة من الصراع والتعاون. ولكن الظاهرة الطبيعية تكون مستقرة بشكل عام، وموجودة في حالة من التوازن النسبي تُعرف باسم التناغم والاندماج. ويعكس السعي إلى التناغم والاندماج الاعتماد المتبادل لكل الظواهر المادية وغير المادية، حيث تتجمع العناصر المتنازعة لتجعل الشكل والوظيفة في أكمل صورة.

●●●

ومن المجالات الأخرى التي تأثرت بالفكر الكونفوشي مجال العمارة الصينية. فالمبادئ الأساسية للكونفوشية، وهي الولاء، طاعة الأهل، الوحدة الأخلاقية، الاستقامة، السلطة المطلقة للحاكم على المحكوم، الوالد على الابن، الزوج على الزوجة، حب الخير، الاستقامة، كانت منظومة مقننة من القواعد سيطرت على العلاقات البينية في المجتمع الصيني الإقطاعي وكان هدفها الأساسي هو الحفاظ على النظام الاجتماعي الهرمي في الصين الإقطاعية وصيانته. وتتجسد تلك المبادئ بشكل واضح في العمارة الصينية القديمة، ولعل أبرز نموذج لذلك هو المدينة المحرمة في بكين؛ فهذا المجمع الإمبراطوري الهائل يجسد بوضوح تأكيد كونفوشيوس على التقسيم الصارم للمكانة وموقع الفرد داخل منظومة السلسلة الهرمية.

وتقول السجلات الصينية إن المدينة المحرمة صممها المهندس كواي شيانغ، الذي عاش من عام ١٣٩٧ حتى عام ١٤٨١م في زمن أسرة مينغ الإمبراطورية (١٣٦٨ – ١٦٤٤م)، والمدينة المحرمة، التي تسمى أيضا بالقصر الإمبراطوري هي أكبر مجمع بنايات خشبية في العالم.

كانت المدينة المحرمة مقر الإقامة الإمبراطوري ومقر الحكومة لأربعة وعشرين إمبراطورا في فترتي أسرة مينغ وأسرة تشينغ من عام ١٣٦٨ حتى عام ١٩١١م. يتضمن هذا المجمع قاعات تشريفية، مكاتب حكومية ومساكن للخدم والعاملين، وكذلك قصورا وأفنية لمعيشة وعبادة ودراسة وتسلية أفراد الأسرة الإمبراطورية. تغطي المدينة المحرمة مساحة ٧٢٠ ألف متر مربع، وتشتمل على ٩٩٩٩ غرفة، وهذا الرقم له مغزى، حيث ساد الاعتقاد قديما في الصين بأن قصر إمبراطور السماء مكون من عشرة آلاف غرفة تمثل الكمال تماما، ولما كان إمبراطور الصين يعتبر نفسه ابن السماء فإن قصره كان من الضروري أن يكون أقل من قصر إمبراطور السماء، فهو يكاد يقترب من الكمال ولكنه لا يصله. ومازال الرقم تسعة عند الصينيين رقما مباركا يحمل معنى الاقتراب من الكمال. وأذكر أنه عندما زار الرئيس المصري حسني مبارك الصين في نوفمبر عام ٢٠٠٦، قال له القادة الصينيون الذين التقى بهم إن هذه زيارة مباركة لأنها تحمل الرقم تسعة، كونها

تاسع زيارة لمبارك إلى الصين وعندما سمع الصحفيون المصريون المرافقون للسيد الرئيس هذا القول راحوا يفكرون ويتساءلون، وعندما حاولت أن أشرح لواحدة منهم مغزى العبارة، كان من الصعب عليها أن تستوعب شيئا مما أقول، وبدت غير مقتنعة بالرواية التي وراء الرقم تسعة، وقد أدركت من ذلك كم هو صعب على غير المطلع على الثقافة الصينية أن يفهم ويدرك دلالاتها ورموزها.

المدينة المحرمة التي عمل في إنشائها ثلاثمائة ألف فرد لمدة أربعة عشر عاما تجسد العلاقة بين الحاكم والمسؤول، وبين الزوج والزوجة، وبين الزوجة الأساسية والمحظية.

كان الإمبراطور يدبر الشؤون الرسمية لإمبراطوريته في منطقة أمام مجمع المدينة المحرمة، ويقيم الاحتفالات ويقابل المسؤولين في ثلاث قاعات كبيرة مشيدة على منصة مرتفعة تمتد من الجنوب إلى الشمال، على طول المحور المركزي للمدينة المحرمة. أهمية هذا البناء، وكذلك موقعه المركزي كانت تعبيرا عن الاحترام للسلطة الإمبراطورية. وخلف القاعات الرئيسية الثلاث كانت مقار الإقامة الإمبراطورية للإمبراطور والإمبراطورة، زوجته الرئيسية، وعدد كبير من الأفنية الإضافية. هذا التصميم كان تعبيرا عن المفهوم الكونفوشي بأن "العام في الأمام، والخاص في الخلف". و كانت الإمبراطورة فقط، كونها الزوجة الرسمية للإمبراطور، لها مسكن على المحور المركزي للمدينة المحرمة، بينما كانت مساكن محظيات الإمبراطور تقع في اثنى عشر فناء شرقي وغربي الخط المركزي. كان هذا الترتيب تمثيلا حيا للمكانة العليا للزوجة الأساسية في علاقتها مع المحظيات. وقد سميت العديد من قصور وقاعات المدينة المحرمة وفقا للمبادئ الأخلاقية الكونفوشية، مثل حب الخير، الانسجام، المركز، السلام. وأسماء مثل تيان آن من (بوابة السلام السماوي) وقاعة الانسجام السامي.

●●●

والنمـوذج الآخر لتأثير الفكر الكونفوشـي في نمـط العمارة الصيني هو بيوت الأفنية، أو مـا يسـمى بالصينيـة سـي خه يـوان، أي الدار الرباعيـة، التي تضع فـوارق صارمة بين الداخل والخارج، الرفيع المنزلة والأقل منزلة، الذكر والأنثى.

فـي فـن العمـارة الصيني التقليدي، المركز هو الأسـمى والجوانب هـي الأدنى منزلة، والشـمال يفـوق الجنـوب الـذي هـو أدنى منزلـة، والشـمال يفـوق اليمين، الذي هـو أدنى منزلـة، والأمـام يفـوق الخلف، الذي هـو أدنى منزلة. في بيـوت الأفنية، الجناح الشـمالي هو المرغوب أكثر، لأنه يواجه الجنوب ويتلقى معظم أشـعة الشـمس. القاعة الوسطى في الجنـاح الشـمالي، كونها الموقـع الأعلى قيمة، تكون قاعة الاسـتقبال أو قاعة الأسـلاف. والغرف الشرقية بالجناح الشمالي هي مسكن الأجداد والجدات، والغرف الغربية يسكنها عميـد العائلة. الجناحان الشـرقي والغربي هما مسـاكن الجيل الأصغـر. كان الابن الأكبر وأسـرته يسكنون بالجناح الشرقي، والأبناء الأصغر وأسـرهم يسكنون في الجناح الغربي. وكان الجنـاح الجنوبـي غرفـا للضيـوف والدراسـة والمطابـخ والمخـازن. وكان المدخـل الرئيسـي والغـرف العامـة في الجناح الجنوبـي تُفصل عن الفناء الداخلـي بجدار له بوابة مزخرفـة، تعـزل الغرف الداخلية عن النظر من الخارج. لم يكن مسـموحا للنسـاء بمغادرة الفناء الداخلي، ولم يكن يسـمح للضيوف بالدخول إليه. وكانت التجمعات السـكنية الأكبر تشـتمل علـى أفنية فرعية وبنايات تسـتخدم لسُـكنى غير المتزوجين من الأبنـاء والبنات، أو لأغـراض متعـددة أخرى. وتكون نوافذ الغرف مفتوحة كلها على الفناء الداخلي. وكانت الحوائط الحاجزة توضع داخل البوابة الرئيسـية والأبواب، لمنع الرؤية من الخارج. كانت الحيـاة داخـل الفنـاء عالمـا محتـوى ذاتيا يؤكـد على الاختلاف فـي المكانة بيـن الأجيال القديمـة والأجيـال الجديـدة وبيـن الرجال والنسـاء، وهـي كلهـا تطبيقات صارمـة للفكر الكونفوشي.

●●●

الطاوية

بعد الكونفوشية تأتي المدرسة الطاوية في الفكر التي تقوم على مفهوم الطاو، أي السراط، كثاني أهم مدرسة فكرية تأثيرا في الصينيين. أسس الطاوية المفكر الصيني لاو دان لي الذي اشتهر باسم لاو تسي، وطور هذا الفكر الفيلسوف الصيني تشوانغ تسي (٣٦٩ق.م - ٢٨٦ ق.م). ولم تذكر المصادر التاريخية تاريخ ميلاد ووفاة لاو تسي الذي ظهر قبل كونفوشيوس بفترة قليلة في مملكة تشو في أواخر عصر الربيع والخريف (٧٧٠ - ٤٧٦ ق م). كان لاو تسي مسؤولا عن إدارة الكتب والمحفوظات لأسرة تشو الملكية، وكان ذا معرفة واسعة. ويقال إن كونفوشيوس زاره في شبابه ليتعلم منه الطقوس والشعائر وقواعد الأدب والسلوك لأسرة تشو. ومع اضمحلال الأوضاع في بلاط تشو قرر لاو تسي مغادرة العاصمة لويانغ، وعندما وصل ممر هانقو كان أتم كتابه "الأخلاق". الفترة التالية لذلك تبدو المصادر الصينية فيها مضطربة، فيذكر بعضها أنه خرج من الممر على ظهر بقرة "خضراء" ولم يعلم أحد وجهته. وقال البعض إنه عاش ستين عاما في حين ذهب آخرون إلى أنه عاش مائتي عام.

شرح لاو تسي في كتاب الأخلاق قوانين التحول، فكل شيء قابل للتغير من النقيض إلى النقيض. وتعارض الطاوية الأحكام الصارمة وتدعو إلى أن يساير كل شيء الطبيعة؛ غايتها السياسية هي أن تكون أفكار الإنسان بسيطة ويعيش حياة بسيطة، وتدعو إلى العودة إلى الطبيعة وتؤكد على الحرية الشخصية المطلقة. وكانت أفكار الطاوية جزءا مكملا للكونفوشية في كثير من المجالات، وتأثر المثقفون الصينيون بدعوتها إلى العودة إلى الطبيعة كثيرا، فكانوا يلوذون بالأنهار والجبال إذا لم تتحقق طموحاتهم السياسية. وتؤكد الطاوية على القيم الفردية وعلى مكان الفرد في المجتمع، ولهذا فإن إدوارد هـ. كرين، مؤسس ورئيس مؤسسة كاتو CATO الأمريكية لبحوث السياسات، يعتبر لاو تسي أحد أهم دعاة المجتمع المدني في تاريخ العالم. وهذا العالم الأمريكي الذي أنشأ مؤسسته عام ١٩٧٧ وأخذ اسمها من رسائل كاتو، التي وضعت الأسس الفلسفية للثورة الأمريكية، يستشهد بتعاليم لاو تسي باعتبارها أسسا فلسفية صُلبة للمجتمع المدني،

حيث يقول فيلسوف الطاوية الصيني في كتابه "داو ده جينغ" (الأخلاق)، دع القانون، يصبح الناس أمناء مخلصون، دع الاقتصاد، يصبح الناس في رخاء، دع الدين، يصير الناس ساكنون هادئون، دع الرغبات لكل الخير العام يصبح الخير مثل العشب. وقال أيضا: "عندما تكون الضرائب عالية يجوع الشعب، وعندما تتدخل الحكومة يفقد الشعب روحه. اعمل من أجل مصلحة الشعب، ثق بهم واتركهم وحالهم كثيرا". لقد تحدث لاو تسي كثيرا عن تفوق المجتمع المدني على المجتمع السياسي، في وقت كانت الحكومة هي المسيطرة على كل شيء.

كانت فترة أسرة هان الأخيرة، قبل وبعد سنة ٢٠٠ م، فترة حروب طويلة وأمراض متفشية. وقد أدى الفوران الاجتماعي بمثقفي ذلك الزمان إلى طرح مزيد من الأسئلة العميقة حول معنى الحياة والوجود. وكان النظام الإقطاعي في حالة من الاضطراب، مما أدى إلى ضعف النظام الأخلاقي الكونفوشيي الهرمي، ونتيجة لهذه الظروف، أصبحت الفلسفة الطاوية، بتأكيدها على الأخلاق الفردية، أكثر تأثيرا من غيرها. وفي زمن أسرة جين الإمبراطورية (٢٦٦ – ٤٢٠ م) كانت الطاوية تطرح نفسها على نحو متزايد كبديل قوي للكونفوشية، وفي فترة وي- جين (٢٢٠ - ٤٢٠ م)، بلغت الطاوية أوج ازدهارها في المجتمع الصيني.

ومثلما أثرت الكونفوشية في حياة الصينيين وثقافتهم تركت الطاوية بصماتها الواضحة على المجتمع الصيني، ويتجلى ذلك في عدة مجالات نذكر منها هنا مجال الطب والدواء والصحة ومجال العمارة في الصين.

●●●

على الرغم من أن أصول الطاوية ترجع إلى نفس الفترة من التاريخ الصيني مثل الكونفوشية، فإن هناك اختلافات كثيرة بين الفلسفتين. وكانت أفكار الطاوية حول الصحة والحياة أكثر تأثيرا في الطب التقليدي الصيني من أفكار الكونفوشية. وقد أخذ كتاب هوانغدي نيجينغ (كتاب الإمبراطور الأصفر في الطب الداخلي)، من العديد من

المدارس الفلسفية لفترة ما قبل تشين (قبل وحتى عام ٢٠٧ ق.م) ومن الفلسفة الطاوية.

حسب لاو تسي، الطاو (السراط) هو مصدر الكون وكل القوانين الطبيعية. وقد طبق كتاب نيجينغ هذا المفهوم على العديد من مفاهيم الطب التقليدي الصيني، فنظرية ين ويانغ التي يشار إليها بأنها طاو ين ويانغ تشرح الخصائص والطبيعة المتحولة لكل الأشياء. طاو الهدم، طاو الحماية، طاو الصعود وطاو الهبوط، وتصف دوران المادة الحيوية، التي تسمى تشي، في الجسم. ويتناول طاو الإبر أساليب الوخز بالإبر. وحسب نيجينغ، على الرغم من عدم إمكانية إدراك الطاو حسيا مباشرة فإنه موجود في كل شيء، من عالم السماء والأرض الكبير، إلى "عالم العشرة آلاف شيء" التي تسكن الكون، فلا يوجد شيء لا يخضع لسيطرته، ووظائف الجسم وأمراضه ليست استثناء. وفهم الطاو هو الإمساك بمصدر الحياة، ومن ثم إجادة الوقاية من المرض وعلاجه.

لقد دافع لاو تسي عن قواعد "الصفاء وعدم الفعل" السلوكية و"دع الطبيعة تأخذ مجراها". وقال إنه بقبول جريان الطبيعة واحترام قوانينها الموضوعية يصبح من الممكن فهم التحولات الطبيعية للسماء والأرض. وقد طور تشوانغ تسي أفكار لاو تسي أكثر بالقول: إن الناس يجب أن يتفقوا مع قوانين التحولات الطبيعية، ولا ينبغي التدخل في، أو تغيير، الطبيعة إلى حد مفرط. واعتقد أن الإنسان غير منفصل عن السماء والأرض، فكل هذه الأشياء كيان واحد. وقد أدى هذا إلى دعوة الطاوية إلى أسلوب حياة حر غير مقيد بالأعراف الاجتماعية. وقد بلور كتاب نيجينغ جوهر الطاوية في مفهوم "وحدة الإنسان والطبيعة"، إذ يعتبر نيجينغ الإنسان والطبيعة كُلا موحدا، ويدعو إلى الحياة وفقا لقانون الطبيعة بالقول:"إن الناس ولدوا من طاقة السماء والأرض والطبيعة وفقا لتتابع الفصول الأربعة، كما أن الإنسان والطبيعة هما انعكاسات لصورة مصغرة وصورة مكبرة لنفس الهيكل الكوني، حيث أن "السماء مستديرة والأرض مربعة، ورأس الإنسان مستديرة وقدمه مربعة. السماء بها الشمس والقمر، والإنسان له عينان. الأرض بها الكتل الترابية التسع، والإنسان لديه الفتحات التسع. السماء بها الرياح والمطر، والإنسان لديه الحب والغضب. السماء بها الرعد، والإنسان لديه الموسيقى...السماء بها يانغ وين والإنسان

منـه الذكـر والأنثى. السـماء بها ٣٦٥ يوما، والإنسـان به ٣٦٥ نقطة وخز. ويفسـر نيجينغ المبدأ المنظم لكل ذلك بأنه، "فوق توجد السـماء، وأسـفل توجد الأرض، وفي المنتصف يوجد الإنسان". ويعتبر مفهوم أن الإنسان والطبيعة يشكلان كلا موحدا، أي منهما يجسد الكُل وتحكمه نفس القوانين، المساهمة الأساسية للطاوية في الطب التقليدي الصيني.

وقد قدمت الطاوية مفهوم تشـي باعتباره أصل الخلق وأسـاس الحياة، وهو ما أوجد طريقـة لتفسـير غموض ولادة الإنسـان وشـيخوخته ومرضـه وموته. وقد كان قوان تسـي (؟- ٥٤٦ ق.م)، أول فيلسوف طاوي طبق مفهوم تشي على مسائل حياة الإنسان وفلسفته، والعلاقة بين الهيئة والروح. وعلى الرغم من أن أفكار قوان تسـي تضمنت قدرا معينا من الحـدس، فإنهـا فتحت مجالا جديـدا للفكر وكان لها تأثير عظيم علـى المجتمع الصيني. وبعد مئات السـنين توسـع تشـوانغ تسـي في التعاليم حول الطاو، متمسـكا بأن تشـي هو المكون الأساسي الذي تتشكل منه كل الأشياء في الكون.

تؤكـد تعاليـم الطاويـة في تشـي علـى أن تشـي، أي الطاقـة الحيوية غيـر المرئية في الجسـم، متحـرك بـدون توقف ومتحول إلى ما لانهاية. يدور تشـي علـى نحو متواصل في الجسـم في شـبكة من المسـارات، المرتبطة ببعضها ويصنف على أنه صاعد (من أسـفل لأعلـى)، هابط (من أعلى لأسـفل)، داخل (مـن الخارج إلى الداخل)، وخـارج (من الداخل إلـى الخارج). فـي الظروف العادية يحافظ دوران تشـي الصاعد والهابط وتشـي الداخل والخارج على توازن نسبي. وتفرز الحركة التحولية لتشي وهو يتحرك في الجسم تغيرات فسيولوجية متواصلة. وقد اندمج مفهوم تشي في الطب التقليدي، إذ يؤكد الطب التقليدي الصيني على أن تشي يظهر في الجسم بالطرق التالية:

تشـي هـو قوة الحياة الأساسـية لجسـم الإنسـان، وهناك عدة أنواع من تشـي. تشـي المتجانـس الـذي يُورث مـن الوالدين، ويوجد في الجنين قبل الولادة. بعد الولادة تسـحب الرئتـان تشـي الأصلـي مـن الهـواء، بينما يفـرز الطحـال والمعدة تشـي المُكتسـب؛ وهما المسؤولان عن تحويل الغذاء. يُنتج تفاعل تشي المتجانس وتشي الأصلي وتشي المكتسب

تشـي الجوهـر ويحافظ عليه، ويدفع تشـي الجوهري الوظائف الماديـة والحيوية لأعضاء تشانغ وفو، ويقصد بها الأعضاء الحسية والقنوات الوهمية والدم والسوائل. ويتحكم القلب في ضخ الدم وتسـيطر الرئتان على استنشـاق الهواء، في حين يتحكم الطحال في التحول وتتحكم المعدة في توظيف تشـي المكتسـب، وتعتبر الكليتان مقعد تشي المتجانس، بينما يتحكم الكبد في صرف تشـي. وعلى هذا فإن تشـي هو القوة الحيوية التي تدفع كل هذه العمليات الفسـيولوجية. وعندما يكون تشـي كافيا تعمل وظائف الجسـم الحيوية طبيعيا، وعندما يكون غير كاف تضعف الوظائف الفسـيولوجية للجسـم، وهو ما ينتج عنه حالات نقص تشي العامة أو في موضع محدد، وهي حالات مرضية تُعالج عن طريق إكمال تشي.

وحسـب الطـب التقليـدي الصينـي، ينبغـي أن تكـون حركة تشـي في الجسـم متوازنة وغير معاقة. وكما هو الحال في العالم الطبيعي، يتدفق تشـي في جسـم الإنسان في نمط صاعد وهابط، داخلا وخارجا. عندما تكون حركة تشي في حالة من التوازن النسبي يعمل الجسم طبيعيا، وعندما يحدث فيها خلل تظهر الأمراض بطرق متعددة. على سبيل المثال، عندما يتغلب تشـي الصاعد على تشـي الهابط، تظهر حالة تسمى التدفق العكسي لتشي، وعندما يتغلب تشـي الهابط على تشـي الصاعد تظهر حالة تسـمى سـقوط تشي. حالات التدفق العكسـي لتشـي، التي تكون أعراضها السـعال، الأزمة، التجشـؤ والتقيؤ، تُعالج عن طريق تعزيز تشي الهابط. وحالات سقوط تشي، مثل هبوط الشرج أو الأعضاء الداخلية، تُعالج بطرق تعزيز تشـي الصاعد. ويكون الغرض من ذلك العلاج هو تطبيع دينامية تشـي واسـتعادة التوازن النسـبي بين تشـي الصاعد وتشـي الهابط، وبين تشـي الداخل وتشـي الخارج.

عندما لا يُعاق دوران تشـي، يتدفق الدم والسـوائل بسلاسـة ويكون الجسـم في حالة صحة كاملة. ولكن عندما يعاق تدفق تشـي، تسـمى الحالة الناتجة ركود تشـي، وتظهر في أعـراض تشـمل الـزكام والانتفـاخ، أو الألم. ويعالج ركود تشـي بحفز تدفق تشـي من أجل اسـتعادة تدفقـه الحـر. وقد يؤدي ركود تشـي المتواصل إلى حدوث حـالات اللوكيميا، أي سرطان الدم وتراكم وتوقف السوائل. هذه الحالات تعالج بحفز تدفق تشي والدم لتحويل الركود والبلغم وإخراج الفضلات.

وحيث أن الطاوية تؤكد على أن تشي هو مصدر قوة الحياة والأساس المادي للحياة، تطورت الممارسة الكلاسيكية الطاوية المعروفة باسم طاوين (أساليب إدارة تشي) خصيصا لتهذيب تشي، ومن ثم تحقيق العمر المديد. وتجمع أساليب طاوين بين تمارين التنفس، بما فيها تونا (الشهيق والزفير)، فوتشي (استقبال تشي)، تايشي (التنفس الجنيني)، وتياوتشي (التنفس المنتظم) تجمعها مع الحركة البدنية لحفز وإدارة تشي وتغذية الجسم والروح وتعزيز الصحة والعمر المديد.

وقد دمج الطب التقليدي الصيني أساليب طاوين لإدارة تشي في الممارسة الإكلينيكية. وفقا لكتاب نيجينغ، الشلل والبرد والحمى الناتجة عن النظام الغذائي غير السليم والخمول كانت أمراضا مستوطنة في منطقة تشونغيوان بوسط الصين. وكان يتم الحصول على نتائج علاج ممتازة من خلال استخدام أساليب طاوين وأشكال متعددة من التدليك. ويذكر كتاب نيجينغ أيضا طريقة علاجية تسمى شيتشي (تراكم التنفس) التي تجمع بين طب الأعشاب وأساليب طاوين. ويدعو كتاب جينكوي ياو ليويه (الموجز في وصفات الغرفة الذهبية)، الذي ألفه تشانغ تشونغ جينغ إلى علاج حالات الشلل التي تسمى تشونغشيه (ثقل الأطراف) بتركيبة من تمارين تنفس طاوين والوخز بالإبر والتدليك. الهدف النهائي لتمارين تنفس طاوين هو تحقيق "التنفس الجنيني" حيث لا يتم سحب النفس عبر الأنف وإنما يتم امتصاص تشي مباشرة من الكون بنفس الطريقة التي يمتص بها الجنين الطاقة الحيوية من المشيمة وهو في الرحم.

في الطب التقليدي الصيني، تشير الهيئة، أي الشكل، والروح إلى الهيكل البدني والماهية الحيوية لجسم الإنسان والعلاقة بينهما. وفي زمن الربيع والخريف (٧٧٠ – ٢٢١ ق.م) اعترفت الطاوية بأن الهيئة والروح وجهان متكاملان للكل الموحد للطاو. وفقا للفلسفة الطاوية، تظهر الهيئة والروح في ثلاثة مستويات؛ الأول، أن الهيئة قد تُعزى إلى الكون المادي، والروح إلى قوة غامضة تنشطها وتقويها. الثاني، أن الهيئة قد تعزى إلى الأشياء الحية، والروح إلى وظائفها الحيوية. الثالث، أن الهيئة قد تعزى تحديدا إلى جسم الإنسان، بينما تعزى روحه إلى الشعور الإنساني.

وتعتبر الفلسفة الطاوية أن وحدة الهيئة والروح تمثل العلاقة المُثلى بين البدن والشعور. وقال تشوانغ تسي إن هذه الحالة من التوازن يمكن أن تتحقق من خلال التأمل. وقد اعتقد بأنه عندما يكون الجسم منظما والرؤية مركزة يتدفق العطف طبيعيا، وعندما تكون الروح مركزة والأفكار مجمعة تنتج الحكمة. وعندما تتوحد الهيئة والروح يمكن تحقيق الطاو. وقد طبقت الطاوية أساليب التأمل على العمليات الفلسفية. وقد أُعتقد بأن زيادة حفز البصر والسمع من خلال التأمل يعزز الصفاء ويقلل الإجهاد وهو ما يؤدي إلى صحة جيدة. وعندما يتم الوصول إلى حالة اللا رؤية واللا سمع واللا تفكير من خلال التأمل يكون البدن والروح متناغمين، وهذا يطيل العمر. وتؤكد الطاوية على أنه من أجل أن تعيش في توافق مع قانون الطبيعة ينبغي أن تكون الهيئة والروح متوافقتين. ويكون تشي الفصلي المتقطع والحفز بواسطة المشاعر السبعة ضارة بالجسم وينبغي تجنبها، وكذلك تجنب الممارسات التي تعارض الطبيعة أو تستنفد الروح.

●●●

ويؤكد الطب التقليدي الصيني على أنه عندما يتطور جسم الإنسان (الهيئة) إلى نقطة معينة، فإن قوة الحياة (الروح) تنشطه وتقويه طبيعيا. وتحتاج الروح إلى أساس بدني ولا يمكن أن توجد عندما لا تكون الهيئة مكتملة. إن الحياة هي التجلي للروح داخل الهيئة. ومع تقدم عمر الإنسان أو مرضه بشدة يضعف البدن تدريجيا وتنحسر قوة الحياة وفي النهاية تغادر البدن وتؤدي إلى الوفاة. ويلخص كتاب نيجينغ الاعتماد المتبادل والتداخل بين الهيئة والروح مقررا بأنه عندما تكون الهيئة مكتملة تعيش الروح وعندما تغادر الروح تموت الهيئة.

كما يؤكد الطب التقليدي الصيني على أن القلب هو مقعد العقل، يسيطر على الجسم ويتحكم في وظائف أعضاء تشانغ وفو، التي هي أعضاء الحس والفتحات والأطراف والهيكل العظمي. ومن ثم فإنه من المهم للغاية تغذية القلب وتنظيم العقل. وحالة العقل لها تأثير هائل على الصحة البدنية. وتعتبر حالة العقل غير الصحية ضارة، بشكل خاص،

للأعضاء الداخلية. ووفقا للطب التقليدي الصيني، الغضب يتلف الكبد، الابتهاج الشديد يتلف القلب، الاكتئاب يتلف البنكرياس، الحزن يتلف الرئتين والخوف يتلف الكليتين.

كيف يمكن تغذية وتنظيم العقل والقلب؟

أولا، يأخذ الطب التقليدي الصيني من أساليب التأمل الطاوية لتركيز العقل. وهنا فإن التخلص من الابتهاج المفرط وتهدئة القلب وتركيز الوعي يمكّن تشي من الدوران طبيعيا وطرد الأمراض وتقوية الصحة وإطالة العمر. على العكس، إذا كان القلب والعقل ممتلئين بالاضطراب يتخرب التوازن الداخلي للجسم وهو ما يسفر عن تأثيرات ضارة بالصحة؛

ثانيا، يؤكد الطب التقليدي الصيني على تحقيق صفاء الروح، فالسعادة المعتدلة والنظرة المستقبلية الإيجابية تعزز دروان تشي والدم وهو ما يفيد الصحة؛

ثالثا، يجب الحفاظ على التوازن بين ين ويانغ، فالمشاعر المتطرفة يمكن أن تخرب هذا التوازن في الجسم وتتلف الصحة. والعقل المُركز هو الأساس الذي يجعل من الممكن تحقيق صفاء الروح والتوازن بين ين ويانغ. عندما يكون العقل مُركزا والمشاعر معتدلة تكون الروح صافية.

يجمع كتاب نيجينغ المتأثر بالطاوية فهما للفلسفة الإنسانية مع مفهوم أن الهيئة والروح بينهما اعتماد متبادل وتداخل. ويؤكد على أنه من أجل تعزيز قوة الحياة وتحقيق الصحة وطول العمر من الضروري تهذيب الروح والحفاظ على الجسم الذي تسكنه.

.....

المجال الآخر لتأثير الطاوية في الصين هو فن عمارة وبناء الحدائق. وكما أشرنا سابقا، المنشآت الهامة في الصين تكون في المركز، بشكل عام، كرمز للاحترام، وتكون المنشآت الثانوية على الجانبين. ومن ثم تخطط معظم المنشآت الصينية التقليدية على محور من الشمال إلى الجنوب، مع وجود بنايتين متناظرتين على كل جانب، بشكل

يعكس التأكيد الكونفوشـي على النظام والتناظر، كما رأينا في استعراض تصميم المدينة المحرمـة، وتصميـم البيـوت الرباعيـة، سـي خه يـوان. غيـر أن الطاوية، التـي تؤكد على الحريـة الفردية كان تأثيرها الواضح ليس في منشـآت الإقامـة وإنما في الحدائق، ولهذا فـإن الحديقـة فـي الصيـن القديمـة تعبر خير تعبيـر عن قيم التحـول والحيويـة والعفوية الطاويـة، وقد نشـأت الحدائق الصينيـة في زمن كان فيه الفكر الطـاوي، الذي يؤكد على الحرية والعفوية، متزايد التأثير.

فـي نهاية أسـرة جيـن الغربية (٢٦٦ – ٣١٦م)، فر معظم نبـلاء الصين إلى جنوب نهر تشـانغجيانغ (اليانغتسـي) هربا من الحروب. ونتيجة لذلك، باتت المنطقة تدريجيا مركز الصين الثقافي الجديد. وهاجر أيضا العديد من المسؤولين والمثقفين إلى الجنوب خشية التـورط في حكومات فاسـدة، واسـتقروا بين الجبـال والأنهار الجميلة فـي تلك المنطقة. وقد شـهدت تلك الفترة من تاريخ الصين بزوغ العديد من مدارس "شـعر وصف الطبيعة"، والحدائق المصممة لإعادة إنتاج جمال الطبيعة داخل أفنية البيوت الخاصة.

وتمثـل الحدائـق الصينيـة المزج بين مقـر الإقامة مع النقاهة، حيـث ارتبط تطور فن العمارة الطبيعي (بمعنى إبراز الطبيعة) ارتباطا وثيقا بمفهوم الطاوية القائل بالانعتاق من المجتمع والعودة إلى الطبيعة. وقد وظفت الحدائق الجنوبية بإبداع التدفق والتكوين لخلق جمال الطبيعة في منمنات بالغة الدقة والتعبير.

الحدائق الصينية الخاصة تجسد دمج المسكن مع النقاهة، على نحو يتيح الاستمتاع بالطبيعة في صورة مصغرة. وحدائق جنوب الصين على نحو خاص صممت بدقة لتوظيف المسـاحة المحـدودة وإبـداع سلسـلة مـن البيئـات المختلفـة والمرتبطة عضويـا في ذات الوقت. وعلى سـبيل المثال، حديقة وانغشـي في سوتشـو تغطي مساحة ٥٤٠٠ متر مربع، ولكن داخل هذه المنطقة الصغيرة نسبيا، سلسلة من المساحات والمشاهد الجميلة التي يـؤدي الواحـد منها إلـى الآخر في تدفق طبيعـي للألوان والتباين والترتيـب. وهكذا كانت الحدائق الصينية انعكاسـا للرغبة الطاوية في الانعتاق من المجتمع والعودة إلى الطبيعة.

وكان العديد من بناة وأصحاب تلك الحدائق مسؤولين سابقين تركوا الحكومة من أجل حياة الفن والدراسة، أو تجارا أثرياء فروا من صخب وضجيج المدن.

وتؤكد الطاوية على حاجة الإنسان للعيش في تناغم مع الطبيعة. وقد أدى مبدأ "وحدة السماء والبشر"، الطاوي إلى ظهور الاحترام الصيني التقليدي للطبيعة والرغبة في إعادة إبداع الطبيعة في الفن. وتُعد الحدائق الصينية التي تدمج الجمال الطبيعي والعمل الفني الرائع للإنسان، التجسيد المعماري لوحدة السماء والبشر. وبتأثير من هذه الفلسفة جمعت الحدائق الصينية عضويا بين فن العمارة والطبيعة والمسطحات الخضراء، مستخدمة الطبيعة لإعادة إبداع الطبيعة داخل مساحة محدودة.

وعندما تطورت الفلسفة الطاوية إلى نظام عقيدة ديني، كان للأساطير الطاوية تأثير رئيسي على تصميم الحدائق، ومن أبرزها مقولة الطاوية "مياه واحدة وثلاثة جبال"، فوفقا لتلك لأسطورة الطاوية، يمكن الوصول إلى الخلود بزيارة جبل بنغلاي وجبل فانغتشانغ وجبل ينغتشو، وهي الجبال الثلاثة المقدسة للبحر الشرقي للطاوية. وتأسيسا على أسطورة الجبال الثلاثة صممت العديد من الحدائق لتشتمل على ثلاث جزر داخل هيكل من الماء. وعلى سبيل المثال فإن القصر الصيفي الذي يسمى بالصينية إيخهيوان، في بكين مبني حول بحيرة تحمل اسم كونغمينغ وبها جزر ثلاث ترتفع في كل منها مقصورة، تماما مثلما تقول أسطورة الجبال الثلاثة الطاوية.

إنه فكر لم يبق حبيس الكتب بل تجسد وتغلغل في نسيج حياة الصيني، مأكله ومشربه ومسكنه وحدائقه وطبه، وسياسته واقتصاده.

●●●

فكر متدفق لا يعرف القطيعة مع الماضي

الصين حالة نادرة في تاريخ الفكر البشري، إذ لم يعرف العالم منظومة فكرية حافظت على استمرارية لفترة تجاوزت ثلاثة آلاف عام، كما هو الحال بالنسبة للصين. فالصينيون على مدى تاريخ بلادهم الطويل لم يبدلوا لغتهم، ولم يغير الغالبية العظمى

منهـم عقائدهـم، ولا يذكر التاريخ أن الصين خاضت أو شـهدت نزاعا لأسـباب عقائدية، كما أن الاعتقادات الفكرية في الصين ليسـت جامعة مانعة فقد أخذت كل مدرسـة فكرية مـن الأخـرى وأعطتها. وكل فكر أو عقيـدة جاء إلى الصين اتخذ طابعا صينيا، أي تصين، فالصيـن تشـبه صبغـة قويـة لابـد أن يظهـر لونها في أي نسـيج دخيـل، ولهـذا فإنه حتى العقائـد الدينيـة التـي وفـدت إلى الصيـن اصطبغـت بالطابـع الصيني، يسـتوي في ذلك البوذية والإسـلام والمسيحية. وعندما تبنت الصين النهج الشيوعي خلال القرن الماضي صينته بما يتكيف مع تاريخها وثقافتها وظروفها الواقعية.

الفكر في الصين ليس مجرد نظريات حبيسة أوراق الكتب ومعاهد البحث وإنما منهج وطريقـة حيـاة، للدولة وللفرد، فلا شـيء يحدث عبثا من دون أسـس فكرية، وعندما تقرأ أو تسـمع كلمـات وخطب القـادة والمسـؤولين الصينيين على كافة المسـتويات، ونحن في القـرن الحادي والعشـرين، تلاحظ إشـارات متعـددة إلى أفكار وأقوال كونفوشـيوس وإلى المأثـور الفكـري الصيني وإلى أبيات شـعر وأقوال لشـعراء وحكماء الصيـن. ويحرص كل زعيم صيني على أن يضيف إسهاما لرصيد الفكر الصيني، فماو تسي تونغ له أفكاره في بنـاء الاشـتراكية التي مازال يشـير إليهـا قادة اليوم كمرجـع لفكرهم وعملهم، ودنغ شـياو بينغ له نظريته حول بناء اشـتراكية ذات خصائص صينية، وقد صدر في شـهر أغسـطس عـام ٢٠٠٤ مؤلـف ضخم يحمل عنوان "معجم نظرية دنغ شـياو بينـغ" في الصين. وعندما جـاء جيانغ تسـه مين طرح فكرة "التمثيـلات الثلاثة"، وهي أن الحزب الشـيوعي الصيني يمثـل متطلبـات تطور القوى المنتجـة المتقدمة ويمثـل الاتجاه التقدمـي للثقافة الصينية ويمثل المصالح الأساسية للغالبية الساحقة من الشعب الصيني. وهو جين تاو أبدع فكرة الاعتبـارات الثمانيـة ومفهوم التنمية العلمي. وأنا هنا أقتبس جزءا من خطاب للرئيس هو جين تاو ألقاه يوم ٢٢ أغسـطس عام ٢٠٠٤، بمناسـبة مرور مائة عام على مولد دنغ شـياو بينغ. قال رئيس الصين :"إن نظرية دنغ شياو بينغ نظرية علمية للشعب الصيني كي يحقق التحديـث الاشـتراكي ولا بـد للحزب من التمسـك بالأفكار المرشـدة لها زمنـا طويلا. إن أهم ثروة خلفها الرفيق دنغ شـياو بينغ هى نظريته والخط الأساسـي للحزب في المرحلة الأولى للاشتراكية التي وضعت تحت إرشاد تلك النظرية. وإن الشيوعيين المعاصرين في

الصيـن وممثلهم الرئيسـي الرفيق جيانغ تسـه مين قد شـكلوا تدريجيا أفـكار "التمثيلات الثلاثة" المهمة التي أصبحت الخط المرشـد الجوهـري لكل الحزب والبلاد لبناء مجتمع الحياة الرغيدة على نحو شامل في القرن الجديد. وعلينا أن نثابر على تسليح كل الحزب وتثقيـف كل الأمة بنظرية دنغ شـياو بينـغ وأفكار "التمثيلات الثلاثـة" المهمة في كل وقت وفى كل الظروف."

أمـا الاعتبـارات الثمانيـة التي أضافهـا هو جين تاو، فهـي: اعتبار حب الوطن شـرفا واعتبـار الإسـاءة للوطـن عـارا، اعتبار خدمة الشـعب شـرفا واعتبار خيانة الشـعب عارا، اعتبـار السـعي إلى العلم شـرفا واعتبـار الجهل عارا، اعتبـار العمل الجاد شـرفا واعتبار الانغمـاس فـي المتعـة وكره العمل عارا، اعتبار مسـاعدة الآخرين شـرفا واعتبار الكسـب على حساب الآخرين عارا، اعتبار الوفاء والإخلاص شرفا واعتبار التخلي عن الواجب من أجـل المصلحة عارا، اعتبـار الالتزام بالقانون والانضباط شـرفا واعتبار مخالفة القانون والانضباط عارا، اعتبار الكفاح في الحياة والعمل شرفا واعتبار البذخ والمتع عارا.

أما مفهوم التنمية العلمي فهو توارث وتطوير للأفكار الهامة حول التنمية لدى الأجيال الثلاثـة مـن المجموعـة القياديـة للجنة الحزبيـة المركزية، وتجسـيد مركـز لوجهة النظر إلى العالم والميثودولوجيا للماركسـية حول التنمية، ونظرية علمية تنحدر من أصل واحد مـع الماركسـية اللينينية وأفكار ماو تسـى تونغ ونظرية دنغ شـياو بينغ وأفـكار "التمثيلات الثلاثة" الهامة وتتقدم مع العصر، ومبدأ مرشـد هام للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في الصين، وأفكار إسـتراتيجية هامة لا بد من التمسـك بها وتطبيقها في تطوير الاشـتراكية ذات الخصائص الصينية.

إن المضمون الرئيسـي لمفهوم التنمية العلمي هو التنمية، ولبه هو وضع الإنسـان في المقـام الأول، ومطلبـه الرئيسـي هو التنمية المسـتدامة والمتناسـقة الشـاملة ، وأسـلوبه الأساسي هو التخطيط الموحد مع أخذ جميع العوامل بعين الاعتبار.

●●●

وباستعراض الفكر الصيني، منذ البداية وحتى الصين المعاصرة، يمكن أن نرصد عددا من الملاحظات التي ميزت هذا الفكر عن غيره.

أولى تلك الملاحظات هي سعى الفكر الصيني إلى تكريس الاستقرار، فالصيني يضع الاستقرار والأمن في مرتبة أعلى من أي شيء، فإذا خُير بين الاستقرار والحرية، بمعنى الحرية ومدلولها الغربي، يختار الاستقرار. ومقارنة سريعة بين الفكر الغربي والفكر الصيني تكشف عن هذا المعنى، ولهذا فإن الصين ظلت طوال تاريخها الطويل تحت الحكم الإمبراطوري، حتى سنة ١٩١١ م، ولم يتم التفكير في أنظمة سياسية بديلة، وبعد انتهاء الحكم الإمبراطوري خضعت الصين لحكم حزب واحد، هو الكومينتانغ في بداية القرن، ثم الحزب الشيوعي الصيني منذ سنة ١٩٤٩، فالفكرة المسيطرة في الصين هي أنه من أجل فرض النظام يجب وجود سلطة أحادية، ولعل هذا التفسير يريح كثيرا من السائلين والباحثين عن إجابة لسؤال: لماذا الحزب الشيوعي مستمر في قيادة الصين بدون منازع؟. ويعزز من هذا، فكرة الولاء المحورية في الفكر الصيني والتي احتلت قسما عظيما في الفكر الكونفوشي؛ ولاء الصغير للكبير والزوجة للزوج والأبناء للآباء، ثم والأهم ولاء المحكوم للحاكم. غير أن هذا التمسك بالاستقرار والتأكيد على الولاء يقترن بتأكيد آخر يضمن أن لا يشط صاحب الولاء، وذلك من خلال تكريس فكرة صلاح الحاكم وعدله. وقد أكد الفكر الصيني على أهمية الدولة قبل مئات السنين من مقولة مكيافيللي "الغاية تبرر الوسيلة"، والغاية عند مكيافيللي هي الدولة، وقبل ظهور بسمارك بقرون عديدة، فقد دار الحوار التالي بين كونفوشيوس وواحد من حواريه: سأل التلميذ: كيف يجب أن تُحكم الدولة ؟ فأجاب كونفوشوس: مقومات الحكومة هو أن يتوفر طعام كاف، تجهيزات عسكرية كافية، وثقة الشعب في حاكمه. عاد التلميذ وسأل: إن لم يكن من بُد، ويجب الاستغناء عن واحد من تلك، أي منها يجب التخلي عنه أولا؟ قال كونفوشيوس: التجهيزات العسكرية. وسأل التلميذ مرة أخرى: إن لم يكن من بُد، ويجب الاستغناء عن واحد من الاثنين الباقيين، أيهما يجب التخلي عنه أولا؟ قال الحكيم الصيني: جزء من الطعام، فمن قديم الزمان الموت هو قدر كل الناس، ولكن إن لم يكن لدى الشعب

إيمـان بحكامـه، فـلا مبرر لوجـود الدولـة. هذا التأكيـد على الاسـتقرار الـذي يصل إلى حـد التقديـس هـو الذي جعـل الصينييـن قادرين علـى تحمل العديـد من الحـكام الطغاة فـي تاريخهم، وجعلهم أيضا شـديدي الحساسـية تجـاه التدخل الأجنبـي لإيمانهم بأن أي تدخل من الخارج يؤدي إلى زعزعة الاستقرار وإشاعة الفوضى وضياع الأمان، ولهذا فإن موقف الصينيين هو الحذر من التدخل الأجنبي وترك الأمور تسير طبيعيا؛ فمن الأفضل ترك طاغية يسـتبدّ بشـعبه حتى يصل إلى أقصى حدود الطغيان، ليكون هذا الطغيان هو السيف الذي يذبح به نفسه، فهم يؤمنون بأن الشيء إذا زاد عن حده ينقلب إلى ضده.

الملاحظـة الثانية هـي محورية فكرة "التحول" أو التغيـر والتكيف في الفكر الصيني، فهنـاك تأكيـد علـى المرونـة والتحول، فحسـب الفكـر الصيني كل شـيء فـي حالة تحول وتغيـر وكل شـيء يتحـول من الضـد إلى الضـد، فوفقا للمفكريـن الصينييـن، تتكون كافة الظواهـر الطبيعيـة من تجليات متعارضة ولكن متكاملة، وهي موجودة في حالة من التغير المسـتمر للتوازن الحركي. هذه النظرية، التي تسـمى بنظرية ين ويانغ، تُسـتخدم لوصف الأزواج المتقابلة، أو الوجهين المتقابلين لشـيء واحد. ومن أمثلة ذلك، السـماء والأرض، الفاعـل ومتقبـل الفعل، النهـار والليل، الحار والبارد، أو الشـمس والقمـر. وبصورة عامة، يعتبر النشـاط، أي الحركة الصاعدة والتشتت والحرارة والضوء يانغ، بينما يعتبر السكون النسبي والحركة الهابطة والتركز والبرودة والظلام ين. ومن وجهة نظر كونية، يكون تشي السـماوي خفيفـا وواضحـا ومن ثم فإنه يانغ، في حين يكون تشـي الأرضـي ثقيلا وكثيفا، ومـن ثـم فإنـه ين. وفـي الطبيعة، يكون المـاء باردا ورطبـا ومركزا ومن ثم فإنـه ين، بينما النـار تكون سـاخنة وجافة ومنتشـرة ومن ثم فإنها يانغ. فكل شـيء في الكـون يُصنف إلى يـن ويانـغ، ولكـن لكي يكون هذا التحليـل ذا معنى لا بد أن يتعرض لزوج من الأشـياء التي بينهـا علاقـة تكاملية، وعلاقة اعتمـاد متبادل إذ أن ين ويانغ متصلان أساسـيا، ولا يمكن أن يوجد أحدهما بدون الآخر، فكل منهما يوفر للآخر شرط وجوده. إنه التكامل الذي لا بـد منـه والذي يجعل الصيني يؤمن بأن وجـودك مهم لوجوده بنفس قدر أهمية وجوده هو لوجودك أنت. ولعل هذا يفسر حرص الصين على أن تكون بينها وبين"الآخر"، أيا كان هذا

الآخر، وشيجة لا تنقطع. وهذا التكامل يقترن أيضا بتوازن حركي، فوفقا للفكر الصيني، النصيب النسبي لكل من ين ويانغ في أي شيء أو ظاهرة ليس ثابتا، وإنما يوجد في حالة من السيولة الدائمة. وعندما يكون الانحسار والتدفق المتبادل لين ويانغ مستقرا في مدى معين، فإنهما يعتبران في حالة توازن حركي. ومن أمثلة ذلك تعاقب الفصول. في الشتاء يفوق ين يانغ، وعندما يأتي الربيع يقل ين تدريجيا ويزداد يانغ، حتى منتصف الصيف عندما يصل يانغ ذروته. ومع قدوم الخريف يتناقص يانغ ويزداد ين، وتستمر الدورة. المثال الآخر هو دورة النهار والليل، خلال النهار يزداد يانغ ويقل ين، وخلال الليل يزداد ين ويقل يانغ. ومعنى هذا في التطبيق العملي أن العلاقة مع "الآخر" لا تكون دائما عند مستوى واحد ونصيب كل طرف من الربح من تلك العلاقة يتغير، وهذا هو الطبيعي، أما أن يحقق طرف صعودا دائما أو ربحا متواصلا فهذا ينافي طبيعة الأشياء، وانفراد طرف واحد بالسيطرة مخالف لقوانين الحياة، وفقا للفكر الصيني، ولعل هذا يساعد في فهم موقف الصين في القرن الحادي والعشرين من "القطبية الأحادية" في العالم، ودعوتها إلى "التعددية القطبية"، باعتبار أن ذلك يضمن التوازن الحركي والتغير والتبدل الذي يضمن السيرورة الطبيعية للأشياء. فكرة التغير "المحورية" هذه في الفكر الصيني جعلت الصين دائما بعيدة عن الجمود. بيد أنه يجب أن نلفت إلى أن دلالة التغيير وآلياته تختلف تماما عن دلالته وآلياته في الفكر الغربي، فهو في حالة الصين تغيير طبيعي، ذاتي، يحدث بدون تدخل خارجي، على العكس من الرؤية الغربية للتغير والتي تقف خلف فكرة الثورة بدلالاتها الغربية، وفكرة "التدخلية" تحت أي مسمى التي تبنتها إدارة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش.

الملاحظة الثالثة، هي وسطية الفكر الصيني، وهي الفكرة التي جعلت الصينيين يرون بلادهم "مركز" العالم وهي أيضا التي تقف وراء الموقف الوسطي للصين المعاصرة من القضايا العالمية. هذه الوسطية ترجع أصولها إلى تعاليم كونفوشيوس الذي دعا إلى تحقيق التوازن والانسجام عند حل أي نزاع أو خلاف، وهي الفلسفة الصينية المعروفة باسم مبدأ التوسط، أي اتخاذ موضعا وسطا. وقد اعتقد كونفوشيوس، كما أسلفنا،

أن لـكل ظاهـرة وجهيـن متعارضيـن يوجـدان في حالة مـن التوازن النسـبي، وأنـه عندما يتجـاوز التوتـر بيـن الجانبيـن حدا معينـا، يضطرب الاعتمـاد المتبادل بينهما مما يسـفر عـن ظواهـر شـديدة وربما عكـس الوضـع الأصلي. وقـد حـدد كونفوشـيوس دور وهدف الحكومـة بأنه اسـتعادة والحفاظ على الحالة الأصلية للتوازن النسـبي. والمتابع للسـلوك التفاوضـي الصينـي في كافـة القضايا التي تكـون الصين طرفا فيها يـدرك مدى توظيف الصينيين لمبدأ التوسـط في التفاوض والمسـاومة لتحقيق التوافق بين متناقضين. ولكن كونفوشيوس أكد على ضرورة أن يؤدى هذا التوسط بحيادية، وبروح من التناغم والاعتدال، وهـذا بالضبط ما فعلـه المفاوض الصيني خلال المحادثات السداسـية المعنية بالقضية النوويـة فـي شـبه الجزيـرة الكورية، والتي اسـتضافتها بكين كوسـيط رئيسـي بين طرفي الخلاف الرئيسـين، الولايات المتحدة وكوريا الشـمالية، وهو أيضا ما اتبعه الصينيون في مفاوضاتهم للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، خلال نحو خمس عشـرة سنة تحولت فيها المنظمة من الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية (غات) إلى منظمة التجارة العالمية، وهو نفس الأسلوب الذي سوت به الصين قضية ضرب القوات الأمريكية للسفارة الصينية فـي بلغـراد فـي مايو عام ١٩٩٩. وبهدى من هذه الفكرة اسـتطاعت الصين تسـوية قضية تحطـم الطائرة الصينية بعد أن صدمتها طائرة تجسـس أمريكية بالسـواحل الصينية في الأول مـن إبريـل عـام ٢٠٠١. وفي هذا الصـدد فإن الفكر الصيني يوصـي بأن الإجراءات التي تتخذ للتعامل مع أي أزمة لا ينبغي أن تكون لينة للغاية ولا صارمة جدا، من أجل منع مزيد من النزاعات. ولعل معرفة هذه الفلسفة تساعد في تهدئة روع الصحفيين، وخاصة العـرب، عندما تأتي ردود المتحدث باسـم وزارة الخارجية الصينية هادئة ووسـطية حتى عندما تكون الصين طرفا في قضية يظن الناس، غير الصينيين بالطبع، أن بكين ستشعل النيران وتحرق القوارب.

إن هذا الفكر الحاضر في عقل وفكر وقلب كل صيني يعبر عن نفسه في كافة مناحي حياة الإنسـان الصيني، الذي يحرص دائما على أن تبقى بينه وبين الآخرين وشـيجة وأن يكـون منفتحـا على الآخر، وفسـر نجـاح الصين هو قدرتهـا على التكيف وعلى اسـتخدام

الموارد التي تتاح لها من "الآخر" مع استثمار ما نسجته من حكمة خلال آلاف السنين. وقد يعجب الآخرون من احتفال الصينيين بالأعياد الغربية بطريقة ربما تفوق الدول الغربية ذاتها، فالحواضر الصينية في الكريسماس وعيد الحب، فالنتاين، مثلا تتزين وتتجمل بطريقة يراها البعض مبالغة، برغم أن معرفة الصينيين بعيد الحب (الغربي) مثلا ترجع إلى سنوات قليلة ماضية، ولكن الصينيين، بقدرتهم البارعة على التكيف والتحول واستيعاب الجديد، مع الحفاظ على الأصالة والتمسك بالجذور، يتخذون من كل مناسبة فرصة للابتهاج واستعادة النشاط وتجديد الحيوية. وعندما ترى المدن الصينية مزدانة بأشجار عيد الميلاد وصور "بابا نويل" وغيرها من مظاهر الاحتفال بالكريسماس، تتخيل أنك في بلد كاثوليكية. إنها القدرة على خلق تعايش بين إرثين، وفقا لتعبير المفكر الفرنسي فرانسوا جوان، الذي قال أيضا في مقاله الذي سبقت الإشارة إليه "الصين في مرآة الغرب: "إن الصين ليست هي التي اختارت ملاقاة الغرب. فالغرب هو الذي أتى إليها وذلك مرتين: في القرن السادس عشر ثم في القرن التاسع عشر. في المرة الأولى جرى اللقاء بشكلٍ لطيف، بواسطة المبشرين الذين ظنوا أنهم يستطيعون تحويل الصينيين إلى المسيحية بدون مواجهة أية مقاومة، مثلما استطاعوا قبلها هداية الهنود الحمر في أمريكا، لكن سرعان ما خبا حماسهم. وفي المقابل، لم يحصل اللقاء الثاني عبر المبشرين بل عبر المدافع وذلك لأسباب اقتصادية مرتبطة بتجارة الأفيون." والحقيقة هي أن الصين، وليس كما ذهب فرانسوا جوان، اختارت ملاقاة العالم الخارجي قبل القرن السادس عشر عندما قررت أن تبعث بأحد أبنائها، الذي اخترت له أنا لقب أمير البحر المسلم المجهول عربيا، تشنغ خه، ليكون رسولها إلى العالم، وقد قال الباحث البريطاني جافين منزيس، مؤلف كتاب "الصين اكتشفت العالم عام ١٤٢١"، إن ماغلان استعان في رحلاته البحرية بالخرائط الصينية التي رسمت بناء على معلومات رحلات تشنغ خه. تلك الرحلات التي بلغ عددها سبع رحلات بدأت في الحادي عشر من يوليو عام ١٤٠٥، أي قبل قرن تقريبا من وصول المبشرين الغربيين إلى الصين.

ولكن البروفيسور جوان يقدم وصفا رائعا لكيفية موائمة الصينيين في مسيرة تقدمهم، التي وصفها بالتغرب، بين تراثهم ونقلهم عن الغرب، فيقول: "إن الصين حاليا في طريقها إلى إنجاز عملية اللحاق والبدء في تجاوز الغرب. لكن كيف يتقاطع النقل عن الغرب مع ما يبدو، في المقابل، نوعا من "التراث الصيني؟" يقول: "تبدو لي الصين اليوم بارعة في تسيير الاثنين معا، أو بالأحرى إبقاء الواحد في ظل الآخر، أي «السير على رجليها» كما قال الرئيس ماو تسي تونغ، تقديم الرجل الغربية مع الاستناد في الوقت ذاته على الرجل الأخرى. ومن هنا يرى المرء في الصين الحالية هذا الجمع بين الإرث الصيني والوافد الأجنبي، فعندما تذهب إلى مستشفى صيني يسألونك، ما إذا كنت تريد أن تُعالج بالطب الصيني التقليدي أم بالطب الغربي، وعندما تنزل في فندق بالصين يستوضحون منك ما إذا كنت تفضل الطعام الصيني أم الطعام الغربي، وفي كثير من المطاعم بالصين يضعون لك على طاولة الطعام العصوان ومعهما الشوكة والسكين"!

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع

المجتمع الصيني الجديد

حقـا أنـت لا تـزور الصين مرتيـن، ليس فقط لأن ما تـراه فيها اليوم قـد لا تراه غدا، وليـس لتغيـر ملامحهـا المادية فحسـب، وإنمـا لأن أفـكار الصينيين وقيمهم تشـهد حالة مـن التحول غير مسـبوقة في تاريخ هذا البلد، وهـو تحول بعضه ناتج عن إفرازات محلية وبعضه قادم من الخارج، بعضه حميد وبعضه ليس كذلك. وقد كان واضع أصول النهضة الصينية الحديثة دنغ شياو بينغ بعيد النظر عندما قال: "إننا عندما نفتح الأبواب والنوافذ يدخل الهواء الجديد المنعش، ولكن الذباب أيضا يتسلل"، ولكن دنغ أكد على أهمية قبول النافـع والمفيـد، فهـو القائل أيضا: "ليس مهمـا أن يكون القط أبيض أو أسـود، المهم أن يأكل الفأر"!

يتغير مجتمع الصينيين، من مؤسسـة الأسـرة المحورية في نسـيج الكيان الاجتماعي الصينـي التقليدي، إلى شـكل وهيئة الصينيين الذين يتغيـرون أيضا من أخمص القدمين، اللتيـن تتعرضـان لعمليات تجميل وتعديل، إلى قمة الرأس التي تتلون بألوان فاقعة أحيانا، ومن ظاهر اللباس إلى باطن الفكر والقيم.

المجتمع الصيني الذي يعيش منذ نحو ثلاثين عاما في ظل سياسة الإصلاح الاقتصادي والانفتاح على الخارج مازال في مرحلة التحول، بل يمكن أن نقول إن الصين فيها أكثر من "مجتمع" بالمعنى السيسيولجي، فالمجتمع الريفي، وإن كان شهد تغيرا، مازال بعيدا كثيرا عن المجتمع الحضري وما حدث فيه من تغيرات هائلة. ولعل أبرز التحولات التي شهدها المجتمع الصيني هي تلك التي لها علاقة بالأسرة والقيم الاجتماعية للصينيين، فالثقافة الصينيـة التقليديـة تؤكد على الأسـرة، باعتبارهـا مكونا هاما، إن لم يكـن الأهم، في بنية المجتمع، بل إن هذه الثقافة تُرجع القيمة الفردية للشـخص إلى قيمته الاجتماعية وتؤكد علـى واجباتـه والتزاماتـه تجـاه أسـرته، بالمعنى الضيق الذي يشـمل الوالديـن والأجداد،

وبالمعنى الأكثر شمولا الذي يضم المجتمع كله. ووفاء الأبناء لوالديهم، والزوج لزوجته والزوجة لزوجها قيم أساسية في الثقافة الصينية التقليدية، وهو وفاء قد يتجاوز أحيانا الحدود المقبولة، بمعايير العصر الحديث. ويكفي أن نشير إلى أن الزوجة الصينية كانت، إلى عهد قريب، لا تتزوج إذا مات عنها زوجها، حتى وإن كانت في ريعان شبابها. وفي حديث الوفاء الأسري تقول الكتب إنه حين ماتت والدة حكيم الصين العظيم كونفوشيوس(٥٥١ – ٤٦٩ ق. م) وكان في الرابعة والعشرين من عمره وزوجا وأبا ظل يتردد علي قبرها سبعة وعشرين شهرا انصرف خلالها عن زوجته، ويقال إن كونفوشيوس ربما يكون قد انشغل بزوجته الشابة وأطفاله الصغار عن بعض واجبات أمه عليه، فلما رحلت شعر بوخز الضمير وفعل ذلك تكفيرا عن ذنبه. وانتهى الأمر بكونفوشيوس إلى طلاق زوجته بعد أربع سنوات فقط من الزواج، واختصر أحد المؤرخين القصة في عبارة تقول: "ماتت أمه فطلق زوجته".

.....

ولكن وفاء الأبناء تجاه والديهم، بالمعنى التقليدي الذي يعني إعالتهم والعناية بهم تحت سقف واحد راح يتآكل في الصين مع التغير الذي تشهده البلاد، فيما يراه البعض مؤشرا على تقدم المجتمع بينما يعتبره البعض ردة في القيم الاجتماعية الصينية.

وقد جاء في دراسة قام بها البروفيسور ألكس كوان، من جامعة سيتي بهونغ كونغ، حول وفاء الجيل الجديد من الصينيين تجاه أهلهم، أن الصينيين أمسوا يميلون إلى النهج الغربي في الاعتماد على المجتمع لرعاية الوالدين في الكبر، حيث قال نحو ٩٥٪ من الذين شملتهم الدراسة إنهم يتوقعون أن تتكفل الحكومة بمسؤولية رعاية كبار السن، وقال ٨٥٪ إن المجتمع ككل، وليس الأفراد، هو المنوط بالمهمة. ولاحظت الدراسة أن المدن المتقدمة اقتصاديا، مثل شانغهاي وهونغ كونغ وقوانغتشو، متخلفة للغاية في أخلاقيات الوفاء لكبار الأسرة، في حين كان موقع بكين، المعروفة بالتماسك الأسري، أفضل في الوفاء للوالدين. وتقول الدراسة إنه على الرغم من أن الصينيين مازالوا يحترمون الآباء والأجداد فإنهم يميلون إلى استبدال الحب بالمساعدة المالية.

وعند سؤال الذين شملتهم الدراسة عن كيفية إظهار حبهم للكبار في أسرهم قال البعض إنهم سيرسلونهم إلى دور رعاية المسنين، وقال آخرون إنهم سيوفرون لهم المال. اثنان في المائة فقط قالوا إنهم مستعدون لرعاية الصحة النفسية للوالدين. وتشير الإحصاءات إلى أن الصين بها حوالي ثمانية عشر ألف شخص عمرهم تجاوز المائة سنة، وبينما كان عدد الصينيين الذين تخطوا حاجز الثمانين في عام ألفين هو سبعة ملايين وستمائة وثمانون ألف إنسان وصل الرقم حاليا إلى نحو اثني عشر مليونا، بمعدل زيادة سنوية ٤،٥٦ في المائة، وبمعنى آخر، يوجد صيني يبلغ عمره ثمانين عاما أو يزيد بين كل مائة صيني، وفي عام ٢٠١٠ سيصل عدد الثمانيين فما فوق سبعة عشر مليونا. وتشير الدراسات إلى أنه في عام ٢٠١٠ سيكون عدد من تخطوا الستين عاما في الصين مائة وأربعة وسبعين مليونا وفي عام ٢٠٥٠ سيكون عددهم أربعمائة مليون (منهم ثلاثمائة مليون فوق الخامسة والستين)، ولما كان الرقم المتوقع لتعداد سكان الصين في تلك السنة هو مليار وستمائة مليون فإن ذلك يعني أنه سيكون هناك شخص واحد فوق الستين بين كل أربعة صينيين.

والحق أن خيار قضاء الشيخوخة بعيدا عن الأبناء لا يقرره الجيل الجديد في كل الحالات، فبعض الآباء والأمهات يفضلون الاستمتاع بما بقي من العمر بعيدا عن العمل في خدمة الأحفاد في بيت العائلة، وحجة هؤلاء: أننا تعبنا كثيرا في نصف حياتنا، فلماذا لا نحتفظ بما تبقى من العمر لأنفسنا ونفسح المجال لأبنائنا في نفس الوقت. وتشير الأرقام إلى أن ٤٥٪ من المسنين يختارون قضاء الشيخوخة في أسرهم، بينما يرغب ٥٥٪ منهم الإقامة في دور المسنين.

المثير أن التحول الاجتماعي الهائل الذي تشهده الصين وهذا التآكل للقيم التقليدية والانفتاح الواسع والتغير الذي طرأ على العلاقات الأسرية في الصين أسفر عن ظاهرة جديدة هي تزايد عدد الصينيين الجدد الذي يشكون في أبوتهم للأبناء الذين يعيشون في حجورهم وهو ما أفضى إلى تزايد عدد المراكز التي تقوم بتحليل الحامض النووي DNA وعدد الذين يترددون عليها لتأكيد أن أبناءهم من أصلابهم فعلا، شكا في إخلاص

الزوجـات! ففـي عـام ٢٠٠٤ أجرى مركـز فحص الأبـوة بالعاصمة الصينيـة مائتي اختبار تأكيد أبوة، وهو رقم يزيد ٣٠٪ عن الرقم في عام ٢٠٠٣. الظاهرة أكثر شيوعا في المناطق الأكثر ازدهارا اقتصاديا مثل شـانغهاي وقوانغتشـو وشنتشـن بمقاطعة قوانغدونغ، جنوب شـرقي الصيـن. فقد أجرى مركز فحص الأبوة في شنتشـن، معجزة الصيـن الاقتصادية، ألف اختبار فحص أبوة عام ٢٠٠٤. في شـانغهاي، أكبر مدينة صينية سـكانا، يوجد ثلاثة مراكـز لفحـص الأبوة، منها معهد شـانغهاي لعلوم وتكنولوجيا المسـتقبل الذي أجرى ألف اختبار أبوة عام ٢٠٠٥. ومعظم الذين يتقدمون بطلبات لإجراء الاختبار هم الأزواج، وتبلغ نسـبتهم ٩٥٪ فـي مركـز شـانغهاي للـدم، كما أن بعـض السـيدات الحوامل يطلبـن إجراء فحـص للجنيـن، فإذا ثبـت أنه من صلب الـزوج أُبقي عليه وإذا ثبت أنه ابن لشـخص غير الزوج أُجهض الحمل، تجنبا للمشاكل.

اللافـت أن معظـم الذيـن يقومـون بإجراء هـذا الاختبـار الذي يتكلف في المتوسـط مائتين وخمسين دولارا أمريكيا، من المتعلمين تعليما راقيا. ويجرى الاختبار بقطرة دم أو شعرة من الابن موضع الشك. ويؤكد القائمون على الفحص على أن دقة هذا الاختبار تبلغ مائـة فـي المائة، ذلـك أن الخطأ فيه يعني دمار أسـرة. ووفقا لمركز تدقيـق الأبوة بوزارة الأمـن العام الصينية، ثبت أن تسـعين بالمائة مـن الآباء الذي أجروا الاختبار في مركزها، شـكا فـي أبنائهـم، هم بالفعـل الأباء الحقيقيون لهـم. أما في مركز شـانغهاي للدم فكانت نسبة الآباء الذين ثبتت أبوتهم لأطفالهم أقل، حيث لم تتجاوز ٨٠٪.

في تفسير لهذا التوجه يقول باحثون صينيون إن ضياع الإخلاص بين الزوجين يساهم كثيـرا فـي الحاجة إلـى فحص الأبوة، وإن عدد الأزواج الذين يشـكون فـي خيانة زوجاتهم يتزايد كثيرا في السنوات الأخيرة، فمعظم الزوجات سيدات عاملات مهنيات متخصصات لديهـن فـرص أكثـر للتعامل مع رجـال آخريـن وتغيير محل العمـل والقيام بسـفرات عمل طويلـة، وهـو ما يؤدي إلى شـك الزوج في سـلوك زوجتـه. ويطالب بعض خبـراء الاجتماع الصينيين بالتعامل بحذر شـديد مع فحص الأبوة لما ينجم عنه من خلافات أسـرية يكون الأطفال ضحيتها. والقانون الصيني ينص بوضوح على أن الأطفال سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين يتمتعون بحقوق متساوية.

●●●

يتوازى مع هذا موقف الصينيين من الإنجاب، فبعد ما يقرب من أربعين سنة من تبني الصين لسياسة تنظيم الأسرة المعروفة باسم سياسة الطفل الواحد؛ تلك السياسة التي هبطت بمعدل المواليد في بر الصين الرئيسي بنسبة ٥٠٪، حيث انخفض هذا المعدل من ٣٣،٣٤ في الألف خلال حقبة سبعينات القرن الماضي إلى ١٥،٣٣ في الألف عام ١٩٩٩، كما تراجع معدل الخصوبة أيضا كثيرا من ٥،٨١ أطفال لكل امرأة إلى حوالي طفلين حاليا، يستقبل بر الصين الرئيسي ١٦ مليون مولود جديد كل عام أي أكثر من ٣٠ طفلا كل دقيقة. غير أن التطورات التي طرأت على المجتمع الصيني خلال الربع قرن الأخير فرضت معالم أخرى على سياسة الطفل الواحد؛ فالقيود المفروضة على الإنجاب أُلغيت في بعض المدن الصينية، فلم يعد الزوجان ملزمين بالحصول على موافقة الجهات الرسمية قبل الإنجاب كما كان الحال من قبل، بينما يمكن لبعض الأسر أن تنجب طفلين؛ فإذا كان قانون السكان والأسرة ينص على أن الزوجين اللذين ينجبان أطفالا أكثر من العدد المحدد عليهما أن يدفعا ما يسمى "رسوم دعم اجتماعي" لخزانة الدولة فإن هذا القانون يعطي الحكومات المحلية حرية السماح لأزواج معينين بإنجاب طفل ثان. على سبيل المثال في مقاطعة آنهوي الواقعة في وسط الصين يُسمح للمطلق (أو المطلقة) بإنجاب طفل آخر من الزواج الجديد، وكذلك يسمح للأزواج الذين يعملون في مجال المناجم بإنجاب طفل ثان بالنظر إلى خطورة هذه المهنة. وفي مقاطعة هوبي إذا كان الزوج والزوجة من الأبناء الوحيدين يحق لهما إنجاب طفلين.

المثير للدهشة، وربما القلق أيضا، هو أن بعض المدن الصينية، وبخاصة المتميزة اقتصاديا، بدأت تشهد معدل زيادة سكانية سلبيا، ومن ذلك مدينة شانغهاي، بكل ما يفرضه ذلك من تحديات وأعباء على هذه المدينة مع تراجع نسبة الشباب وارتفاع نسبة المسنين وما يعنيه ذلك من ارتفاع نسبة الإعالة؛ أي عدد الأفراد الذين يعولهم الفرد. كما أنه مع تنامي ثروة عدد متزايد من الصينيين، فإن الأثرياء ونجوم المجتمع يخرقون قانون الطفل الواحد وينجبون طفلين وثلاثة، وهم مستعدون لدفع الغرامة، وليسوا في حاجة إلى الخدمات المجانية التي تحجبها الدولة عن الطفل الذي يُنجب خارج سياسة

السكان والأسرة، كما أن بعض الرجال يتزوجون من امرأتين بالمخالفة للقانون الصيني الذي يحظر تعدد الزوجات أو الأزواج، وينجبون من المرأتين، وإن كانت السلطات قد انتبهت إلى هذا الأمر فأصدرت لوائح تشترط ضرورة ذكر اسم الأب وبياناته عند تسجيل المواليد الجدد، وبهذا فإن العلاقة التي تجمع الرجل بزوجته غير القانونية تتكشف.

ليست هذه الحالة هي كل ما يثير الدهشة في خريطة السكان والأسرة في الصين، فهناك توجهات جديدة، إن لم تأخذ طابع الظاهرة، فعلى الأقل تزداد، ومن ذلك النساء اللاتي رفعن شعار .. أطفال نعم .. زواج لا. ففي مقاطعة جيلين الواقعة شمال شرقي الصين تنص لائحة السكان وتنظيم الأسرة بالمقاطعة وتحديدا المادة ٣٠ من اللائحة على أن المرأة التي تبلغ السن القانونية للزواج ولكنها لا تريد أن تتزوج في المستقبل يمكنها أن تلجأ إلى العلوم الطبية لتحصل على طفل إن شاءت!

البعض من النساء رحب بهذا التحول الدراماتيكي في مفهوم الزواج والأسرة، ولكن لائحة جيلين أثارت جدلا اجتماعيا في الصين على كافة المستويات. البعض قال "إنها خطوة على طريق حماية حق المرأة في عدم الزواج" والبعض اعتبر أن "الناس لديها الآن حرية أكثر لتقرير أسلوب حياتهم في مجتمع يصبح أكثر تسامحا، وهناك العديد من النساء غير راغبات في التضحية بالهبة الطبيعية بحمل طفل برغم أنهن يعارضن الزواج".

إذن كيف تحصل المرأة غير الراغبة في الزواج على طفل؟

استخدام السائل المنوي الذي يكون تبرعا من شخص ما هو أفضل إجراء طبي متاح للسماح للمرأة أن تصبح حاملا. والمعمول به دوليا أن المستشفيات لا تفصح عن مصدر السائل المنوي. غير أن كثيرين يشككون في إمكانية تطبيق ذلك في المجتمع الصيني، وهو مجتمع إن لم تكن فيه موانع دينية فإن له تقاليد اجتماعية راسخة قد تحتاج وقتا لتغييرها. كما أن هذه اللائحة القانونية، إذا قررت بعض النساء الاستفادة منها ستفتح ثغرات في قانون الطفل الواحد، ففي حال قررت فتاة أن يكون لديها طفل بالسبل العلمية الطبية ثم غيرت رأيها فيما بعد واختارت أن تتزوج سيكون لزوجها الحق، قانونيا أيضا،

أن يكون له طفل من صلبه هو، وإذا حدث ذلك سيكون لدى هذه الأسرة طفلان، وهو ما يتعارض مع سياسة السكان وتنظيم الأسرة.

هذه الصورة لها جانب آخر يختلف تماما؛ فبعض الأزواج والزوجات قرروا بمحض إرادتهم، وهم بكامل وعيهم القانوني والنفسي والصحي أن لا ينجبوا أطفالا، والأسباب متعددة. فظاهرة الزوجين بدون أطفال والتي يطلق عليها اختصارا أسرة دينك DINK وهي الحروف الأولى من عبارة Double Income No Kids والتي تعني أن الأسرة يكون لها دخلان وليس لديها أطفال باتت ظاهرة لافتة في الصين. في مدينة تيانجين التي يبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة يوجد زوجة واحدة من بين كل عشر زوجات اختارت أن لا تنجب، والنتيجة أن عدد المواليد الجدد في المدينة يتناقص.

الخبراء يعزون ظاهرة الانخفاض الحاد في معدل المواليد ليس فقط إلى سياسة الطفل الواحد وإنما يعتبرون ذلك مرآة تعكس التغيرات الهائلة في أسلوب حياة الصينيين؛ فمع وجود نظام جيد للضمان الاجتماعي ووجود مرافق رعاية اجتماعية قوية متكاملة لم يعد الزوجان، عندما يبلغان الكبر، في حاجة ماسة إلى الاعتماد على الأبناء أو هكذا يعتقدون، إضافة إلى أن الشباب من الجنسين يعتبر حاليا التقدم في العمل أكثر أهمية من الأسرة، بل إن البعض يعتقد أن الطفل يمثل عبئا ماديا ونفسيا.

الأسباب التي تبرر بها أسر دينك اختيارها بعدم إنجاب طفل متعددة؛ ففي دراسة ميدانية أجريت على عينة من هذه الأسر قال ٣٩٪ إن تربية الطفل تحتاج وقتا طويلا وتؤثر على رفاهية حياتهم. ١٨،٦٪ لا يريدون الطفل لأسباب اقتصادية بينما ١٦،٧٪ قالوا إنهم مشغولون لدرجة لا يستطيعون معها إنجاب طفل.

.....

كما أن عدم التوازن بين عدد الذكور والإناث بات مسألة تشغل المجتمع الصيني، في وقت تتبنى فيه الدولة شعار إقامة "مجتمع متناغم"، والذي يعني أشياء كثيرة، ولا شك أن التناغم لا ينسجم مع الخلل في النسبة بين الجنسين، وهو خلل تختلف الآراء في

تفسـير أسـبابه. البعض يربط تفضيل الذكر على الأنثى في الصين، وخاصة في المناطق الريفية، بالأفكار التقليدية، أو الإقطاعية، والتي تؤكد على أن الذكر وحده هو القادر على حمـل اسـم العائلـة وزيادة عزوتهـا ونفوذها إضافة إلى أنـه قوة إنتاجية فـي مجتمع تلعب فيه القدرة البدينة على العمل الدور الحاسـم في تحقيق ثراء الأسـرة، فالذكر، وفقا لهم، هـو القـادر على فلاحـة الأرض وزيادة إنتاجيتها. وهناك من يبرر تفضيل الذكور لأسـباب اجتماعية واقعية تتمثل أساسـا في أن الابن، وليسـت الابنة، هو الذي يرعى الوالدين في كبرهمـا، ومـرة أخرى في مجتمع لم تصل فيه منظومة الرعاية الاجتماعية إلى المسـتوى الذي يجعل الفرد لا يفكر في من يعوله في كبره.

إن الصين تواجه مشكلة عدم التوازن بين الجنسين، فالفجوة بين عدد الذكور والإناث تتسع، فقد كشف تعداد السكان لعام ٢٠٠٠ عن خلل واضح بين نسبة الذكور والإناث حيث بلغت نسبة الذكور إلى الإناث، ١١٩ر٩٢ ذكرا مقابل كل مائة أنثى، مقارنة بالمعدل الطبيعي وهـو ١٠٦ ذكـور لـكل مائـة أنثى. وقد جاءت هذه النسـبة أعلـى بمقـدار ٨ر٥ نقطة مئوية مقارنـة بعـام ١٩٩٠. وهـذا يعنـي أن كل مليون أنثى تولد علـى أرض الصين يولد معها في ذات الوقـت مليـون ومائتا ألف من الذكور، وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكل رجل امرأة، فإن النتيجة أن ما يقرب من ربع مليون صيني لن يجدوا شريكة من الجنس اللطيف خلال السـنوات العشـر القادمة، فاسـتمرار هذه الظاهرة سيسـبب، وفقا للمتخصصين، سلسلة من المشاكل الاجتماعية، مثل فقدان التوازن الخطير بين الجنسين في سن الزواج، وعدم استقرار الزواج والأسرة، وزيادة طلب الجنس بدون زواج. هذه مشكلة الاجتماعية المؤرقة دفعت لجنة الدولة للسـكان وتنظيم الأسـرة، وهي الجهاز المعني بالشـؤون السـكانية في الصيـن، إلـى اعتبار مسـألة عـدم التوازن بين الجنسـين قضية رئيسـية يتعيـن معالجتها، وتسعى لجنة الأسرة من خلال إداراتها تنظيم الأسرة إلى استكشاف وسائل فعالة لمعالجة القضيـة وتشـديد الحملة علـى الاتجار في وانتهـاك حقوق والتخلي عـن المواليد الإناث، ومنـع التعـرف بصـورة غير قانونيـة على نـوع الجنين، والإجهـاض. والتمييز ضـد الإناث أكثـر شـيوعا فـي المناطـق الريفيـة والمتخلفـة بالصين، ومن ثم فـان معرفة نـوع الجنين

بالموجـات فـوق الصوتيـة يؤدى إلى العديد مـن عمليات الإجهاض للأجنـة الإناث. وتأمل الحكومة أن تخفض نسـبة المواليد الذكور إلى الإناث إلى المسـتوى الطبيعي عام ٢٠١٠، وهـي مهمـة فـي تقديري جـد صعبة. وفي إطـار هذه الجهود دشـنت اللجنـة حملة توعية موضوعها الاهتمام بالفتيات، لتعزيز المسـاواة بين الجنسـين وخلق بيئة اجتماعية أفضل للأنثى. البعض يتهم سياسـة تنظيم الأسـرة في الصين بأنها المسـؤولة عن عدم التوازن بين الجنسـين، على أسـاس أنه طالما أن الأسرة مسموح لها بطفل واحد فإنها تفضل، بل وتسـتخدم كافـة السـبل المتاحة، ليكون ذكرا غيـر أن خبراء صينيين يـدرءون هذا الاتهام مؤكدين أن السـبب الجوهري وراء ارتفاع نسـبة الذكور إلى الإناث هو الأفكار القديمة في الصين التي تدعو إلى الاهتمام بالرجل والاستخفاف بالمرأة وليس هناك علاقة بين ذلك وبيـن سياسـة تنظيم الأسـرة الصين، حيث سـادت الصيـن تقاليد إقطاعيـة امتدت آلاف السـنين ظلـت الأنثـى خلالها الطرف الأضعـف على الـدوام. وفى التاريـخ وُجدت ظاهرة عـدم التـوازن بين الذكور والإناث فـي الصين بدرجات متفاوتة أوقـات الحروب والكوارث الطبيعية، فعندما تسـتلزم الظروف الاختيار فإن البعض يرفضونها أنثى. وتدون سـجلات التاريخ لفترة أسـرة تشـينغ الإمبراطورية فـي الصيـن (١٩١١– ١٤٤٨م) أن ظاهرة إغراق الأنثى في الماء وهي على قيد الحياة، بمعنى آخر وأدها، كانت موجودة.

.....

العزوف عن الزواج في الصين و زيادة عدد العزاب والعازبات بمعدلات سريعة، أسرع مـن معـدلات النمو الاقتصادي، ظاهـرة لافتة أيضا لدرجـة أن بكين فقط بها مليون عازب وعازبـة، برغـم وجود ألف وكالة زواج بها لا تخضع للمراقبة إلا من قبل مصلحة الصناعة والتجارة. وهي ظاهرة أسـبابها مادية رئيسيا، فقد أصبح ثراء الفرد هو مؤهله للارتباط، وفقـا لقـول واحـدة من فتيـات الجيل الجديـد: إنه لا مظهـره، تقصد المرشـح زوجا، ولا وظيفتـه تعنينـي. المهـم أن يكـون غنيا، أو علـى الأقل طريقه إلـى الثراء واضـح ومحدد. ومعظم الفتيات وفقا لمكاتب الزواج يشترطن في الشريك ألا يقل دخله الشهري عن ثلاثة آلاف يوان أي أكثر من أربعمائة دولار أمريكي، وهناك طلبات تشـترط خمسـة آلاف يوان

ويصل المبلغ في عدد منها إلى عشرة آلاف يوان أي أكثر من ١٣ ألف دولار أمريكي. والشروط في ٩٠٪ من الطلبات تشمل أيضا توفر شقة مستقلة، وفي ٣٠٪ وجود سيارة خاصة.

على الجانب الآخر، الشباب الواقع تحت مطرقة المال يبدو أقل رغبة في الارتباط، فعددهم في وكالات الزواج أقل كثيرا من الفتيات. غير أن عددا كبيرا من الرجال ليس بعيدا عن ركب الثراء والراحة في ضربة واحدة اسمها الارتباط، فقد اشترط أحدهم، وفقا لوكالة زواج، في المرأة التي يريدها أن يكون الرقم في حسابها البنكي ليس أقل من مائة مليون يوان، وبالدولار الأمريكي الحسبة تكون حوالي ١٦ مليونا!

الشاب الذي مازال طالبا في الجامعة برر مطلبه بأنه لا يريد أن يكون مثل أولئك الخريجين الذين يكدون ويتعبون ويعملون حتى وقت متأخر من الليل في سبيل بدء حياتهم وتأسيس أنفسهم، "ولماذا كل وجع الدماغ هذا؟ أريد طريقا مختصرا لحياتي بالزواج من امرأة ثرية".

ووكالات الزواج، وهي الشركات التي تقوم بدور الخاطبة، تنتشر بشكل كبير في مدن الصين، على الرغم من الانفتاح المتزايد في المجتمع الصيني. لقد كان دور الخاطبة قديما تيسير اللقاء بين الراغبين والراغبات في الزواج في ظل مجتمعات مغلقة لا تتيح فرصا كثيرة لالتقاء الجنسين، أما الآن وقد أصبح متاحا رؤية الجنسين لبعضهما البعض في كل مكان تقريبا فإن انتشار وكالات الزواج في الصين بحاجة إلى تحليل نفسي واجتماعي. والذين يختارون وكالات الزواج بحثا عن النصف الحلو، أو هكذا يعتقدون، نوعان، الأول شباب وفتيات يريدون اللحاق بالعربة الأخيرة من قطار الشراكة الحميمية، فهم عادة في نهاية العشرينات والثلاثينات أنساهم اللهاث وراء الوظيفة المرموقة والوضع الاجتماعي والمالي، وهذا لا يناسبني، وتلك ليست من مستواي، الزواج الثاني، مطلقون ومطلقات وأرامل يظنون أن وكالة الزواج تدخر لهم ولهن ما ضن به الزمان.

وموجة العزوبية الحالية في الصين هي الثالثة منذ تأسيس الصين الجديدة عام ١٩٤٩. كانت الموجة الأولى في بداية الخمسينات من القرن الماضي، والثانية في بداية الثمانينات.

مواصفات معظم أفراد هذه الموجة الثالثة أن العازبات فتيات متعلمات جيدا ومستقلات ماديا؛ والعزاب تعليمهم بسيط وحالهم أبسط. وهذا يعني أن العثور على الشريك المناسب بين هاتين المجموعتين مهمة شاقة. وهناك انتقاد للعوانس بأنهن يصعب إرضاؤهن وأنهن تخلين عن القيم التقليدية وأصبحن متعولمات بإفراط. وثمة استراتيجية جديدة تنتهجها فتيات الطبعة الجديدة في الصين عند اختيار الرجل المناسب، الاستراتيجية اسمها "التجربة والخطأ"، بمعنى أن تواعد الفتاة الرجل فإن راق لها كان بها وإن لم يرق لها تصرف عنه نظرها. في عام ١٩٩١ كان متوسط عمر الزواج الأول للمرأة الصينية ٢٢،٢ سنة وفي عام ١٩٩٦ كان ٢٤،٢ سنة.

انخراط المرأة في العمل وتكريس حياتها له سبب آخر لارتفاع نسبة العنوسة في الصين. والحقيقة أن الذي ساهم بشكل كبير في تشكيل عقلية هذا الجيل من فتيات الصين هو ما سمعنه منذ الطفولة بضرورة أن تجد المرأة عملا جيدا وأن تتفوق في عملها، في ظل مجتمع تزداد المنافسة فيه يوما بعد يوم.

في الموجة الأولى للعزوبية شهدت الصين زيادة كبيرة في نسبة الطلاق بعد أن صدر أول قانون للزواج لجمهورية الصين الشعبية في مايو عام ١٩٥٠، حيث اختار عدد كبير من الذين تزوجوا خلال سنوات حرب التحرير الطلاق. في عام ١٩٥٣، كان عدد حالات الطلاق ٥٣ حالة من كل ألف زواج. وفي ذلك الوقت لعبت الحكومة دورا في تزويج العزاب بترتيب لقاءات بين شابات صغيرات ورجال أكبر منهن سنا.

وقد استمرت فترة العزوبية الثانية من نهاية سبعينات القرن الماضي حتى عام ١٩٨٥، ففي عام ١٩٧٦ ومع نهاية السنوات العشر العجاف لما سُمي بالثورة الثقافية عاد ستة عشر مليون رجل وامرأة من أبناء المدن الذين ذهبوا للعمل بالريف، عادوا إلى ديارهم، وكان عدد

كبير منهم ومنهن غير متزوج. في هذه الفترة نشطت الحكومة واتحادات التجارة وجمعيات المرأة في البحث عن شركاء لهم ولهن، ولكن برغم ذلك بقي عدد كبير بدون زواج، وبعضهم نسيه المجتمع فقد وصلوا الخمسينات من العمر وسُرحوا من أعمالهم أو خرجوا إلى التقاعد المبكر دون زواج.

في هاتين الموجتين للعزوبية لم يكن الاختيار للفرد، حيث فرضت الظروف هذا الوضع، ولكن في الموجة الثالثة الحالية يقرر الفرد بنفسه أن يبقى عازبا، أو عازبة. ومجتمع العازبين والعازبات لديه من الوسائل ما يستطيع بها أن يملأ حياته، فهم يجتمعون من حين إلى آخر على غداء أو عشاء أو يخرجون في رحلات معا إن توفر الوقت. وقد استطاع البعض أن يستثمر هذه الظاهرة اقتصاديا بافتتاح نواد للعزاب، ومنها نادي القلوب الوحيدة في شانغهاي الذي يقدم للعازب وللعازبة سوارا مميزا يعرف الآخرون من خلاله أنه أو أنها من قبيلة العزاب، لعل هذه الطريقة تجمع بين القلوب. وهناك حالات ارتباط بالفعل حدثت في أماكن مختلفة بفضل سوار العزوبية هذا. ولكن معظم مستخدمي ومستخدمات هذا السوار ينتمون إلى ذوي الياقات البيضاء الذين يملكون من الرفاهية المادية والفكرية ما يتيح لهم ولهن تجربة طريقة غير تقليدية في البحث عن النصف الحلو.

●●●

ارتفاع نسبة العزوبية في الصين له سبب آخر ربما يكون الأكثر أهمية وهو ارتفاع تكاليف الزواج، فهو الأمر الذي يجعل كثيرا من العازبين والعازبات يفكر جيدا قبل اتخاذ قرار الزواج.

وزيادة تكاليف الزواج سبب مهم لظهور موجة العزاب الثالثة في الصين، فقد كان الزواج في الماضي لا يحتاج أكثر من "القطع الثلاثة"؛ ماكينة الخياطة والدراجة والساعة، والتي لم تكن تزيد تكاليفها عن دخل عدة أشهر للعروسين، ولكن حاليا تبلغ تكاليف إقامة عش الزوجية عشرات أضعاف الدخل السنوي للعروسين. وحسب استطلاع جمعية

صينيـة معنيـة بترتيبات الزواج، أعرب ثلث الذين اسـتطلعت آراؤهم عن رغبتهم في إنفاق ثلـث مدخراتهـم علـى حفل الزفاف فقط، وهذا لا يشـمل عش الزوجية وتأسـيس الشـقة وثمن السـيارة التي راح كثيرون يعتبرونها مـن الضروريات التي ينبغي توفرها قبل الزواج. لقـد ازدادت نفقات الزواج كثيرا ولهذا لا يتحمل الشـاب أو الفتـاة تكاليفه، وإنما تتحملها الأسـرة، لا سـيما في المدن. في مدينة مثل شـانغهاي يبلغ متوسـط تكاليف حفل الزفاف ١٩٠ ألـف يـوان (حوالـي ٢٧ ألف دولار أمريكي)، مقارنة مع ٥٠ ألـف يوان فقط قبل أربع سنوات.

●●●

لقد تغيرت عادات الزفاف التي ظلت مسـتقر آلاف السـنين في الصين إلى أن شهدت أول تغير راديكالي لها مع سـقوط حكم أسـرة تشينغ الإمبراطورية عام ١٩١١. في السابق كانـت هنـاك طقـوس "التعارفات الثلاثـة وترتيبات التصرفات السـتة" الصارمـة التي كان ينبغي الالتزام بها لضمان الزواج المبارك.

الترتيب الأول كان أن يطلب والدا الشـاب الذي في سـن الزواج من خاطبة، تكون في العـادة عجـوزا ذات مقام اجتماعي، ترشـيح عـروس لابنهما، وتقوم هي بدورها بالتشـاور معهما بشـأن الشـابات المناسـبات والوضع الاجتماعـي والاقتصادي لأسـرهن، ثم القيام بزيارة لبيت أسرة العروس التي وقع عليها الاختيار. وكانت الأم في أسرة العريس هي التي تحـدد تاريـخ يوم مبارك لمقابلة أسـرة العروس المقترحة. كان الغرض الرئيسـي من ذلك هو ضمان أن يكون مظهر وشخصية زوجة ابنها والوضع المالي لأسرتها مناسبا. الترتيب الثانـي هـو أن تطلب أسـرة العريس تاريخ ميلاد العروس المقترحة، حيث يتم تسـليم هذه البيانات مع بيانات العريس إلى عراف يقرر ما إذا كان الاثنان متوافقين.

الترتيـب الثالـث الـذي كان ينبغي اتباعه هـو تقديم هدايا من الكعك لأسـرة العروس، وهـذا هـو التعـارف الأول، ويمثـل فعليـا الخطبـة. الترتيب الرابع هـو المزيد مـن الهدايا والتعـارف الثانـي، بعـد التعـارف السـابق بوقت قليـل. والترتيـب الخامس هـو اختيار يوم

الزفاف، والذي يحدده هو العراف، ثم يأتي الزفاف الفعلي. في يوم الزفاف ترسل أسرة العروس من يبلغ أسرة العريس بأن ابنتهم سوف تصل بعد قليل إلى بيتها الجديد. ترتدي العروس ملابس كلها حمراء ويُغطى وجهها بمنديل مطرز بصورة تنين من أجل إبعاد الأرواح الشريرة، وتغادر في محفة، وعادة تذرف الدموع وهي تفارق أهلها على طول الطريق إلى بيت العريس.

بعد الوصول، تكون هناك طقوس أخرى تجب مراعاتها. في بعض المناطق كانت العروس تخطو فوق حوض مشتعل يوضع أمام باب البيت، من أجل طرد كل النحس، وفي مناطق أخرى كانت تخطو فوق سرج مع الإمساك بزهرية، حيث أنه في اللغة الصينية إذا وضعنا كلمتي زهرية وسرج معا- بينغآن- يكون المعنى هو السلام والرخاء. بعد ذلك يسجد العروسان للأرض وللسماء ولوالدي العريس وفي النهاية لبعضهما البعض قبل تبادل قدحين من الخمر والشرب منهما. وتصل المناسبة ذروتها بإقامة مأدبة الزفاف، والتي يدور خلالها العريس بالخمر والأطعمة على كل الضيوف بكل طاولة.

الطقس الأخير يكون في غرفة الزوجية الجديدة، عندما يجلس العروسان على سرير مبعثر عليه فول سوداني وتمر وجوز وفاكهة اسمها لونغآن، وكلها تحث على إنجاب ولد بسرعة. هنا يكشف العريس وجه زوجته ويرى العروسان بعضهما. وباختصار كان زواج صالونات.

بعد تأسيس الصين الجديدة كان قانون الزواج من أوائل التشريعات التي صدرت، وقد بدأ تنفيذه اعتبارا من الأول من مايو عام ١٩٥٠، وكان بحق قانونا ثوريا في تأكيده على المساواة بين الجنسين ومنح كليهما الحق في الطلاق وجعل تعدد الزواج غير قانوني.

ولما كانت الألوان المباركة القديمة والألوان الثورية الجديدة هي ذاتها، ظل الأحمر مسيطرا في حفلات الزفاف خلال خمسينات القرن الماضي، على الأقل في الريف. أما أهل المدن الأكثر موضة فقد ارتدوا ما يُسمى ببدلة ماو تسي تونغ، وكلا الملبسين كانا يزينان بزهور ورقية حمراء. وكان ضيف الشرف في حفل الزفاف، في القرية أو المدينة،

هـو أميـن عام لجنة الحزب، ثم يبدأ الحفل. وكان الضيوف يقدمون مبلغا نقديا هو نصف يوان أوهدية عملية مثل ماكينة خياطة أو أواني طهي وأوعية طعام.

وتماشـيا مـع عادة ذلـك الزمان بإقامـة حفل الزفاف فـي أيام الأعياد الرسـمية، كان يتـم تسـجيل الـزواج في ذلك اليـوم، ويحصل الزوجـان الجديدان على شـهادة زواج مدون بها ما يلي: "قائدنا الرئيسـي هو الحزب الشـيوعي الصيني والقاعدة النظرية لأيدلوجيتنا هي الماركسـية واللينينية"، وسـتة تماثيل جيرية صغيرة للقائد وعشـر نسـخ من الأعمال المختارة الثلاثة لماو تسـي تونغ والرمز الأحمر للولاء. كان الشـيء الزخرفي الوحيد في الزفاف الذي يخلو من مغزى سياسـي هو مقطعا "السـعادة المزدوجة" اللذان يرمزان إلى السعادة الزوجية.

في سبعينات القرن العشرين، كان الصينيون يحصلون على الطعام والسجائر ببطاقات التموين، ولم تكن هناك بطاقات مخصصة للزفاف، وعليه كان على أسـرتي العروسـين أن يقتصـدا فـي معونة الطعام اليومية لإقامة مأدبة للزفاف. كان الاعتراف الرسـمي الوحيد بارتباط الزوجين الجديدين هو إصدار كوبونات شراء للسرير والمقاعد، مع شهادة الزواج.

سياسـة الإصـلاح والانفتاح في بداية ثمانينات القرن العشـرين كانـت ثورة أخرى في طقـوس الزفـاف، فقد انسـحب الزي الموحـد والملابس الحمراء لصالح فسـتان الزفاف الأبيـض والطرحـة. وجـاء هذا التحـول بتغيرات هائلة في الأسـعار. وفـي الصين الحالية أضحـت حفـلات الزفـاف تجـارة مربحـة، مـع مواقـع الإنترنـت المتخصصـة والمجلات والسيارات الفارهة وتصوير الفيديو ثم رحلات شهر العسل. ويكفي أن نشير إلى أن ألبوم الزفاف وحده يتكلف حوالي خمسمائة دولار أمريكي.

.....

الأولويـات في اختيار الزوج تغيرت أيضا كثيرا عبر السـنين. خلال خمسـينات القرن المنصرم كان العامل هو الشريك المفضل بفضل دخله المستقر. في الستينات كان الفلاح هـو الأكثـر تفضيلا بفضـل عدم معاناته مـن مشـاكل اقتصادية أو سياسـية. وكان ضمان

obeikan.com

الوظيفة واستقرار الزواج هو السبب في جعل العسكريين مفضلين أكثر خلال السبعينيات أما خلال الثمانينات ومع الإصلاح والانفتاح أصبح القرين المفضل هو الدبلوماسي أو المثقف. في التسعينات وحيث البراغماتية لم تكن وظيفة العريس مهمة طالما أن لديه المال والشقة والسيارة. وبرغم التطور، مازال العديد من التقاليد القديمة موجودا، فمازالت مغادرة العروس هي الجزء الأهم في حفل الزفاف، والفرق الرئيسي هذه الأيام هو أن العروس تغادر بيت والديها في سيارة فارهة للغاية وليس في محفة حمراء. وعادة يصحب العروسين بعض الأصدقاء والأهل، وقبل أن تدخل العروس بيت عريسها ينفجر مصاحبوها في صخب وجلبة- في المدن يفجرون البالونات وفي القرى يشعلون الألعاب النارية- وذلك من أجل تنبيه العريس إلى وصول عروسه. ويسأل المصاحبون العريس عدة أسئلة عن اللون أو الأغنية المفضلة لعروسه للتأكد من تعارف العروسين الجديدين جيدا. عندما يدخل العريس يهدي عروسه باقة زهور. بعد التقاط الصور للعروس مع أسرتها الكبيرة يستعد كل فرد للذهاب إلى وليمة الزفاف. وعادة لا يحضر والدا العروس حيث أنهما يكونان في حالة من الحزن لفقدان ابنتهما. حاليا يطلب العديد من فتيات المدن من الوالدين أن يحضرا الوليمة ولكن الأمر في الريف لم يتغير. عندما تقترب العروس من السيارة ينزع العريس حذاءها ويبدلهما بزوج حذاء أحمر، فاللون الأحمر هو رمز السعادة والحياة الجديدة، والحذاء الجديد يمنع العروس من نقل تراب من بيت والديها إلى بيت أسرتها الجديدة، فهي هنا تتخلى عن حياتها القديمة، ثم يتحرك الموكب.

.....

كانت تلك هي صورة الأسرة الصينية قديما، بكل ما عرف عنها من تماسك وتناغم ولكن مع ضغوط الحياة تتزايد حالات العنف الأسري في الصين، وإذا كنا لفترة طويلة نتعامل مع تعبير "العنف الأسري" على أنه المعادل الفعلي لاعتداء الزوج "المتوحش" على زوجته المسكينة "المهيضة" الجناح، فربما كان هذا صحيحا حتى وقت قريب. غير أن أحدث الدراسات، تشير ليس فقط إلى أن عدد الأزواج في الصين الذين يتعرضون إلى إيذاء بدني ونفسي من جانب حبيبات القلب؛ الزوجات، وأحيانا الخليلات، يتزايد بشكل

مثيـر، وإنمـا أيضا لأن نمـوذج المرأة التي تتعـرض للعنف المنزلي، والـذي كان يربط بين مستوى تعليم المرأة، وبشكل عام الزوجين، وتعرضها للعنف، تغير هذا النموذج هو الآخر، فلـم يعـد صحيحـا أن المـرأة الأقل تعليما هي الأكثـر تعرضا للعنف من جانـب بعلها، كما أن العنف الأسـري بات يأخذ أشـكالا متنوعة تجاوزت الشـكل التقليدي لاسـتخدام أدوات المطبخ والمنافض والأحذية القديمة.

أحـدث الدراسـات عـن العنف الأسـري في الصين، تشـير إلـى أن عـددا متزايدا من الأزواج يتعرضون للإيذاء بدنيا ونفسيا. وقد وصلت الأمور إلى مرحلة يطالب معها بعض الرجال بإقامة "اتحاد الرجال لعموم الصين" على غرار "اتحاد النساء لعموم الصين"، وهو تنظيم قوي له أنياب ومخالب يدافع عن حقوق ومصالح المرأة الصينية. كما أن الضحايا من الرجال يريدون توفير السـبل لهم للحصول على المسـاعدة القانونية ليتحقق لهم في قاعـات المحاكـم العـدل الذي لـم يتوفر لهم في غـرف بيوتهم. الأرقام الرسـمية الصينية تقول إن ربع حالات الطلاق في الصين سببها العنف الأسري.

فمـا مـا هي الأسـباب التـي تدفع الزوجـة الصينية إلـى اللجوء إلى العنـف مع الرجل الـذي يفتـرض أنهـا ارتضته زوجا أو حبيبـا؟ تأتي شـكوى الزوجات غالبا بسـبب الفلوس أو الأعمـال المنزليـة، والرجل الصيني عادة لا يتحدث علانية بمـا يتعرض له من إهانات خشـية أن يفقـد صورتـه الرجوليـة أو أن يكـون موضوعـا لسـخرية الكثيرين مـن الرجال والنساء في مجتمع كان، ومازال إلى حد ما، مجتمعا يحتفظ للرجل بصورة تقليدية تجمع بيـن السـلطة والمهابـة والسـيطرة والقوة. الدراسـات أيضا تؤكـد أن الاعتقـاد الذي كان سـائدا بأن ارتفاع المسـتوى التعليمي للزوجين يعني عنفا أسـريا أقل اعتقاد خاطئ؛ ففي دراسـة أجراها اتحاد النسـاء لبلدية بكين وُجد أن ٧٧٪ من النساء اللاتي يتعرضن للعنف المنزلي من النسـاء العاملات المتعلمات تعليما جيدا. وفي تيانجين، وهي مدينة سـاحلية فـي شـمال الصين تبعد ١٢٠ كـم عن العاصمة بكين، وجدت دراسـة أجراها اتحاد المرأة بها أيضا أن ٧٠٪ من ضحايا العنف المنزلي نساء متعلمات يشغلن وظائف جيدة. فالمرأة العاملـة فـي الصين تتعرض للعنف الأسـري، والسـبب هـو أن التنمية السـريعة والتغيرات

الهائلة التي طرأت على المجتمع دفعت بالمزيد من النساء إلى دوائر البيزنس والعمل الحكومي غير أن كثيرا من الرجال، والنساء أيضا، لم يكيفوا أنفسهم، على الأقل نفسيا، مع أدوارهم الجديدة. المرأة الصينية كانت قبل تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ لا تخرج من البيت، ابنة وزوجة وأما، بل تبقى لأداء مهمة محددة هي رعاية الأسرة، وعليه فإن كثيرين، على ضوء هذه الخلفية التاريخية، لا يعرفون كيفية التعامل مع الآخر في ظل ضغوط العمل ومشاكله والتي يحملها الزوجان عادة إلى البيت مثل عبوة بنزين تنتظر شرارة للاشتعال.

غير أنه من الملاحظ أيضا أن شكل العنف المنزلي الأكثر شيوعا في أسر المتعلمين الصينيين ليس العنف البدني كما في المناطق الريفية، وإنما يتخذ شكل الإيذاء العقلي والنفسي من شاكلة الكلمات الجارحة والإهمال المتعمد لفترة طويلة فيما يسمى "العنف البارد". هذا النوع من العنف يلجأ إليه الزوجان المتعلمان المثقفان لاعتقادهما أن "العنف الساخن" أي البدني خارج عن قواعد الذوق واللياقة ولا يتناسب مع وضعهما الاجتماعي "والبرستيج".

وحسب دراسة قام بها اتحاد النساء لعموم الصين، يقع العنف الأسري في ٣٠٪ من الأسر الصينية البالغ عددها ٢٧٠ مليون أسرة. ويتضمن الدستور الصيني وقانون الجنايات والتشريعات المدنية الأخرى، ومنها قانون الميراث، فقرات تتعامل مع العنف الذي يقع داخل جدران البيت. وينص قانون الزواج الصيني على أن العنف الأسري ممنوع والذين يتعرضون للعنف المنزلي يحق لهم المطالبة قضائيا بالتعويض في حالة وقوع الطلاق. غير أن هذه النصوص لا تتضمن تعريفا محددا للعنف الأسري.

.....

وقد تغيرت الحياة المادية للصينيين المعاصرين كثيرا، فقد ذهبت أيام الجوع والعطش والمرض وجاء زمن الشبع الذي يصل التخمة والارتواء حتى الثمالة أحيانا والصحة التي تعبر عن نفسها في تضاريس جسم الإنسان، رجلا وامرأة، ويترافق مع

كل هـذا تغيـر فـي شـخصية الصيني، في رؤيته لنفسـه وللآخرين، واسـأل مـن تعامل مع الصينييـن قبل عشـرين عامـا ويتعامل معهم اليوم. ومقارنة سـريعة بيـن متطلبات الزواج في خمسـينات وستينات وسـبعينات القرن الماضي وحاليا، تكشف عن التحول الهائل في حياة الصيني. كان الشـاب والفتاة المقبلان على الزواج يسـتخدمان قسيمة الزواج لشراء دولاب، وكلمـة دولاب هنـا فيهـا مبالغة، فهو في الحقيقة خزانة ملابس خشـبية متواضعة جـدا. كان الصينيـون في ذلك الزمان يشـترون الطعام بكوبونات توزعهـا الحكومة عليهم، وكان عيد الربيع هو المناسـبة الوحيدة التي يمكن فيها للأسـرة الصينية أن تشـتري مائة جرام من بذر عباد الشـمس ومائة جرام من الفول السـوداني. في نهاية عام ٢٠٠٣ تجاوز متوسـط الدخـل السـنوي للفرد فـي الصين ألـف دولار أمريكي، لأول مرة فـي تاريخ هذه الأمة، وقد وصل الدخل حاليا وفقا لأحدث بيانات البنك الدولي ألفي دولار أمريكي. ربما لا يكـون رقـم الألفي دولار مدهشـا أو مثيـرا للتعجب، ولكن إذا علمت أن متوسـط الدخل السـنوي للفـرد فـي الريف الصيني كان سـتة عشـر دولارا فقط عـام ١٩٧٨، ووصل ٣١٧ دولارا عام ٢٠٠٣، تدرك القفزة الهائلة التي تحققت. في عام ١٩٧٨ كان متوسـط الدخل السنوي القابل للإنفاق لسكان المدن ٤١ دولارا أمريكيا، في نهاية عام ٢٠٠٤ وصل الرقم ألفـا وثلاثـة وعشـرين دولارا. مـن عام ١٩٧٩ إلى عـام ١٩٨٦ زادت مدخـرات الأفراد في الصيـن عشـر مرات، من ٢،٥٤ مليار دولار إلـى ٢٧ مليار دولار، وفي عام ١٩٩٤ بلغ الرقم ٢٥٩،٦ مليارا، أي زاد مائة مرة في ستة عشر عاما، وفي نهاية عام ٢٠٠٣ بلغت مدخرات الصينييـن تريليـون وخمسـين مليون دولار أمريكـي! وإذا كان الصينيـون معروفين تقليديا بحـب الادخـار، فـإن أحدا لا يدخـر المال إن لـم يوفي على الأقـل احتياجاته الأساسـية. هـذه التخمـة الثرائية لابد أن يكون لها انعكاسـاتها الصحية، وتحديدا في عمر الإنسـان، فالصيني لم يعد أطول قامة فقط بل أطول عمرا أيضا، فمتوسـط عمر الصيني، من عام ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٢ بلغ ٧١،٨ عاما، وهو يقترب من الرقم للدول المتوسطة التقدم.

يسر الحال ورغد العيش عبر عن نفسه في الزيادة الفلكية لوسائل التثقيف، ففي عام ١٩٧٨ كانت الصحف على المستوى الوطني والإقليمي توزع عشرة مليارات وأربعا وتسعين

مليون نسـخة، الرقم وصل في عام ٢٠٠٣ إلى ٢٤ مليارا وسـتا وثلاثين مليون نسخة، وفي عـام ٢٠٠٣ كان توزيـع الصحـف اليوميـة في الصين ٨٠ مليون نسـخة، أي أن الصين أكبر بلد صحف في العالم. وحاليا الصين بها أوسع شبكة للتليفون المحمول على وجه الأرض.

الحياة بمعناها المادي أصبحت سهلة للمرأة والرجل، فالنساء اللواتي كن قبل سنوات قليلـة يعتبـرن وجود فرن مكرويف في المطبخ رمزا للرفاهية، أصبحن يمتلكن كل الأجهزة الكهربائيـة المنزلية، فوفقا لدراسـة ميدانية أجريت علـى ٧٠ ألف صيني، في عام ٢٠٠٣ كان ٤٧،٥٪ مـن البيـوت الصينيـة بها فرن مكرويـف، و٧٢٪ منها بها سـخانات مياه، وهذه الأخيـرة جديـرة بالتركيز عليها، فقبل عشـر سـنوات ليـس أكثر كان الكثير مـن الصينيين يذهبـون إلـى الحمامات العامة، مرة أو مرتين في الأسـبوع، للاسـتحمام. زحام وضوضاء الحمامـات العامـة مازال ماثلا في أذهان الكثيرين، بل إن المشـهد ألهم مبدعي السـينما الصينييـن فخـرج فيلم اسـمه "الاسـتحمام". المدهش حقـا أن بعضا من هـذه الحمامات العامـة مـازال موجـودا، ولكن الوظيفة تغيـرت الآن إلى تقديـم خدمات السـونا والتدليك ومياه الينابيـع SPA. وأكثـر من ٥٠٪ من البيوت فيها مكيفات هواء. وزاد عدد السـيارات الخاصة في الصين فقد وجدت الدراسة أن ٣،٩٪ من الذين شملهم الاستطلاع عام ٢٠٠٣ يمتلكون سيارات، بزيادة ٣٠٪ عن العام السابق له. القائمة طويلة ولا نهاية لها. إن كل ذلك يعنـي أن الطريق أصبح ميسـرا إلى "شـياو كانـغ" وهو مصطلح صيني يمكـن ترجمته إلى العربية "مجتمع الحياة الرغيدة على نحو شامل".

هـذه النقلـة في حياة الصيني غيرت عاداته في الشـراء وفي التنقل وأسـلوب الحياة. عندما ظهرت متاجر السـوبر ماركت الكبيرة في الصين كان الناس يذهبون إليها للفرجة. بيـد أن بيئتهـا المريحـة ووفرة السـلع بها وأسـعارها المعقولـة جذبت المزيـد من الناس، وتقول دراسـة إن ٢٩٪ من الصينيين يشـترون احتياجاتهم اليومية من الأسـواق المركزية. وصـار الصينـي لا يلبـس أي شـيء، وإنما يؤكـد على اختيـار ملابس ذات أسـماء ماركات مشـهورة، ليـس مهما كم ثمنها. وتشـير دراسـة إلـى أن ٢٠٪ من الصينييـن في عام ٢٠٠٣ اختـاروا الذهـاب إلـى أعمالهم سـيرا على الأقـدام، مقارنة مع ١٢٪ عام ٢٠٠٠، والسـبب

ليس الفقر والعياذ بالله، وإنما مزيد من الوعي بأهمية ممارسة الرياضة البدنية، خاصة أن ضغوط الحياة الحديثة جعلت الذهاب إلى القاعات الرياضية أمرا متعذرا لكثيرين. في ذات الوقت قل عدد الذين يذهبون إلى مكاتبهم بالدراجة والموتوسيكل لصالح الزيادة في عدد مستخدمي السيارات الخاصة.

.....

هذه التغيرات المادية لها بصماتها الفكرية والقيمية على الصينيين، وأتذكر أنني ذات صباح في بداية تسعينات القرن الماضي كنت أمر أمام المتحف العسكري ببكين، وهناك رأيت مجموعة من النساء وقليلا من الرجال؛ الكل يرتدي أزياء غريبة بألوان فاقعة، ومن الواضح أن الجميع من كبار السن. الرجال يدقون طبولا وصنوجا والنساء يتحركن في شكل مستطيل فيما يشبه الرقص أو التمرينات الرياضية، ممسكات بمراوح يد ألوانها أيضا لافتة. لم أطل النظر إلى المشهد وانطلقت حامدا شاكرا على نعمة العقل فقد حسبت، ولا أخجل من الاعتراف بذلك، أن هؤلاء مجموعة من نزلاء مستشفى للأمراض العقلية، وقد ظننت، وكان كل الظن هنا إثما، أن المتحف هو هذه المستشفى. مرت أسابيع لأواجه نفس المشهد في ساحة أسفل أحد الجسور العلوية القريبة من بيتي. كانت ألوان الملابس وزينة الرأس مختلفة ولكن دقات الطبول والصنوج هي هي، والحركات نفسها. اقتربت واستمتعت بهذا العزف ونظرت في الوجوه التي اجتهدت مساحيق التجميل في محو بصمات الزمن منها. تكرر المشهد بل أصبح من معالم العاصمة، فتلك رقصة يانقه، القادمة من شمال البلاد والتي هي أقرب إلى التمرينات الرياضية فيما أسميته أنا "إيروبك جدتي"، أما الراقصات فهن السيدات اللاتي خرجن إلى التقاعد وتقدمت بهن السنون فقررن أن يبدأن ربيع العمر بعد الستين فاتجهن إلى الشوارع يتمتعن بالحياة إلى أقصى حد ممكن.

في غمرة دهشتي بين "جداتي" هؤلاء تذكرت الشاعر العربي زهير بن أبى سلمى صاحب المقولة الشهيرة.. سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أب لك يسأم.

ولكن الناس في الصين يبلغون الثمانين حولا وهم مقبلون على الحياة، لا سأم ولا ملل بل ضحك ولعب وقليل من الجد والحب أيضا. واخرج مبكرا في الخامسة أو السادسة صباحا وتعجب لهؤلاء الكبار الذين يمارسون شتى أنواع الرياضة البدنية في الشوارع النظيفة والحدائق الأنيقة، وبالطبع رياضة تايجي أو ملاكمة الظل هي ملكة الرياضات لكبار السن في الصين. أما في المساء، وبخاصة في الصيف، فجسور المشاة العلوية والمقاعد المتناثرة في المساحات الخضراء الكثيرة محجوزة للكبار يتسامرون ويرقصون "سلو موشن" على موسيقى هادئة تنبعث من جهاز التسجيل أو السي دي المعلق بطرف الساحة. ولعلك تسأل أين الشباب؟ اذهب إلى مقاهي الإنترنت والملاهي الليلية والمطاعم فهم هناك!

.....

والصين في طريقها لما يسمى مجتمع الشيخوخة؛ فمن بين المليار وثلاثمائة مليون نفس في الصين يوجد ١٣٠ مليونا فوق سن الستين، أي نصف إجمالي عدد سكان العالم العربي. وتقول الدراسات إن هذا العدد سيصل ٤٠٠ مليون عام ٢٠٥٠، أي نحو ربع سكان الصين في ذلك الوقت، ومع ارتفاع مستوى المعيشة بمعدلات متسارعة من المرجح أن يستمر متوسط العمر المتوقع للمواطن الصيني في الارتفاع.

المسنون في الصين يدهشونك بحيويتهم وروحهم المرحة وإقبالهم على الحياة، وكلما ألتقي زملائي في "الصين اليوم" الذين تقاعدوا قبل عشر سنوات أراهم أكثر شبابا؛ فبعد التقاعد، من وجهة نظرهم، تكون فترة الشقاء والعمل وتربية الأولاد قد انتهت لتبدأ مرحلة جديدة، مرحلة ربيع آخر. وبمناسبة الربيع قابلت زميلا صينيا يحمل اسما عربيا هو ربيع سونغ، عمره سبعون عاما، وكنت أظن أن زوجته رحلت عن الدنيا الفانية فقلت له جادا.. أنت في حاجة لزوجة تؤنسك. رد سونغ.. لا لا، زوجتي موجودة، ولكن ربما والدي هو الذي يحتاج. والدك؟! عمر حضرته كم؟ فقط أربع وتسعون ربيعا.

ولعل السيد سونغ لم يكن يمزح، فلم يعد الزواج مرة ثانية عيبا، بالطبع القانون يجرم الجمع بين زوجتين. لم يعد تكرار الزواج تابو أو من المحرمات وبخاصة بالنسبة للمرأة، وهذا التوجه الجديد يخالف التقليد الصيني الذي كان يقتضي من المرأة ألا تتزوج مرة ثانية إذا طُلقت أو مات عنها زوجها أو فارقها لأي سبب. وفي الصين تجد عجوزا في السبعين أو أكثر تطلب عريسا من خلال وكالات متخصصة في "توفيق الرءوس". والقانون الصيني يحظر على أي فرد، وبخاصة أبناء كبار السن، التدخل في أمور الزواج.

.....

ويشهد المجتمع الصيني تحولا في نمط تنقلاته أيضا، وقد كنت أقول دائما قبل أكثر من عشر سنوات إن الذي يعيش في بكين بدون دراجة حافي القدمين، ولعلي لم أكن مبالغا؛ فعدد الدراجات في العاصمة الصينية كان مساويا تقريبا لعدد سكانها المقيمين إقامة دائمة، عشرة ملايين، في ذلك الوقت، ولكن الرقم يقف اليوم خجولا عند أربعة ملايين، يسير منها يوميا في شوارع بكين مليونان فقط.

كانت الدراجة لها مهابة في الشارع وفي أماكن الانتظار، ولا زلت أذكر تعليقا لصديق زار بكين قبل عشر سنوات عندما رأى التبجيل الذي تحظى به الدراجة، حيث قال إن الدراجات في الصين مثل البقر في الهند (الهندوس يقدسون البقر ولهذا يسير في الشوارع حرا طليقا لا أحد يعترضه).

في طرق بكين ومدن الصين الأخرى كانت توجد عادة حارة مخصصة للدراجات، وإلى وقت قريب كانت أكشاك إصلاح الدراجات تلقاك أينما يممت مقود دراجتك، وفي كل متجر ركن لقطع غيار الدراجات. تشعر أنك في مملكة خاصة على عجلتين، أو أنك فوق طائر بدون جناحين يشق بك الأزقة الضيقة ويعبر بك الزحام وينتظرك في أي مكان وفي كل وقت. والدراجة في الصين خلقت ثقافة خاصة أثمرت حكما وأمثالا تضرب؛ فكل جزء في الدراجة القديمة يصدر صوتا إلا الجرس!. وقد نشأت بين كثير من الناس ودراجاتهم القديمة علاقة خاصة، وأنا أعرف أصدقاء صينيين مازالوا متمسكين بدراجاتهم القديمة

برغم ظهور أنواع جديدة أحسن شكلا وأخف وزنا وربما أكثر سرعة. والدراجة كانت الدافع وراء تمسك البعض ببيوتهم القديمة ورفض الانتقال إلى أماكن أفضل من حيث المستوى السكني، فقد قالت زميلة إنها فضلت بيتها القديم المتواضع على شقة أوسع وأجمل.. لأن الطريق من البيت القديم إلى العمل تظلله الأشجار وهذا يريحني عندما أقطع المسافة بالدراجة من المسكن إلى العمل تحت ظل وعطر الأشجار.

غير أنه قد يكون من المهم هنا أن نشير إلى أن بعض راكبي الدراجات يسببون أحيانا ارتباكات مرورية غير مبررة. وكان إلى وقت قريب إذا لمست سيارة دراجة يعتبر الأمر واقعة كبيرة تستلزم استدعاء الشرطة والتحقيق، وحتى إن كان راكب الدراجة هو المخطئ فإنه يطالب قائد السيارة بالتعويض والاعتذار. ولأسباب تتعلق بتاريخ الدراجة ومدلولها الاجتماعي في هذا البلد، كان هناك دائما تعاطف من أجهزة الشرطة مع الدراجة. والدراجة تفرض أنماطا خاصة من السلوك واللبس على راكبها، فعليه أن يكون مرفوع الهامة مستقيم الظهر ناظرا إلى الأمام، ممسكا المقود بيديه باستثناء المتمرسين الذين يقودون الدراجة بالقدمين فقط. وعلى راكب الدراجة، والنساء خاصة، أن يرتدي ملابس كاجوال، فلا يحبذ للرجل ارتداء رابطة العنق والبدلة الرسمية لأن ذلك يعيق الحركة، وبالنسبة للمرأة البنطلون هو الأفضل أما التنورات والفساتين فتعقد الأمر وتفقد قيادة الدراجة متعتها. وفي أيام المطر يحب ارتداء واقي المطر البلاستيكي وليس حمل المظلة، فالأول يجعلك تتحكم في دراجتك بقوة خاصة في مواضع الانزلاق، والنظارة من الأدوات المطلوبة عند قيادة الدراجة، خاصة أيام الريح الشديدة والشمس الحارقة.

ومن مزايا الدراجة، إضافة إلى كون قيادتها رياضة ممتعة، أنها تصل بك إلى مقصدك في الموعد الذي تريده، وتلك مزية يصعب أن تتوفر لوسيلة مواصلات أخرى في المدن الكبيرة. والدراجة وسيلة انتقال صديقة للبيئة، فلا هي تستهلك وقودا فتؤثر على موارد الطاقة المحدودة ولا ينبعث منها ملوثات تؤثر على البيئة التي تئن من مصادر التلوث، وفوق هذا وذاك وسيلة رخيصة. وفي المدن الكبيرة التي تفتقر إلى أماكن انتظار كافية، الدراجة هي الحل الأمثل، تتركها على باب بيتك أو تحملها معك إلى غرفتك أو تفعل مثل كثيرين وتتركها تحت أحد الجسور القريبة من منزلك مع ملاحظة إقفالها جيدا.

ولكن كما يقال دوام الحال من المحال. مع التغيرات التي يشهدها المجتمع الصيني منذ انتهاج البلاد سياسة الإصلاح والانفتاح تبدلت أمور كثيرة، ومثلما ترك التغير الاجتماعي بصمته على كل وجه من أوجه حياة الصينيين، لم تستطع الدراجة، برغم رشاقتها، أن تنأى بنفسها عن ركب التغيير، حيث يتخلى عدد متزايد من الصينيين عن ركوب الدراجة لصالح السيارة الخاصة. ولكن لماذا يهجرون دراجاتهم إلى وسائل مواصلات أخرى؟ لكل أسبابه، وهي أسباب لا تنفصل عن التغير الاجتماعي الهائل في الصين، وبمعنى أدق تحقق الرخاء والحياة الميسورة التي يسميها الصينيون "شياو كانغ" وتغير نمط المأكل والملبس والقيم أيضا. فهناك من يرى أن الدراجة لم تعد عملية بعد الانتقال إلى بيوت جديدة تقع بعيدا عن وسط المدينة، فمع توسع المدينة وانتقال الكثير من السكان إلى الضواحي وتحول وسط المدينة إلى متاجر وعمارات إدارية، من الطبيعي أن يتجه الناس إلى المواصلات العامة، باعتبار الدراجة وسيلة مواصلات خاصة!

ومع نشوء فئة ذوي الياقات البيضاء يرى البعض أنه ليس من المناسب أن يقود الواحد منهم الدراجة إلى عمله وهو يرتدي رابطة العنق والبدلة الأنيقة، مواجها عادم السيارات، التي أصبحت كثيرة، ويكون الفرد مضطرا للتدافع ليجد مكانا لدراجته بين السيارات. إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لذوي الياقات البيضاء فما بالك بآنسة أنيقة رقيقة ترتدي فستان سهرة مدعوة إلى عشاء في مطعم فاخر أو فندق خمس نجوم!

لقد بات حلم المواطن الصيني بامتلاك سيارة خاصة كابوسا لشركات إنتاج الدراجات ومصلحيها وأنصار حماية البيئة، خاصة أن حلم السيارة لم يعد بعيد المنال، فالجيوب تنتفخ يوما بعد يوم وأسعار السيارات في الصين تهبط بشكل كبير. فمدينة بكين التي لم يكن بها عام ١٩٤٩، إلا ٢٣٠٠ سيارة فقط، وصل عدد سياراتها في عام ١٩٩٧، مليون سيارة، فرحلة الوصول إلى المليون الأول من السيارات استغرقت ٤٨ عاما. في عام ٢٠٠٣، وصل عدد السيارات مليوني سيارة، أي أن الفاصل الزمني بين المليون سيارة الأولى والمليون الثانية كان ست سنوات فقط. اليوم، يزيد عدد السيارات في بكين عن ثلاثة ملايين، ويزداد بمعدل ألف سيارة كل يوم. وحتى نهاية عام ٢٠٠٦ وصل عدد

السيارات الخاصة فقط في الصين عشرين مليونا. امتلاك السيارة في الصين ليس مجرد وسيلة مواصلات، ربما أكثر راحة ورفاها، وإنما رمز للمكانة الاجتماعية والثروة وإشباع نفسي. فامتلاك السيارة كان بالنسبة لأجيال من الصينيين سرابا لم يحلم أحد أن يتحقق. ومع توجه الحكومة إلى تشجيع امتلاك السيارات المنتجة محليا، فإن النتيجة أن طرق العاصمة باتت تئن من الزحام، برغم توسعتها بشكل يفوق التصور إضافة إلى الطرق الجديدة التي أنشئت، وصل الأمر معها إلى بناء الطريق الدائري السادس الذي يحزم بكين، ليصل إجمالي طول الطرق في عاصمة الصين ١٢٨٥٢ كم منها ٢١٢ كم طرقا سريعة.

الحالة المرورية الصعبة قادت السيارة إلى الزحف رويدا رويدا على مملكة الدراجات. كانت البداية على استحياء بتخطيط أجزاء من حارات الدراجات لتكون أماكن انتظار للسيارات، ثم تعدى الأمر ذلك بالسماح للسيارات بالمرور من حارات الدراجات في التقاطعات للمنعطفين يمينا ويسارا، وفقدت الدراجة سطوتها ومهابتها في مملكتها، وإن ظلت الدراجة الصينية الأكثر تفضيلا في العالم، فالصين تصدر حاليا خمسين مليونا من السبعين مليون دراجة التي تنتجها سنويا، مقارنة مع ثمانية عشر مليون دراجة صدرتها في عام ٢٠٠٢.

وتحت وطأة أزمة المرور المتفاقمة استدركت الحكومة واتجهت إلى تشجيع المواطنين على العودة إلى الدراجة ولكن المشكلة هي أن الطرق أصبحت مزدحمة لدرجة صار وجود مسارات خاصة للدراجات بها أمرا صعبا. ولكن تظل الدراجة وسيلة انتقال أسرع على الأقل في المدن الكبرى، ففي بكين تسير الدراجة في وسط المدينة بمتوسط سرعة ١٥ كيلومترا في الساعة، في حين يكون متوسط سرعة سير السيارة ١٢ كيلومترا فقط.

●●●

الدراجة والسيارة، يعبران عن فئتين يزداد التباعد بينهما في الصين، طبقة الفقراء وطبقة الأثرياء وأيضا ظهور طبقة وسطى في بلد لا يحبذ استخدام مصطلح الطبقات.

فمصطلح "الطبقة" ليس له شعبية في الأدبيات الصينية، ولهذا تستخدم مصطلحات من قبيل "الفئة الوسطى"، "فئة ذوي الدخل المتوسط"، "مجموعة الدخل المتوسط"، وما إلى ذلك. والطبقة الوسطى في الصين هي المستهدفة من جانب الشركات الدولية والسبب هو أن الصين، بها مليار وثلاثمائة مليون فم وبدن وقدم، فإذا انتمى ربع هؤلاء إلى مجموعة الطبقة الوسطى فإن سوقا قوامها ٣٥٠ مليونا تفتح، ولعل هذا يفسر عرض العديد من المتاجر لمنتجات تحمل العلامات التجارية لكرستيان ديور وأرمني وشانيل وغيرها من الأسماء المشهورة في عالم المنتجات الاستهلاكية. وقد أعلنت الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، في تقرير لها أواخر عام ٢٠٠٥ أن نحو ٢٠٪ من الصينيين يصنفون ضمن الطبقة الوسطى، وبالأرقام نحو ٢٧٠ مليون إنسان، أي ما يوازي إجمالي سكان الاثنتين وعشرين دولة عربية. وحسب تقرير الأكاديمية، وهي بيت خبرة في الصين، سيكون ٤٠٪ من الصينيين ضمن الطبقة الوسطى عام ٢٠٢٠، بناء على تقدير الأكاديمية بأن الأسرة التي تبلغ ممتلكاتها من ١٨ ألف إلى ٣٦ ألف دولار أمريكي تنتمي إلى الفئة الوسطى. بنك بي إن بيه باريباس الفرنسي قدر عدد أفراد الطبقة الوسطى في الصين بخمسين مليونا عام ٢٠٠٢، وتوقع أن يرتفع الرقم إلى مائة مليون عام ٢٠١٠. تقديرات الأكاديمية والبنك متباينة، ولكنهما يتفقان على أن توجه الزيادة في أفراد الطبقة الوسطى قادم لا محالة.

اقتصاديا، توسع الطبقة الوسطى يعني بالنسبة للصين حفز الطلب الاستهلاكي المحلي والمزيد من التنمية المتواصلة، فمتوسط الإنفاق الاستهلاكي في الصين هو ٥٠٪ تقريبا مقارنة مع المتوسط العالمي وهو ٧٨٪. توسع هذه الفئة التي ينظر إليها كرمز لنضج المجتمع، يقود إلى التنمية الاجتماعية، فهي أكثر عوامل الاستقرار في أي مجتمع، فهي الفئة التي تخفف الصدام بين الفئة العليا والفئة الدنيا، ووجود الفئة الوسطى ييسر عملية الحراك الاجتماعي للأفراد بارتقاء السلم الاجتماعي.

ولكن من هم ممثلو الطبقة الوسطى الجديدة في الصين حاليا؟ هناك خمس فئات يمكن إدراجها في تصنيف الطبقة الوسطى بالصين، وهي رجال الأعمال الذين يديرون شركات تعمل في مجال التكنولوجيا العالية؛ المدراء في الشركات الأجنبية العاملة في الصين؛

المدراء من المستوى المتوسط والعالي في المؤسسات المالية الصينية المملوكة للدولة، التقنيون المتخصصون في مجالات عديدة وبخاصة في شركات الوساطة، وبعض رجال الأعمال الذين يديرون أعمالا خاصة محدودة.

●●●

و لكن هناك صورة أخرى للمجتمع الصيني، وهي توسع الهوة بين الفقراء والأغنياء، حيث تقول الأرقام الصينية إن معامل جيني، وهو المعامل الدولي لقياس التفاوت في الدخل، وصل في الصين ٠،٣٩ أي يقترب من مستوى التحذير الدولي وهو ٠،٤. والصين مازال بها ثلاثون مليون فرد يعيشون تحت مستوى خط الفقر، وهو ما يعني أنهم لا يتوفر لهم طعام كاف أو لباس دافئ أو مسكن. والمدن الصينية بها ما لا يقل عن عشرين مليون مقيم معوز. والصين بها نحو ثمانمائة مليون فلاح يمثلون ٧٠٪ من إجمالي السكان، وهؤلاء الفلاحون مازالت دخولهم منخفضة وقدرتهم الشرائية ضعيفة. في عام ٢٠٠٣ زاد متوسط دخل الفلاح الصيني بنسبة ٤،٣٪ ليصل إلى ما يعادل ٣١٧ دولارا في السنة!. فهل يمكن أن تنمو الطبقة الوسطى في الصين بشكل يحافظ على استقرار المجتمع؟ بعض الباحثين الصينيين يربطون ظهور الطبقة الوسطى كتيار رئيسي في المجتمع بعدد من الشروط، ومنها أن يصل معدل سكان الحضر في البلاد إلى أكثر ٥٠٪ من إجمالي السكان، في حين أن النسبة الحالية أقل من ٤٠٪. وأن يصل ناتج صناعة الخدمات إلى أكثر من ٥٠٪ من إجمالي الناتج المحلي، بينما النسبة الحالية هي ٣٢٪. ويعتقد محللون صينيون أن الظروف الاجتماعية والسياسية في الصين تحد من نمو الطبقة الوسطى، وإجمالا مازالت البيئة الاجتماعية- الاقتصادية في الصين في المرحلة الأولية المؤهلة لظهور الطبقة الوسطى، ومن الصعب أن تصبح الطبقة الوسطى العمود الفقري للمجتمع.

.....

ومع هذا التيار تنتشر ظاهر يسميها الصينيون "عبادة المال"، بكل ما لها من انعكاسات نفسية واجتماعية، فالتحولات الاقتصادية التي شهدتها الصين في السنوات

الثلاثين الماضية، نتج عنها تضاعف متوسط دخل الفرد عشر مرات أو يزيد وتحسن مستويات المعيشة بالمعايير الاقتصادية المادية وحقق المجتمع تقدما، ماديا، لا يصدقه من لا يعرف الصين أو الذي يعيش بعيدا عنها. ولكن هذه التحولات جاءت إلى الصينيين بأشياء لم يكن يفكر فيها أو ينشغل بها، فبعض علماء الاجتماع الصينيين يقولون إن المواطن الصيني لم تكن تزعجه المشاكل النفسية كثيرا في الماضي، غير أن ما نشرته أجهزة الإعلام الصينية عن الشاب الجامعي الذي تحول إلى قاتل بعد خلافات طفيفة مع زميل له والعمال المهاجرين من الأرياف إلى المدن بحثا عن عمل ثم ينتحرون بعد فشلهم في الحصول على أجورهم المتأخرة، ومعاناة عدد متزايد من النخبة الاجتماعية من العرض المرضي الذي يسمى بالهيبوتشوندريا، وهي حالة يتخيل فيها الفرد أنه مريض، والمسؤولين الحكوميين الذي يدمرون تاريخهم الوظيفي بشراهتهم وقبولهم الرشوة، كل هذا طرح على المجتمع قضية حساسية العلاقة بين الرأي العام والأثرياء والعلاقة بين الثراء والسعادة. نفر من علماء النفس الصينيين، يعزو هذه الظواهر التي لم يعرفها الصينيون من قبل، أو على الأقل بهذه الدرجة، إلى العقلية غير السوية لأفراد فشلوا في التعاطي مع مجتمع متغير بسرعة في هذه الفترة الانتقالية من تاريخ البلاد، أي الانعطافة التي شهدتها الصين في بداية عقد الثمانينات من القرن الماضي، من نظام الاقتصاد المخطط إلى نظام اقتصاد السوق، الذي كانت تحرص أجهزة الإعلام الصينية حتى وقت قريب على وصفه بالاشتراكي. خلال تلك الفترة صعدت طموحات الشعب الصيني وأُعيد تصنيف الفئات الاجتماعية. وفي خضم هذه العملية أتيحت للبعض فرصة الانطلاق، بعيدا وأحيانا بعيدا جدا. اقتصاد السوق هذا، والذي يعني المنافسة الحرة، خلق هوسا اجتماعيا بالثراء، ثراء الفرد وليس المجموع، ودفع بكثير من الصينيين إلى حلبة التجارة والبيزنس. فبات كثير من الناس يشعرون بين عشية وضحاها أنهم مجرد سلع على أرفف في دكان، وشرهت رغبتهم في أن يعترف السوق بهم وأن يصبحوا علامات تجارية في شهرة كوكاكولا. وقد كانت فترة العشرين عاما الأولى لانتهاج نظام اقتصاد السوق كفيلة برؤية بعض قصص النجاح المدهشة. في ظل هذه الحياة المشحونة بالضغوط، كان على البعض أن يناضل حتى يصل إلى الامتياز في النهاية.

وتشـير الدراسـات النفسـية إلى أن رغبات كثير مـن الصينيين في الأشـياء تضخمت بشكل فاحش وبات من الصعب على رواتبهم، أيا كانت عالية، أن تلبي احتياجاتهم. والنتيجة أنه بدلا من الشعور بالرضا أمسوا يشعرون بالإحباط، تطبيقا عمليا لنظرية يعرفها جيدا علماء الاجتماع والنفس تسـمى ثورة التوقعات المتزايـدة والإحباطات المتزايدة، ومفادها أن الظروف تخلق حولك أجواء ذات سـقف متحرك كلما ظننت أنك على وشـك ملامسـة السـقف يتحرك إلى أعلى، وهكذا دواليك. ومن الظواهر التي تميز الفترة الانتقالية، في الصيـن كمـا في بلدان أخرى، حالة عدم اليقين. وعندما لا تكون هناك توقعات بمسـتقبل واضـح يميـل النـاس إلى التركيـز على المصالـح الذاتية فـي المدى القريـب، أي ينظرون تحت أقدامهم، والأخطر أنهم يصيرون متهورين. وعبادة الثروة جعلت بعضا من الصينيين يتصرفـون تصرفـات غير طبيعية في تلك الفترة الانتقالية، فالرشـوة باتت ظاهرة شـائعة بيـن المسـؤولين منذ العمل بنظام اقتصاد السـوق، وهي، أي تقاضي الرشـوة، من منظور علـم النفـس تصرف متهور نتيجـة عدم اليقين الاجتماعي والسـعي وراء المال. فالفسـاد يشيع عندما لا يشعر هؤلاء المسؤولون بالأمان في نوعية حياتهم ومستوى معيشتهم.

مـن جانب آخـر، الفلاحون الصينيون وإن كانت دخولهـم ارتفعت كثيرا خلال العقدين المنصرميـن فإنهم، مقارنة مع الفئات الاجتماعية الأخرى، يشـعرون بأن الفترة الانتقالية ظلمتهـم. التجـار النابهون انطلقوا إلـى الريف لعمل ثروات هائلة بالاسـتيلاء على الأرض الزراعية أو الحصول على مصادر المعادن، وظل الفلاحون يواجهون الأيام الشداد لزراعة المحاصيل. الفلاحون الذين اختاروا الهجرة إلى المدن بحثا عن وظيفة في الأعمال كثيفة الأيـدي العاملـة يواجهون دائمـا التمييز ضدهم مـن أبناء المدن ويحصلـون على أجورهم الكاملـة بشـق الأنفس، إن حصلـوا عليها أصلا. هذه المشـاعر والسـخط المتراكمان في نفوس الفلاحين لا يمكن التفريج عنها بمرور الوقت وتُسبب تصرفات غير طبيعية.

ويواجـه الأطفـال أيضـا قضايـا خطيـرة، ذلـك أن التغيـرات الاجتماعية المتسـارعة تجـاوزت النظـام التعليمـي فـي بعـض النواحي، وهذا أسـفر عن أزمات نفسـية للشـباب، فالنظـام التعليمـي الصينـي، يركـز علـى جعـل التلميـذ منفـذا يـردد الأشـياء، متجاهـلا

السلوكيات التي تشكل حياة الفرد وتبني عقلية تمكنه من مواجهة التحديات الجديدة دون السقوط في أول جولة. ويبقى أهل الريف أقل معاناة نفسية من سكان المدن، فقد زرت أفقر القرى في الصين، وزرت أكثر مدنها ثراء. في القرية الفقيرة لمحت اطمئنانا في العيون والملامح، وألفة وحميمية؛ تقترب من الفرد فيبادرك بالاقتراب. في شنتشن، معجزة الصين الاقتصادية، إحدى أكثر المدن ثراء في الصين، قرأت قلقا في العيون واضطرابا على الوجوه وخوفا خفيا، تقترب من الفرد فيبتعد عنك ويسرع بعيدا.

●●●

وقد بات الانتحار الحل الأسهل الذي يختاره عدد من الصينيين الذين يصابون بالاكتئاب بدلا عن الاستمرار في تحمل أعباء الحياة الحديثة. ولا تخلو الصحف الصينية يوميا من خبر عن حالة انتحار أو محاولة انتحار فاشلة. وإذا كانت الإحصائيات العالمية تشير إلى أن ١٧٪ من النصف مليار مكتئب في العالم ينتحرون، فإن الصين لا تحلق خارج السرب، فحسب أحدث رقم متاح في هذا الشأن، وهو لعام ٢٠٠٣، سجلت وزارة الصحة الصينية في ذلك العام مائتين وخمسين ألف حالة انتحار، ومليوني محاولة انتحار فاشلة، بينما تقدر الجمعية الصينية للأمراض العقلية أن مائتين وثمانين ألفا من الصينيين ينتحرون سنويا بينما يحاول مليونان قتل أنفسهم.

لماذا ينتحرون أو يحاولون الانتحار؟ تتعدد الأسباب والنتيجة واحدة، القفز من بناية عالية أو من فوق جسر أو إشعال النار في الجسم أو شنق النفس أو تجرع مبيد سام، إلى أخر القائمة السوداء لوسائل قتل النفس، ويكفي أن نستعرض أربع حالات انتحار سجلتها السلطات الصحية في مدينة قوانغتشو خلال عشرة أيام فقط في عام ٢٠٠٦، لكي ندرك مدى خطورة الوضع النفسي لعدد متزايد من الصينيين، ففي الثاني والعشرين من نوفمبر ذلك العام انتحر ابن لأسرة صياد بالقفز من فوق البناية التي يقيم بها، وبعد يومين انتحر شاب بمختبر علمي بنفس الطريقة وفي السادس والعشرين من ذات الشهر انتحرت طالبة دراسات عليا متخصصة في كيمياء التربة، وفي الأول من مارس انتحرت طالبة

كانت تدرس تخصص الكيمياء في الجامعة، بطريقة القفز أيضا. دوافع الانتحار للأربعة متباينة، فابن الصياد كتب قبل انتحاره أنه قرر التخلص من حياته لعدم موافقة والديه على تركه للدراسة برغم تدني نتائجه الدراسية، وطالبة كيمياء التربة انتحرت لرفض والديها صديقها بعد ست سنوات من العلاقة العاطفية بينهما، وأيضا بسبب الضغط عليها لإنهاء رسالتها العلمية والحصول على وظيفة جيدة. والبحث عن وظيفة كان السبب كذلك في قرار انتحارشاب المختبر، فبعد سنة من البحث عن وظيفة منذ أن حصل على درجة الماجستير في العلوم الكيميائية من جامعة تشينخوا المرموقة، وجد عملا في وظيفة أدنى كثيرا من سقف طموحاته، براتب متواضع وظروف سيئة.

ربما القاسم المشترك بين تلك الحالات هو أن أصحابها جميعا من الشباب، فقد أصبح الانتحار، وفقا لإحصاءات الجمعية الصينية للأمراض العقلية، القاتل الأول لشباب الصين بين سن ١٥ و٣٤ سنة، حيث أن نحو ٢٦٪ من حالات الوفاة في هذه الفئة العمرية عام ٢٠٠٦ كان سببها الانتحار. هذا الواقع كشفت عنه أيضا دراسة أجراها باحثون من جامعة بكين استمرت سنتين وانتهت في مايو ٢٠٠٦، فمن بين مائة وأربعين ألف طالب في المرحلة الثانوية شملتهم الدراسة، قال ٢٠،٤٪ منهم إنهم فكروا في الانتحار في وقت معين، بل إن ٦،٥٪ قالوا إنهم وضعوا بالفعل خططا للانتحار. وقالت الدراسة التي شملت ٧٢ ألفا و٤٨٩ فتاة و٦٩ ألفا و٩١ فتى، متوسط أعمارهم ١٦،٣ سنة وغطت ١٣ مقاطعة ومنطقة في الصين، إن معدلات الإقدام على الانتحار في خطواته الثلاث؛ التفكير فيه ثم وضع خطة له وأخيرا التنفيذ، شهدت زيادة كبيرة منذ عام ٢٠٠٢، ففي دراسة أجريت عام ٢٠٠٠ ببكين على أربعة آلاف طالب بإحدى عشرة مدرسة ثانوية، قال ١٧،٧٪ منهم إنهم فكروا في الانتحار، وهي نسبة تقل ٣٪ عن النسبة في عام ٢٠٠٦. وبشكل عام تلجأ البنات أكثر من البنين إلى الانتحار فمقارنة مع ١٧٪ من الأولاد فكروا في الانتحار، فكر٢٣،٧٪ من الشابات الصغيرات في قتل أنفسهن، بينما وضع ٥،٧ من الأولاد خططا لتنفيذ الانتحار ودبر ٧،٤٪ من البنات الصغيرات الخطط للانتحار.

الإحباط والاكتئاب له أسباب كثيرة في حياة الصيني الحديثة؛ قد تكون سفر الصديقة أو الصديق إلى الخارج، طلاق الزوجة بسبب علاقات زوجها مع نساء غيرها، آباء وأمهات في خريف العمر أهملهم الأبناء في زحام الحياة، الهوة الواسعة بين واقع الحياة وسقف الطموحات الناشئ عن أسباب كثيرة. والانتحار ليس حكرا على الصغار، فوفقا لبيانات مركز بكين لبحوث الانتحار والوقاية منه، ينتحر نحو مائة ألف شخص فوق سن الخامسة والخمسين بالصين سنويا، أي أكثر من ثلث المنتحرين في هذا البلد كل عام. أما عن السبب الرئيسي لانتحار كبار السن فهو الشعور بالوحدة، لسفر أو وفاة رفيق العمر، أو الطلاق، واستقلال الأبناء بحياتهم. ذلك الشعور بالوحدة أضاف مصطلحا جديدا إلى قاموس علم الاجتماع في الصين، اسمه "الأعشاش الخاوية".

المشكلة أن الوعي بالاضطرابات النفسية في الصين مازال محدودا، ومازال كثيرون يعانون من متاعب نفسية يخجلون من التصريح بها لاعتقادهم أنها تدخل في دائرة العيب وأن صورة الفرد تهتز إذا علم الآخرون بحقيقة متاعبه السيكولوجية والربط غير الصحيح بين المرض النفسي وبين الجنون، برغم أن الطب النفسي والعقلي لا يعرف مرضا اسمه الجنون. يضاف إلى ذلك العجز الشديد في عدد المتخصصين النفسيين في الصين، حيث يوجد خمسة متخصصين نفسيين لكل مليون فرد بالمتوسط، مقارنة مع ٥٥٠ متخصصا نفسيا في الولايات المتحدة لكل مليون فرد.

وربما يظن البعض أن أعضاء الطبقة المتوسطة والعليا في المجتمع بمنأى عن غول الاضطرابات النفسية، ولكن ذلك ليس صحيحا، فضغوط العمل والحياة التي يتعرض لها من يطلق عليهم أصحاب الياقات البيضاء في الصين تجعل كثيرا منهم يصاب باضطرابات نفسية وعقلية، وقد انتبه الأذكياء إلى هذه الحالة وفكروا في استثمارها اقتصاديا. في شانغهاي ينظم موقع إنترنت، متخصص في ترتيب اللقاءات الرومانسية، حفلات للقتال، السلاح فيها هو الوسائد، حيث يجتمع المحاربون والمحاربات مساء ويشبعون بضعهم بعضا ضربا بالوسائد ويصرخون ويصفرون ويفعلون أي شئ لإخراج شحنات الضغوط المكتومة. البعض أيضا ابتكر وسائل أخرى منها حفلات رقص وغناء

تفرج كرب المكروبين وتنفس عنهم ضغوطهم. ولكن تلك الوسائل لا تصلح إلا لفئة معينة من الذين يعانون نفسيا، فأصحاب وصاحبات الياقات البيضاء هم دون غيرهم القادرون والمؤهلون لتلك النشاطات التي تشبه حفلات الزار العربية.

محاولات تحجيم أعداد المنتحرين في الصين لا تتوقف عند هذا الحد، فقد اقترح قبل فترة ممثل منظمة الصحة العالمية لدى الصين، هنك بكيدام، تقنين استخدام المبيدات الحشرية كوسيلة لتقليل حالات الانتحار في الريف الصيني، موضحا أن حوالي ٦٠٪ من الذين يموتون منتحرين في الصين سنويا يستخدمون المبيدات الحشرية في قتل أنفسهم، ومعظم هؤلاء من الفلاحين، حيث يكون المبيد أيسر وأقرب وسيلة متاحة لقتل النفس أو حتى لإثارة الانتباه والتعبير عن الرفض والاحتجاج. ويدعو بكيدام إلى عدم جعل المبيدات الحشرية في متناول اليد ببيت الفلاح، وهو يقترح مثلا تخزينها في مكان واحد بكل قرية، بحيث يكون للمخزن قفلان مع شخصين مختلفين، وأن يحصل المزارع على المبيد عندما يريد استخدامه في حقله ثم يعيد ما يتبقى منه إلى ذات المكان. والحقيقة أنها فكرة خلاقة، فالمسافة التي يقطعها العازم على الانتحار من بيته أو حقله إلى مخزن المبيدات قد تعطيه فسحة نفسية لإعادة التفكير في قرار الانتحار، وقد يصادفه في هذه المساحة المكانية والزمانية من يساعده في التخلي عن قراره الانتحاري. كما أن وجود المبيدات في هذا المكان يجعلها غير متاحة للمختلين عقليا، خاصة إذا علمنا أن الصين بها، وفقا للأطباء الحائزين على جائزة "الأطباء البارزين في الأمراض النفسية لجمعية الاختصاصيين الطبيين الصينية" عام ٢٠٠٧، أكثر من ٢٦ مليون شخص يعانون من مرض السوداء (الملنخوليا)، حسبما نشرت وكالة أنباء شينخوا الصينية الرسمية.

●●●

ولكن هذه الصورة يقابلها صورة أخرى لشباب طموح. ففي دراسة أجريت بالتعاون بين المركز الصيني لبحوث الشباب والنشء والمعهد الياباني لبحوث الشباب والنشء والأكاديمية الكورية الجنوبية لتنمية الشباب وشركة بحوث اجتماعية أمريكية غطت

٧٣٠٤ طـلاب فـي المرحلة الثانوية من ١٥٦ مدرسـة في الصين واليابـان وكوريا الجنوبية والولايات المتحدة، احتل شـباب الصين المقدمة في التطلع إلى النجاح، والأقل رضا عن حياتهم بنسـبة ٤٨،٨٪ مقارنة مع ٧١،٧٪ للطلاب الأمريكيين و٦٦،٣٪ لليابانيين. وحسـب الدراسة، الطلاب الصينيون هم الأكثر اهتماما بالدراسة وأيضا الاهتمام بشئون بلدهم.

ولا أذكر أنني صادفت أو عرفت شـابا أو فتاة في الصين ولم يحدثني عن المسـتقبل، الكل غير قانع بما هو فيه ويريد حياة وعملا ودراسـة ومسـتقبلا أفضل. شـا شاي، الفتاة التي درسـت اللغـة العربية وعملت بالمكتـب الإعلامي المصري ببكيـن براتب جيد ونالت تقدير رؤسـائها، تركت العمل وافتتحت مكتبا صغيرا للشـحن، أصبح خلال أقل من عشـر سـنوات مجموعـة شـركات. تشـانغ وي وزوجته وانغ هـوا، المتخصصان فـي البرمجيات، قررا التخلي عن وظيفتيهما التي تدر عليهما دخلا شـهريا حوالي ألف دولار أمريكي، في وقت كان متوسـط دخل الفرد السـنوي في الصين أقل من هذا الرقم بكثير، وهاجرا إلى كندا عام ١٩٩٩. تشيان وي، التي أنهت دراسة القانون بالصين رفضت التقدم لأي وظيفة وسـافرت إلى الولايات المتحدة لتحصل على الماجسـتير. تانغ نينغ استقالت من الوظيفة الميري في مدينتها الصغيرة بالصين وجاءت إلى بكين، سعيا وراء فرصة أفضل. الشباب هنا إن فاته الميري لا يتشبث بترابه، لأنه لا يرفع شعار "وظيفة لأكل العيش"، وإذا واصلت سرد الأسماء لن تكفي صفحات وصفحات للجيل الذي ولد في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، الجيل الذي يمتلك الجرأة ومسلح بالمعرفة والطموح. ولعل ما حدث في مصعد أحـد فنادق بكين مع جيري يانغ، مؤسـس شـركة ياهوو YAHOO، عـام ٢٠٠٤ يبين مدى جرأة هذا الجيل من شـباب الصين، فقد اسـتوقفه شاب نحيل وسلمه ورقة بها مقترحات للعمـل التجاري، يريد التعـاون معه. الذي حدث أن جيري يانغ لم يدقق في الورقة، وطلب من الشـاب، واسـمه، قاو ران أن يبعث له رسـالة بالبريد الإلكتروني. بعد أقل من أسـبوع كان قاو ران، ذو الخمسـة وعشـرين عاما، في قطار أمضى به ليلة كاملة واقفا، من بكين إلى مدينة تشونغتشينغ، شمال شرقي الصين، ليقابل رجل أعمال هناك ويقنعه بمشروعه التجاري، وفي النهاية حصل منه على مليون يوان (١١٨ ألف دولار أمريكي). تلك هي قصة

أحد مؤسسي شبكة إنترنت ماي سي دوت كوم الصينية، الذي فشل مشروعه التجاري الأول، ولكنه رفض الفشل، وقدم له رجل الأعمال مليون يوان أخرى. سر النجاح للمبتدئين في الأعمال التجارية كما يصفه ما يون، مؤسس ورئيس شبكة على بابا دوت كوم، أشهر موقع تسوق على الإنترنت، هو أن تفعل شيئا لا يجرؤ، أو لا يرغب، الفرد العادي أن يفعله.

ولا شك أن نمو الاقتصاد الصيني بمعدلات عالية وتوفير البيئة السياسية للقطاع الخاص يزكي طموح الشباب ويوفر حافزا لهم للتطلع إلى المستقبل. لقد أصدر مجلس الدولة (الحكومة) عام ٢٠٠٥، حزمة من الإجراءات لدعم نمو الاقتصاد الخاص، وكانت النتيجة أن عدد المشروعات الخاصة في الصين زاد خلال عام ونصف فقط من ذلك مليون مشروع. إنها حكومة تشجع الشباب ولا عجب أن وصل عدد المشروعات الخاصة في الصين إلى ستة ملايين ومائة وثلاث وثلاثين ألفا، مقارنة مع أربعة عشر ألفا ومائتين فقط في ثمانينات القرن الماضي. اللافت أن ٩٠٪ من أصحاب تلك المشروعات الخاصة تتراوح أعمارهم بين ٣٣ و٥٧ سنة، ويمثل الموظفون والمدراء والفنيون الذين تركوا وظائفهم الحكومية ثلثي أصحاب المشروعات الخاصة. طموح شباب الصين يرفع قدرات الاقتصاد الصيني حيث تصدر ٥٦ ألف مؤسسة خاصة منتجاتها إلى خارج الصين وتحقق عائدا بالعملات الصعبة لبلادها وصل ٢ر٥٣١ مليار دولار أمريكي عام ٢٠٠٥، أي ٧٨٪ من إجمالي عائد صادرات الصين، وتشغل تلك المؤسسات ٢٥ مليون فرد. ولك أن تتخيل وضع البطالة في الصين إن لم تكن الشركات الخاصة موجودة بهذا الشكل.

المناخ العام في الصين يشجع الشباب ليس فقط على ممارسة العمل التجاري وإنما العمل الاجتماعي والسياسي، فهذا البلد يتجه بقوة إلى تولي الشباب دفة القيادة، على المستويين الوطني والمحلي. وقد حددت إدارة التنظيمات باللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني أن يكون من بين الأعضاء التسعة للجنة الدائمة للجنة الحزب في كل مقاطعة ثلاثة على الأقل تحت سن الخمسين وواحد على الأقل تحت سن ٤٥ سنة. ويتزايد عدد مواليد ستينات القرن الماضي الذين يتقلدون مناصب سياسية رفيعة، ومن أبرز نماذجهم تشو تشيانغ، رئيس مقاطعة هونان، البالغ من العمر ٤٧ عاما وهو حاصل

على ماجستير في القانون، وهناك هو تشون هوا البالغ من العمر٤٥ سنة، الأمين العام الأول لسكرتارية اللجنة المركزية لعصبة الشبيبة الشيوعية، وهو حاصل على ماجستير في الاقتصاد الدولي، سون تشنغ تساي البالغ من العمر ٤٦ سنة، وزير الزراعة، وهو حاصل على دكتوراه في الدراسات الزراعية. ويتميز جيل القيادة الجديد من الشباب بأن لهم خلفية أكاديمية علمية أفضل من الأجيال السابقة، ويمتلكون رؤية أوسع وخبرة أكبر في الإدارة الاجتماعية ولديهم أيضا الرغبة والقدرة على تحقيق أهدافهم التي تحقق الخير لوطنهم. كل هذا يحدث في بلد كانت ثقافته السياسية تقدر كبار السن، حيث لم يكن يفضل من قبل أن تشغل الوجوه الشابة المناصب القيادية في صناعة القرار اعتقادا بأنهم غير ناضجين بشكل كاف لصنع القرار.

إن هذا الجيل من الشباب، رجال الأعمال والسياسيين، هم ثمار سياسة الإصلاح والانفتاح، وهم أيضا المستفيدون المباشرون من تلك السياسة. ونجاح رجل الأعمال أو السياسي الشاب في الصين لا يتطلب بالضرورة أن يكون الشاب مقربا من فلان، أو أن تربطه صلات ومصالح بصانعي القرار، الشرط الوحيد للنجاح هو الكفاءة والقدرة، وإذا عززتها خلفية أسرية أو انتماءات سياسية تكون إضافة وليس الأصل.

●●●

يترافق مع هذا الطموح والسعي إلى العالمية ظاهرة الإقبال الشديد على تعلم اللغة الإنجليزية، فالمؤسسات التعليمية، من رياض الأطفال إلى الجامعة، تدرس الإنجليزية، والهيئات الحكومية تجري اختبارات لموظفيها في الإنجليزية، والإذاعة والتلفزيون تقدم برامج تستعصي على الحصر لتعليم الإنجليزية، للصغار وللكبار. وكتب تعليم الإنجليزية تفوق ما سواها من فروع المعرفة، الإنجليزية للمطاعم والفنادق، والإنجليزية لسائقي التاكسيات، والإنجليزية للخادمات في البيوت، والإنجليزية للشرطيين، وهلم جرا. الإنجليزية باتت رمزا للانفتاح والتقدم والعولمة. والطالب في الصين يقال له عن أهمية الإنجليزية منذ أن يبدأ الدراسة الابتدائية، ويستهلك في دراسة الإنجليزية ربع وقته في

المرحلة الإعدادية وثلثه في المرحلة الثانوية وتقريبا نصفه في المرحلة الجامعية، ولمن شاء مواصلة الدراسة في دول ناطقة بالإنجليزية يواجه امتحانات أخرى، CET، TOFEL، IELTS. الدولة الصينية كلها تتعلم الإنجليزية، وقد استثمر كثيرون هذه الظاهرة فقد أعلنت سيدة أمريكية في أجهزة الإعلام أن ثمة جزءا في لسان الفرد الصيني يحول دون نطقه الكلمات الإنجليزية بطلاقة، وقالت إن لديها طريقة لإزالة هذا الجزء، وحصدت آلاف الدولارات من الحالمين بنطق الإنجليزية كأهلها.

موارد كثيرة تنفق على تعليم الإنجليزية في الصين، والمبررات جاهزة.. السائحون الذين يتزايد عددهم، فالصين ستكون عام ٢٠٢٠ أكبر مقصد سياحي في العالم، وفقا لمنظمة السياحة العالمية، وأولمبياد ٢٠٠٨، والشركات الأجنبية والمشتركة، والسفر للدراسة في دول ناطقة بالإنجليزية.

لقد أصبحت الإنجليزية، إضافة إلى اللغة الصينية والرياضيات، الثلاث مواد الإجبارية لاجتياز امتحان القبول بالجامعات، وهذا يعني أن من لا يريد تعلم الإنجليزية، أو أن مواهبه لا تؤهله لإجادتها، يُحرم من فرصة الدراسة الجامعية، حتى وإن كان عبقريا لا يجود الزمان بمثله في المواد الدراسية الأخرى. دروس قراءة وكتابة اللغة الصينية ألغيت من الكليات في حين تزداد دروس الإنجليزية، ويمضي الغالبية من طلاب الجامعات وقتهم وجهدهم في دراسة الإنجليزية على حساب العلوم الأخرى. هذا الوضع المميز لدراسة الإنجليزية أدى إلى عدم توازن في تخصيص الموارد التعليمية، المحدودة أصلا، والنتيجة أن عدد العمال المهرة والفنيين في سوق العمل الصينية يتناقص، فعدد المدارس والمعاهد الفنية ينكمش أمام التوحش في عدد المعاهد التي تقدم دورات في الإنجليزية، الدورة الواحدة لمدة أسبوع واحد تتكلف سبعمائة دولار أمريكي. المزيد من الصغار الآن يختار لهم أولياء أمورهم مدارس لغات أجنبية بالمدن لضمان الحصول على درجات عالية في الإنجليزية تؤهلهم للدراسة في كليات القمة، فامتحان الإنجليزية إجباري في كل أنواع المدارس في الصين، فيما يرى عديد من الخبراء أن نظام امتحان الإنجليزية بات معوقا يحد من تنمية الكفاءات، فمهما بلغ علمك، تبقى فرصتك متواضعة إن لم تنطق الإنجليزية.

وكل صيني يتعلم الإنجليزية له أسبابه الخاصة، معظمهم يدرسونها من أجل الحصول على عمل جيد أو السفر للخارج أو للالتحاق بالجامعة. وقد قال موظف شاب صيني يدرس الإنجليزية:"في شركتي يُنظر إلى من لا يعرف الإنجليزية على أنه متأخر." ويدرس البعض الإنجليزية برغم عدم حاجتهم لها اعتقادا بأن معرفة الإنجليزية تتيح لهم فرص عمل أفضل مع اندماج الصين في العالم يوما بعد يوم.

حسب استطلاع أجري في ثماني مدن، منها بكين وشانغهاي، شمل ألفا وخمسمائة فرد، قال ٥٥ر٤٪ منهم إنهم درسوا أو يدرسون الإنجليزية، وقال ٢ر٢١٪ إنهم يستعدون لدراسة الإنجليزية في غضون الستة أشهر القادمة. أما أهدافهم من الدراسة فهي رفع المستوى في الإنجليزية والحصول على المعلومات والاستعداد للامتحان وحاجة العمل والاستعداد للبحث عن عمل. وحسب ليو وي، نائبة رئيس معهد قياس الرأي العام بالصين :"الذين يتعلمون الإنجليزية لا يسعون إلى تحقيق هدف مادي أساسا، فقد جاء هذا الهدف في الترتيب السادس لأسباب دراسة الإنجليزية، في حين جاء هدف رفع مستوى الإنجليزية في المرتبة الأولى."

بالنسبة للأطفال والشباب، الهدف من دراسة الإنجليزية هو الالتحاق بالجامعات. حسب استطلاع عن وضع دراسة الإنجليزية في الصين لمن تقل أعمارهم عن ٢٣ سنة، أجرته شبكة www.netbig.com، فقد جاء ترتيب أسباب دراسة الإنجليزية كما يلي: السفر للخارج، الحصول على شهادة، ثم رفع المستوى في الإنجليزية.

والظاهرة الملحوظة هي أن معظم الصينيين الذين يمضون أوقاتا طويلة في تعلم الإنجليزية لا يحققون نتيجة مرضية. وفق استطلاع أجراه مركز استطلاعات الرأي لصحيفة شباب الصين وشبكة إنترنت www.tencent.com، شمل ٩٦٤٤ فردا، ، قال ٥ر٣٤٪ منهم إنهم يمضون من ساعتين إلى أربع ساعات في دراسة الإنجليزية كل يوم، وقال٨ر١٤٪ إنهم ينفقون أكثر من أربع ساعات في دراسة الإنجليزية يوميا، وقال ٩ر٤٪ إنهم يتعلمون الإنجليزية أكثر من ثماني ساعات كل يوم. وقال بعضهم :" أنفقت وقتا طويلا

في دراسة الإنجليزية عندما كنت طالبا بالجامعة، ولكن لا أستخدمها في عملي، لو كنت أعلم ذلك، كنت درست أشياء أخرى".

إذا كان الذين يستعدون للسفر إلى الخارج يشعرون بأن مستواهم في الإنجليزية متواضع، فإن الذين يستخدمونها في أعمالهم يعانون من مشكلة نفسية، فهم حصلوا على شهادات متعددة في الإنجليزية، ولكنهم لا يستطيعون أن يستخدموا هذه اللغة في أعمالهم بشكل جيد.

يوجد في الصين ستون ألف مترجم محترف للغة الإنجليزية في حين تحتاج سوق الترجمة بالصين إلى حوالي ٥٠٠ ألف مترجم بالإنجليزية. حسب أرقام الجمعية الصينية للترجمة، يوجد حوالي ثلاثة آلاف شركة ترجمة في الصين، منها حوالي أربعمائة في بكين، ولكن معظمها شركات صغيرة الحجم، تستأجر طلابا للعمل لديها والنتيجة أن مستوى الترجمة يكون متفاوتا.

ومن بين من الثلاثمائة مليون صيني الذين يعرفون الإنجليزية أكثر من مائة مليون طالب والسبب هو أن النجاح في امتحان اللغة الإنجليزية شرط للحصول على الشهادة الجامعية في الصين. ويحرص الآباء على أن يؤدي أطفالهم الامتحان العام للإنجليزية منذ الصف الثاني أو الثالث الابتدائي، لتأهيلهم للالتحاق بمدارس إعدادية مميزة. نتيجة كل ذلك هي أن الإنجليزية أصبحت مرتبطة بالحصول على شهادة وليس بمستوى حقيقي أو حاجة فعلية في العمل.

المدافعون عن نشر الإنجليزية على أرض التنين لديهم المبررات، فالصين عضو بمنظمة التجارة العالمية، وتعاملات الصين مع الخارج تتزايد بشكل كبير، ثم والأهم أن الصين تستضيف دورة الألعاب الأولمبية عام ٢٠٠٨ في بكين، وهذا يعني الحاجة إلى جيش من المترجمين، ويعني الحاجة إلى أن يكون كل موظف مدني وشرطي وبقال وسائق تاكسي وعامل نظافة في فندق، بل والمواطن العادي في الشارع، يتحدث الإنجليزية ليساعد "الضيوف القادمين من بعيد"، وعليه دشنت العاصمة حملة لأن يتحدث عشرة

ملايين من سكان المدينة، البالغ عددهم أربعة عشر مليونا، اللغة الإنجليزية بحلول عام ٢٠٠٨. وفي شانغهاي مائة مدرسة التعليم فيها ثنائي اللغة، بالإنجليزية والصينية، وعشرون في المائة من رياض الأطفال بها تدرس اللغة الإنجليزية. البعض بدأ ينتبه لخطورة أن يبدأ الطفل الصيني تعليمه بحرف أجنبي، كما يحدث في عدد غير قليل من رياض الأطفال بالمدن الكبرى، ولهذا قررت لجنة التعليم في شانغهاي حظر تدريس الإنجليزية في رياض الأطفال وفصول ما قبل المدرسة.

الغريب أن الشكوى العامة التي سمعتها من أجانب كثيرين خلال زيارتهم للصين هي صعوبة التواصل مع الصينيين بالإنجليزية!

ومازال، وسيظل، المجتمع الصيني الجديد يتغير بسرعة عالية بقدر ما نرى في المستقبل، وسيظل تقييم هذا التغير متفاوتا، ما بين المدح والقدح والترحيب والإنكار.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الخامس

الحالة الدينية في الصين

ربما يرى البعض أن عنوان "الحالة اللادينية في الصين" هو التعبير الأكثر دقة في وصف علاقة الصينيين مع الأديان، وبخاصة عندما نعني الديانات السماوية، فوفقا للأرقام الحكومية الرسمية الصينية، لا تزيد نسبة من لهم عقيدة دينية في الصين عن ١٠٪ من المليار وثلاثمائة وعشرين مليون صيني، فأرقام الحكومة الصينية تقول إن الصين بها نحو مائة مليون فرد يدينون بالعقائد الرئيسية الموجودة بها وهي البوذية والطاوية والإسلام والمسيحية.

وإذا كان قدماء المصريين دعوا إلى عقيدة التوحيد قبل آلاف السنين، حيث صار أمون رع الإله الأوحد الذي خلق نفسه، نجد أن الصينيين اعتقدوا في تعدد الآلهة منذ وقت مبكر في التاريخ. وقصة الخلق في الثقافة والميثولوجيا الصينية تختلف في جوانب كثيرة عن قصة الخلق في الأديان السماوية، حيث تذهب الأسطورة الصينية إلى أن الدنيا كانت عبارة عن بيضة كبيرة مظلمة من الداخل وفي قلبها بان قو، الذي يعتبره الصينيون خالق كل شيء، الذي فصل السماء عن الأرض باستخدام فأس ضخم وبعد فصلهما وقف بينهما رافعا السماء برأسه وواضعا الأرض تحت قدميه. كان طول بان قو يزداد يوما بعد يوم واستمر الحال على هذا النحو ثمانية عشر ألف سنة، حتى باتت المسافة بين الأرض والسماء شاسعة، وأصبح بان قو ماردا عملاقا. بعد موت بان قو تحولت عيناه إلى الشمس والقمر وصارت أطرافه الجبال، أما دمه فأصبح البحار والأنهار والبحيرات وتحولت أوتاره وشرايينه إلى الطرق أما لحمه فأصبح الحقول وصار شعر رأسه النجوم وصار جلده وشعر جسمه الزهور والعشب والشجر وتحول عظمه إلى المعادن والأحجار، أما نفَسُه فتحول إلى الريح والسحب، وصار عرقه المطر والندى.

وأبو البشـر عند الصينيين ليس آدم، وإنما فو شـي، وأمهم ليسـت حواء وإنما نوي وا، فوفقا لأسـطورة صينية أخرى، مسـار الأحداث فيها يختلف قليلا عن الأسطورة السابقة، كانـت السـماء والأرض في البدء شـيئا واحـدا. فالكون كان كتلة هائلـة بدائية من الهيولي على شـكل بيضة عملاقة. داخل هذه البيضة كان ينام الخالق، بان قو، وبعد ثمانية عشـر ألـف عام اسـتيقظ بان قو ليجد نفسـه محاطـا بالعتمة، وعندما لم يعـد قادرا على تحمل الانقباض، أخذ فأسـا عظيما وراح يضرب به حتى انشقت بيضة الهيولي التي تحيط به.

وحسـب الأسطورة، أدى انشقاق البيضة، أو الهيولي- المادة اللامتشكلة التي يُفترض أنهـا سـبقت وجـود الأرض- إلـى حدوث اصطـدام رعدي انطلـق منه النـور وعناصر يانغ النقية وصعدت إلى أعلى لتصبح السماء، أما العتمة وعناصر ين الكثيفة فتجمعت لتصبح الأرض. بهـذه الطريقـة تفرقـت كتلة الهيولـي البدائية إلى السـماء والأرض، وخُلق الكون. تؤكـد هـذه الأسـطورة على أن يـن ويانغ هما العنصران الأساسـيان للخلق، وأن كل شـيء، حتـى البشـر، نتيجـة لتفاعلهما. وبعد أن تشـكل العالـم خَلقت الإلهة نوي وا في سـتة أيام أنـواع الحيوانـات المستأنسـة: الطيور، الكلاب، الغنـم، الخنازير، المواشـي والخيل. وفي اليوم السـابع اسـتخدمت الطين لتشكيل هيئة الإنسـان. وكانت نوي وا مسؤولة عن حماية البشـر بينمـا كان زوجها فو شـي مسـؤولا عن الزراعة والقنـص. أما اللذان أنجبا البشـر فهما نوي وا، إلهة القمر، وزوجها فو شي، إله الشمس. وهكذا نلاحظ التداخل بين فكرة الألوهية والبشرية عند الصينيين، الذين لم يعتقدوا في وجود قوة غيبية وراء هذا الكون.

●●●

وقد اتخذ الصينيون لكل شـيء إلها؛ للسـماء وللأرض وللنار وللماء الخ. ومثلما الحال في ثقافات مصر القديمة والهند القديمة حملت ثقافة الصين القديمة مسـحة من الفكر الديني- بالمدلول الصيني- فبحلول القرن الثامن قبل الميلاد، كانت مكانة الآلهة، التي هي من ابتكار الناس، تتجاوز مكانة الفرد. وفي القرن السـادس قبل الميلاد أسـس الفيلسوف الصيني كونفوشـيوس (كونغ تسـي) (١٥٥ – ٤٧٩ ق.م) مدرسته الفكرية التي كانت بمثابة

العقيـدة الدينيـة للصينيين خـلال الفترات اللاحقة. أكدت الكونفوشـية علـى قيمة الفرد وغرس المبادئ الأخلاقية الشخصية ومن ثم أهمية تطوير الشخصية الأخلاقية السامية. وأكد كونفوشـيوس علـى مفهوم رن (النزوع إلى الخير) ومفهوم لي (الطقوس والمراسـم)، وهما المفهومان اللذان أصبحا لُب المدارس الفكرية الكونفوشية اللاحقة.

وقد اعتقد كونفوشـيوس بأن النزعة الخيرية يتم التعبير عنها بأربع طرق. الأولى، أن جوهر النزعة الخيرية يتجسد في المخلوقات البشرية وليس في الآلهة. وأولى كونفوشيوس شـؤون البشـر أهمية أكبر من شـؤون السـماء، حيث اعتقد أن علاقات البشـر الأخلاقية، كتلك التي بين الحاكم والمحكوم، وبين الأب والابن، صورة مصغرة للعلاقات الاجتماعية. واعتقد بأن الذين حققوا النزعة الخيرية، ومن ثم لديهم شخصية أخلاقية سامية، يحبون كل البشـر. وتؤكد الكونفوشـية على أن سلوك الفرد يجب أن يخضع للمتطلبات الأخلاقية للمجتمع، وإذا كان العامة من الناس قادرين على أن يدرءوا أنفسـهم عن رؤية أو سـمع أو قول أو فعل أي شـيء يتناقض مع المعايير الأخلاقية والسـلوكية للمجتمع فإن كل علاقة، اجتماعية أو سياسية أو شخصية، تقترب من التناغم لعالم مثالي.

مـن هنـا ندرك أن كونفوشـيوس أسـس تعاليمه علـى متطلبات الحيـاة الواقعية وليس علـى تعاليـم إلهية ولـم يتحدث عن البعث أو الحسـاب، وغيرها من القواعـد والمنطلقات الأساسية للأديان السماوية.

وما يقال عن الكونفوشـية يقال عن الطاوية التي دعت إلى السـمو فوق شـؤون الدنيا كوسـيلة لحل المشـاكل. فقد اعتبر لاو تسـي، وتشـوانغ تسي أن مسـألة كيفية التعامل مع العالـم الخارجـي، وليـس العلاقة مع الرب، هـي القضية الأكثر أهميـة التي يواجهها الفرد علـى الإطـلاق. وفـي رأيهمـا، أن الفـرد باختياره الانفصـال عـن الدنيا يمكنـه أن يتجنب مخاطرها ويحافظ على حريته في حياته، ولكي يحقق أعلى درجات السمو من الضروري أن يسـتوعب مفهـوم الطـاو أي السـراط. وتؤكد الفلسـفة الطاوية على أنـه برغم أن كافة الأشـياء موجـودة فـي حالة من التحـول، فإنها أيضـا تمتلك نظاما فطريـا للتحول الدائم.

هذا التحول الذي لا علاقة له بالتغير الخارجي هو الطاو. وفهم الطاو يمكّن الفرد من أن يحيى سعيدا بغض النظر عن تقلبات الطبيعة والمجتمع.

ولكن الصينيين القدماء، مثل قدماء المصريين، اعتقدوا بأن الروح خالدة وأن الإنسان بعد الموت يواصل الحياة بطريقة مشابهة للحياة على الأرض، واعتقدوا أن القبر هو دار حياة المرء بعد الموت، ولهذا السبب كانت قبور الصينيين قديما تتميز بالجلال والعظمة بشكل يعبر عن مكانة ساكنها، وكانت مقابر الأباطرة تزود بكافة احتياجات المتوفى لحياته الأخرى، ومن أشهر نماذج مقابر الأباطرة مقبرة تشين شي هوانغ، أول إمبراطور لأسرة تشين، الذي وحد الصين عام ٢٢١ ق.م. هذا الضريح الذي يعتبر مدينة شاملة تحت الأرض تغطي ٥٦ر٢٥ كيلومتر مربع يحتوي على الجيش الشهير من تماثيل الجنود والخيول الصلصالية الذي اكتشف جزء منه فقط. إنها حالة تذكرك بأهرامات مصر التي بنيت كقبور للملوك الفراعنة الذين آمنوا بخلود الروح أيضا.

●●●

كانت البوذية أول عقيدة دخلت إلى الصين من خارجها، قادمة من الهند في أواخر أسرة هان الغربية (٦٢٠ ق.م – ٢٤م). ولكن مع امتزاجها بالثقافة الصينية ظهر شكل جديد من البوذية الصينية يختلف بوضوح عن البوذية الهندية التي تدعو إلى الزهد الصارم والانعزال والتأمل لوقت طويل. وقد صين الصينيون البوذية، أي أعطوها طابعا صينيا، ففي القرن السابع الميلادي اعتبر الراهب البوذي الصيني هوي ننغ (٦٣٨ – ٧١٣م) أن التهذيب الذاتي منعزلا عن حياة المجتمع لا يمكن أن ينجح، واعتقد بأن البوذي يمكن أن يمارس التهذيب الذاتي خلال حياته وعمله، بل إن الفلاح الأُمي يمكنه تحقيق التنوير طالما أنه يعمل بجد ويفي بمسؤولياته الدنيوية. هذه الطائفة البوذية التي وضع هوي ننغ أصولها تسمى بوذية تشان، التي تدعو إلى التحرر من قيود تعاليم البوذية وتشجع على التفكير الحر والجدل بين أتباعها كوسيلة للمعرفة، أي أنها سبقت جدلية هيغل بأكثر من ألف سنة.

وعلى الرغم من أن البوذية الصينية واصلت التأكيد على أهمية الأسفار البوذية فإنها توحدت مع الأفكار الكونفوشية والطاوية الصينية وانتهت إلى الاندماج التام مع الثقافة الصينية ذات التعددية الواضحة.

وكان الإسلام أول عقيدة إلهية سماوية عرفتها الصين على نطاق واسع ورسمي، وكان ذلك في القرن السابع الميلادي، وقد ارتبط دخوله بقوافل التجارة عبر البر والبحر. أما المسيحية الكاثوليكية فقد طرقت أبواب الصين في القرن الثالث عشر، ولكن البداية الحقيقية لانتشارها كانت في أربعينيات القرن التاسع عشر مع تزايد أعداد المبشرين، وكانت المسيحية البروتستانتية آخر عقيدة سماوية وصلت الصين، وتحديدا عام ١٨٠٧م.

ومن بين كل هذه العقائد، الطاوية هي العقيدة الوحيدة ذات المنشأ الصيني، والبوذية هي الأطول تاريخا في الصين، فقد دخلتها منذ القرن الأول الميلادي، ومن بعدها الطاوية التي تشكلت في القرن الثاني. ومن الصعب تحديد عدد معتنقي الأديان في الصين، وحسب ما جاء في الكتاب الأبيض الصادر عن مكتب الإعلام بمجلس الدولة الصيني تحت عنوان – «حرية الاعتناق الديني في الصين» في عام ١٩٩٧، بلغ عدد المسيحيين الكاثوليك أكثر من أربعة ملايين نسمة؛ وعدد المسيحيين البروتستانت حوالي عشرة ملايين نسمة. ثم أعلنت جمعية الأديان الصينية أنه وفقا للإحصاء الذي أجرته في عام ٢٠٠٣ وصل عدد الكاثوليك خمسة ملايين نسمة، وعدد المسيحيين البروتستانت ١٦ مليونا. أما عدد المسلمين في الصين فيتم حسابه على أساس عدد أفراد الأقليات القومية العشر التي تصنف في الصين على أنها القوميات الإسلامية ومن ثم فإن عدد المسلمين يناظر عدد أبناء تلك القوميات ويبلغ حاليا حوالي ٢٢ مليون نسمة، وفقا للجمعية الإسلامية الصينية. أما معتنقو البوذية والطاوية فقد يكون من المستحيل معرفة أعدادهم لعدم وجود شعائر معينة أو سجلات تحدد أتباع أي منهما، خاصة أن بطاقة هوية الفرد في الصين وإن كانت تذكر انتماءه العرقي فإنها لا تشير إلى انتمائه الديني.

ويُلاحظ أن الغالبية العظمى من معتنقي الأديان في الصين، حتى وقت قريب، ينتمون للأقليات القومية، وهي أقليات لها امتداد في دول مجاورة للصين، فنصف عدد أبناء الأقليات القومية الخمس والخمسين المعترف بها رسميا يؤمنون بدين أو بآخر، في حين لا يتجاوز عدد معتنقي الأديان من أبناء قومية هان ١٠٪، وفقا للأرقام الحكومية الرسمية، معظمهم يؤمنون بالبوذية والطاوية والمسيحية، بشقيها الكاثوليكي والبروتستانتي. ولبعض الأقليات القومية عقيدة دينية واحدة، مثل قومية التبت وقومية منغوليا اللتين تعتنقان البوذية التبتية (اللامية)، ومثل قومية هوي وقومية الويغور والثماني قوميات الأخرى التي تدين بالإسلام.

●●●

ولكن مجلة "دونغفانغ لياووانغ" الصينية تضمنت في عددها الأول لشهر فبراير عام ٢٠٠٧، دراسة جديدة تدعو إلى إعادة النظر في الحالة الدينية بالصين وتغير النظرة السائدة عن الصينيين بشأن علاقتهم مع العقائد، وما نقصده بالعقائد هنا لا يقتصر على الأديان السماوية الثلاثة، ولا حتى على البوذية والطاوية، وإنما يشمل عبادة شخصيات أسطورية مثل الملك التنين وإله الثروة والأسلاف وغيرها.

الدراسة المثيرة التي قام بها اثنان من العلماء الصينيين المتخصصين في الدراسات الاجتماعية هما البروفيسور تونغ شي جون والبروفيسور ليو تشونغ يو، وهما من أساتذة جامعة شرق الصين للمعلمين في شانغهاي، شملت عينة من ٤٥٠٠ فرد واستمرت من عام ٢٠٠٥ حتى نهاية عام ٢٠٠٦، وكان من نتائجها أن نحو ثلث الصينيين فوق سن السادسة عشرة، وتحديدا ٣٠٠ مليون صيني، يؤمنون بعقيدة أو بأخرى، أي ثلاثة أضعاف الرقم المعلن من جانب الهيئات الرسمية. وقد انتهت الدراسة إلى نتيجة مشابهة للمستقر عليه بشأن العقائد الرئيسية في الصين، فهي حسب الدراسة البوذية، الطاوية، المسيحية، الكاثوليكية والبروتستانتية، والإسلام، فأتباع هذه العقائد يمثلون ٦٧ر٤٪ من إجمالي عدد من لهم دين. وكشفت الدراسة عن توجه قوي لإعادة إحياء العقائد الصينية التقليدية

القديمة، حيث يمثل الذين يعتنقون البوذية والطاوية أو يعبدون شخصيات أسطورية مثل الملك التنين وإله الثروة ١ر٦٦٪ من إجمالي أصحاب العقائد. وحسب الدراسة يبلغ عدد البروتستانت ٤٠ مليونا وليس ستة عشر مليونا، كما تقول الأرقام الرسمية. وإذا كانت الدراسة لم تذكر عدد معتنقي الإسلام في الصين، فإنه بجمع عدد الذين يعتنقون البوذية والطاوية والذين يعبدون الشخصيات الأسطورية وهو ٢٠٠ مليون مع عدد البروتستانت وهو ٤٠ مليونا وطرحهما من إجمالي أصحاب العقائد بالصين يكون الناتج ستين مليون مسلم وكاثوليكي، وبافتراض أن عدد الكاثوليك تضاعف من خمسة ملايين إلى خمسة عشر مليونا، فإن عدد المسلمين يكون خمسة وأربعين مليونا وليس ٢٢ مليونا!

ولاحظت الدراسة أن نسبة كبيرة من شباب الصين انضموا إلى ذوي العقائد منذ عام ٢٠٠٠، وهو أمر يختلف عما كان قبل عشرات السنين حيث كان معظم معتنقي الأديان في الأربعينات من عمرهم أو أكثر، حيث أن ٦٢٪ من معتنقي الأديان الذين شملتهم الدراسة يتراوح عمرهم بين ١٦ و٣٩ سنة، بينما ٦ر٩٪ فقط فوق الخامسة والخمسين. وعن أسباب اعتناقهم للأديان، قال ١ر٢٤٪ ممن شملتهم الدراسة: "الدين يبين الطريق الحق في الحياة"، وقال ٢٨٪: "العقيدة تساعد في شفاء العلل وتقي من الكوارث وتضمن أن تسير الحياة بسلاسة".

المعلومات الجديدة التي كشفت عنها هذه الدراسة ستؤدي يقينا إلى إعادة دراسة الحالة الدينية في الصين، وإلى إعادة النظر إلى الصين كمجتمع لا عقيدة له. ولكن مسار دخول تلك العقائد إلى الصين ومدى قدرتها على التكيف والتعايش في المجتمع الصيني لم يكن واحدا كما سنوضحه فيما يلي.

●●●

البوذية

على عكس الديانات الأخرى في الصين، لم تأت البوذية إلى الصين وإنما الصين هي التي سعت إليها، حيث تشير السجلات التاريخية الصينية إلى أن الإمبراطور هان مينغ

دي، من أسرة هان الشرقية (٢٥ - ٢٢٠م)، أرسل مبعوثين له في العام الرابع والستين الميلادي إلى الهند، التي كانت تسمى آنذاك بالمناطق الغربية، لاستكشاف العقيدة التي سمع أنها منتشرة هناك. بعد ثلاث سنوات أمضاها مبعوثو الإمبراطور في أرجاء الهند، عادوا إلى العاصمة، مدينة لويانغ، عاصمة الصين آنذاك، ومعهم الأسفار البوذية وتماثيل بوذا، وعلى الفور أصدر الإمبراطور هان مينغ دي أمرا ببناء معبد بايما في مكان قريب من لويانغ من أجل إقامة وحياة الرهبان والبدء في ترجمة الأسفار البوذية التي جاءوا بها.

ولا يخلو دخول البوذية إلى الصين من أسطورة، فيقال إن الإمبراطور هان مينغ دي رأى في منامه رجلا ذهبيا طوله أكثر من خمسة أمتار تتألق قمة رأسه وهو يحوم في قاعة العرش. في الصباح التالي اجتمع الإمبراطور بوزرائه وقص عليهم ما رأى، فقال له وزير اسمه فو يي إنه سمع بوجود إله في المناطق الغربية، والتي يقصد بها البلدان الواقعة غرب الصين، اسمه بوذا، وهو ذات الرجل الذي رآه الإمبراطور في منامه. ولهذا قرر هان مينغ دي أن يرسل مبعوثين إلى الهند، الواقعة غرب الصين، ليأتوا له بالعقيدة البوذية. وتذهب الأسطورة إلى أن مبعوثي الإمبراطور التقوا في بلاد دايوتشي، التي هي أفغانستان اليوم، بالراهبين كاسياباماتانغا ودارمارتين، القادمين من الهند للتبشير بالدين الجديد. ومن هناك عاد المبعوثون مع الرجلين ومعهم الأسفار البوذية باللغة السنسكريتية الهندية القديمة وصورة لساكياموني من اللباد الأبيض إلى لويانغ. كانت الأسفار محمولة على جواد أبيض وقد كان الإمبراطور بنفسه في استقبالهم، وأمر بنزول الراهبين في معبد هونغلو الخاص للمبعوثين الأجانب. وفي العام التالي شيد مقر إقامة خاصا للراهبين، وغير اسم المعبد إلى بايما، أي الجواد الأبيض.

ربما لهذا السبب اعتبر الصينيون البوذية، في بداية دخولها إلى الصين، نوعا من السحر واعتقدوا أن بوذا كائن سماوي وآمن به عدد قليل من أفراد الطبقة العليا. في ذلك الوقت كان عدد المعابد قليلا، وكانت تبنى كمساكن لإقامة الرهبان الأجانب فقط. وقد حظرت الحكومة على أبناء قومية هان حياة الرهبنة، وكان النشاط البوذي الرئيسي هو ترجمة الأسفار البوذية.

لكن المرحلة التاريخية من القرن الثالث إلى القرن السادس، هيأت الظروف لانتشار البوذية في الصين على نطاق واسع، ففي تلك الفترة كانت الصين تعيش حالة من التفكك والاضطراب الاجتماعي، فلاذ الناس إلى مذهب فلسفي صيني قديم معروف باسم شيوانشيوي، وكان كثير من أفكار هذا المذهب تلتقي مع البوذية. وقد أدرك الرهبان البوذيون هذا التوجه الأخير فأقبلوا على دراسة أفكار شيوانشيوي واستفادوا منها في دعوتهم إلى البوذية فدخلها كثير من الناس من مختلف فئات المجتمع. وفي فترة الأسرات الجنوبية والشمالية التي امتدت من سنة ٤٢٠م إلى سنة ٥٨٩م ازدهرت حركة ترجمة أسفار مذاهب كثيرة من البوذية الهندية، وواكب ذلك بداية انقسام البوذية الصينية إلى مذاهب مختلفة وتأصل البوذية في البلاط الإمبراطوري إضافة إلى انتشارها بين عامة الشعب، فبني كثير من المعابد والأبراج البوذية المعروفة باسم الباغودا وكثر عدد الرهبان والراهبات.

●●●

وقد أدرك المبشرون بالبوذية منذ البداية المكانة التي تحتلها الأفكار الكونفوشية لدى الصينيين، فحرصوا على استيعاب تلك الأفكار، واستطاعوا التوفيق بين الدعوة البوذية إلى اعتزال الدنيا ومبادئ الكونفوشية الداعية إلى الانخراط في الحياة، وبين العقيدة البوذية وقوانين حكم الدولة وبين القواعد الدينية والمبادئ الأخلاقية، وباختصار استطاعوا تحويل البوذية من دين فقط إلى دين ودولة.

البوذية تؤكد على تحرير الروح ولا تدعو إلى تحمل واجبات الأسرة، ولكن الأسرة، بمفهومها الواسع والضيق، مفهوم مستقر في العقل الصيني، حيث كان الولاء للإمبراطور وبر الوالدين معيار الفرد الصالح في الصين القديمة. أمام هذا الوضع، كيَّف المنظرون البوذيون دعوتهم بما يتلاءم مع المجتمع الصيني، فدعوا إلى الولاء للإمبراطور ودافعوا عن سلطة الحكم الدنيوية وإلى بر الوالدين. وبحلول فترة أسرة سوي التي امتد حكمها من سنة٥٨١م إلى سنة ٦١٨م كانت البوذية قد تغلغلت في نسيج المجتمع الصيني بكل

فئاته وأطيافه، وقد تكرس هذا التوجه في فترة أسـرة تانغ التي تلت أسـرة سـونغ واستمر حكمها إلى سـنة ٩٠٧م. وقد تجسـدت المكانة التي وصلت إليها البوذية المتصينة آنذاك في قيام الحكومة بالإشراف على ترجمة الأسفار البوذية وظهور كثير من العلماء البوذيين، بـل وقيام مبشـرين بوذيـين صينيين بالدعوة إلـى البوذية خارج الصين؛ في شـبه الجزيرة الكورية واليابان.

كانـت فترة أسـرة تانغ في الصين القديمـة هي الأكثر ازدهارا في كافة المجالات وقد ارتبطت البوذية في تلك الفترة بالسـلطة. ومع سـقوط أسـرة تانغ بدأ تأثير البوذية يخبو تدريجيـا حتـى أواخر أسـرة تشـينغ عندما بـدأ اهتمام من نـوع آخر بالبوذيـة، هو اهتمام أكاديمي بالأساس أعاد إلى البوذية شيئا من تأثيرها.

●●●

ولكن الحديث عن البوذية في الصين يظل منقوصا إن لم يشتمل على التبت، فالبوذية التبتية التي تسـمى اللامية نسـبة إلى رجال الدين الذين يطلق عليهم اسـم اللامات، هي أحـد المذاهـب البوذيـة ويؤمن بهـا أبناء قوميـات التبت ومنغوليـا ويويقو ومنبـا ولوبا وتو وتشيانغ. وهذا المذهب ارتبط بما يسمى تناسخ بوذا، كما أن التبت تعتبر نموذجا للتداخل بيـن الدين والسياسـة، وفـوق هذا وذاك هناك الدالاي لاما، الذي يسـعى إلى فصل التبت عن الصين على نحو جعل البوذية التبتية مثار اهتمام كبير.

يعتقـد المؤمنـون بالبوذيـة التبتيـة أن الشـخص عندما يمـوت لا تموت معـه روحه بل تنتقـل منه لتسـتقر في بدن مولود جديد. وعلى هذا الأسـاس فـإن الزعيم الديني البوذي عندما يموت تنتقل روحه إلى شخص آخر لتستمر وتتواصل معه الروح. وأهم شخصيتين فـي سـلم الزعامـة الدينية في البوذية التبتيـة، هو الدالاي لاما والبنتشـن لاما، فهما بوذا الحي، أي الجسد الذي يحمل روح بوذا وفقا لتناسخ الأرواح، فعندما يموت الشخص تحل روحه في جسـد شـخص آخر وتسكنها إلى أن يغادر الجسد تبقى الروح وتنتقل إلى جسد جديـد، وهكـذا دواليـك. وعمليـة اختيار الدالاي والبنتشـن معقـدة وتتداخـل فيها عوامل

دينيـة وسياسـية. وفقـا للعقيـدة البوذيـة التبتيـة، بعد وفـاة بوذا الحي، سـواء الـدالاي أو البنتشن، يتم تحديد الشخص الذي حلت به الروح بعد أن فارقها الجسد باتباع سلسلة من الإجـراءات المعقـدة، من بينهـا الوصية التي يتركها بوذا الحي قبـل وفاته وتتضمن نبوءته بمـكان الشـخص الذي سـتنتقل إليه روحـه. وبوذا الحـي لا يذكر في وصيته اسـم المكان صراحـة وإنمـا يشـير إلى خصائـص ذلك المكان. وفي حـال لم يترك وصية يُسـتند إليها فـي تحديد المكان والشـخص يتم الاعتماد على الكهانة والتنجيـم. وفقا لتلك الاعتبارات ينتشـر رهبـان المعبد الذي أقام فيه بـوذا الحي قبل وفاته في مختلـف الأماكن المحتملة للبحـث عـن المولـود الجديد الذي خـرج إلى الحياة بعد وفاة بوذا الحي وسـكنت جسـده الروحُ المتناسخة.

والدالاي لاما للبوذيين التبتيين حاليا هو تنزين غياتسو، وهو الدالاي لاما الرابع عشر ويقيم في منفاه بالهند. أما البنتشـن لاما الحالي، وهو الحادي عشـر، فهو أردَني لوسـانغ تشـامبا لهونتشـوب تشـويغييجابو Erdeni Losang Qamba Lhunzhub Qoigyijabu الذي حل محل البنتشن لاما العاشر لوبسانغ ترينلي لهوندروب تشويكي غيالتسن Trinley Lhundrup Ghoekyi Gyaltsen Lobsang.

●●●

إضافـة إلـى اللاميـة يوجد بالصيـن عدة مذاهب أخـرى للبوذية هي بوذيـة بالي التي تشـبه عقيدة ماهيانا، ولكنها تؤمن بسـاكياموني فقط، ولا تعترف بالآلهة الأخرى، ولذلك يكـون تقديـم القرابين لسـاكياموني فقط فـي المعابد. وقـد دخلت بوذية بالـي في القرن السـابع تقريبـا إلى مقاطعة يونان، وانتشـرت بين أبناء قوميـة داي وقومية بولانغ وقومية آتشـانغ وقومية دآنغ بمناطق شيشـوانغبانا ودهونغ ولينتسـانغ وسـيماو وباوشان، ويؤمن كل أبناء قومية داي تقريبا بالبوذية.

والجهـة الرسـمية التي تمثـل البوذية في الصين هـي الجمعية البوذيـة الصينية، التي أنشـئت عـام ١٩٥٣، ومقرهـا في بكين، وتتولـى، وفقا لميثاقها، الدفاع عـن حرية العقيدة ومصالح البوذيين. وتصدر الجمعية مجلة شهرية هي "صوت البوذية".

وقد تطور التعليم البوذي من التعليم المعبدي- وهو نظام تعليمي شبيه بالتعليم المسجدي بين مسلمي الصين- إلى التعليم النظامي في أوائل القرن العشرين. ويوجد في الصين حاليا المعهد الصيني للعلوم البوذية والمعهد العالي للعلوم البوذية التبتية وعدد من المعاهد الإقليمية الأخرى.

●●●

الطاوية

الطاوية، وهي العقيدة الوحيدة ذات المنشأ الصيني، ظهرت في القرن الثاني الميلادي، عندما تأسست "طاوية وودومي" و"طاوية تايبينغ". الذي أسس طاوية وودومي اسمه تشانغ داو لينغ، وكانت منتشرة بصورة عامة في مقاطعة سيتشوان بجنوب غربي الصين وقد سميت بهذا الاسم لأن المؤمن بها كان عليه أن يقدم قرابين قدرها خمسة مكاييل، يسمى الواحد منها دو، من الأرز، فكلمة وودومي تعني الخمسة دو من الأرز. كان لاو تسي هو زعيم طاوية وودومي، بينما كتابها المقدس هو "داو ده جينغ"، لكن طاوية وودومي في ذلك الوقت كانت مجرد طاوية بدائية، وبعد أجيال من الانتشار والتطور اكتسبت مضمونها الديني الأساسي تدريجيا.

بعد القرن الثالث الميلادي، أصبح يُنظر إلى تشانغ داو لينغ على أنه هو السلطة السماوية، أو كما يسمى بالصينية تيانشي، فحل اسم "طاوية تيانشي" تدريجيا محل اسم "طاوية وودومي" وتوسع نفوذها في فترة أسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧م).

ظهرت طاوية تايبينغ في الوقت الذي ظهرت فيه طاوية وودومي ومؤسسها اسمه تشانغ جياو. كان وجودها الرئيسي في مقاطعة خبي بشمال الصين وقد أخذت اسمها من التزامها بما يعرف باسم "كتب تايبينغ المقدسة"، وبلغ عدد الذين اعتنقوها مئات الآلاف. وتذكر كتب التراث الصينية أن تشانغ جياو أسس طاوية تايبينغ بهدف تطبيق المبادئ السماوية والأرضية لتعليم وإنقاذ الناس وتحقيق ازدهار الأمة وسلامة الشعب. في عام ١٨٤ الميلادي، شن تشانغ جياو انتفاضة تايبينغ، التي استمرت عامين ولكنها فشلت بعد أن استطاعت السلطة الإمبراطورية قمعها، وهكذا تلاشت طاوية تايبينغ.

●●●

بعد قرون من الإصلاح والتجديد، أصبحت الطاوية عقيدة، جوهرها هو الروح الخالدة وانتشرت في مسارين، فقد استهدفت الطاوية من ناحية الفئات العليا بالمجتمع، وخاصة البلاط الإمبراطوري الذي دعم بعض الطاويين واستخدمهم في ترسيخ سلطته وفي البحث عن إكسير الحياة للأباطرة، الذين اعتقدوا بأن هذا الإكسير يمنحهم الخلود. ومن ناحية أخرى استهدفت الطاوية عامة الشعب وارتبطت بالسحر والتعاويذ والشعوذة وحظيت بعض ممارساتها، مثل ممارسات تفريج الكرب وعلاج المرض والتوسل إلى النعمة، بإقبال كبير لدى العامة. والحقيقة أن الطاوية الرسمية للبلاط لم تكن متناقضة مع الطاوية الشعبية، فكلتاهما كانت تعمل في إطار الشعوذة واستخلاص إكسير الخلود وتمارين تشيقونغ.

بلغت الطاوية ذروة مجدها في فترة أسرة تانغ (٦١٨ - ٩٠٧م) وأسرة سونغ (٩٦٠ - ١٢٧٩م)، فقد أعلن إمبراطور أسرة تانغ أن السلطة الإمبراطورية مفوضة إليه، واعتبر نفسه من سلالة زعيم الطاوية لاو تسي، فارتفعت مكانة الطاوية في هذه الفترة. وقد ربط الإمبراطور تشن تسونغ والإمبراطور هوي تسونغ وغيرهما من أباطرة أسرة سونغ، الطاوية بالسلطة السياسية عندما كانت أسرة سونغ تتعرض لتهديدات كبيرة من غزو الأقليات القومية الشمالية، فعمُرت المعابد الطاوية التي أمر الإمبراطور ببنائها أو أنشأتها السلطات المحلية بالزوار والمصلين وكانت تتبعها ضياع من الأرض والموارد؛ أما المعابد الشعبية، فكانت منتشرة في المناطق القاصية والأصقاع النائية.

خلال فترة أسرة مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤م) وأسرة تشينغ (١٦٤٤ - ١٩١١م)، أخذ نجم الطاوية يأفل تدريجيا، على الرغم من أن قليلا من الأباطرة ظلوا متعلقين بها، فقد أخذ تأثيرها الاجتماعي يتلاشى كنظام ديني مستقل رغم ظهور بعض المفكرين الطاويين المشاهير. ومن أبرز ملامح هذا الانحسار للطاوية أن المعابد البوذية حلت تدريجيا محل الأماكن التي كانت تنتمي إلى المقاصد الطاوية المقدسة بما فيها جبل آومي بمقاطعة سيتشوان وجبل هنغشان بمقاطعة هونان. غير أن الطاوية ظلت محتفظة بأسس اجتماعية وجماهيرية عميقة من حيث العادات والتقاليد الاجتماعية والثقافة والتقاليد الصينية.

●●●

الهدف الأسمى للطاوية هو حيازة الروح الخالدة وتهذيب النفس والروح، سعيا وراء العمر المديد. وحسب الطاوية، "الطاو" هو أصل الوجود وحاكمه، شامل لكل شيء، موجود في كل مكان وكل زمان، هو بداية كل الكائنات. لا وجود للكون أو للكائنات إلا بوجود "الطاو". وتعتبر الطاوية البقاء سعادة، فلا ألم إلا الموت وأسمى أمانيها هي العمر المديد، وحياة الإنسان ليست موقوفة على القدر، بل عليه نفسه، سواء ذلك فيما يخص البقاء أو الموت، الأجل الطويل أو القصير. يمكن للإنسان أن يتخلص من المرض ويطيل عمره، فيعمر ولا يهرم طالما أنه يُخلص في تهذيب نفسه وروحه وتهدئة باله وتثبيت روحه. وهناك العديد من مذاهب وطرق التعبد في تاريخ الطاوية، بما فيها تهذيب الروح وتهذيب الطعام وتهذيب التنفس وتهذيب الهيئة، وأكثرها شيوعا هو طريقة "استخلاص إكسير الخلود".

ينقسم استخلاص إكسير الخلود إلى إكسير الخلود الخارجي وإكسير الخلود الداخلي. يقصد بالأول استخلاص إكسير الحياة الذي إذا تناوله الإنسان، يعمر طويلا ولا يهرم. وقد بلغ هذا الاعتقاد ذروته في فترة أسرة تانغ، لكن عدد الذين ماتوا بسبب تعاطي إكسير الخلود لم يكن قليلا. وبحلول فترة أسرة سونغ أخذ نجم إكسير الخلود يأفل. بعد ذلك، اعتبر إكسير الخلود الداخلي النمط الرئيسي لتنسك الطاويين، وفيه يكون جسم الإنسان بمثابة الفرن ويتم تهذيب الروح وتشكيل إكسير الخلود داخل الجسم/ الفرن، ويمكن للإنسان أن يصير ملاكا طالما تشكل إكسير الخلود داخل جسمه. وبالطبع لم يعرف تاريخ الصين أحدا صار ملاكا بعد تعاطي إكسير الخلود، بيد أن إكسير الخلود الخارجي جعل الصينيين يتعرفون على كثير من المعارف والعلوم عن التعدين والكيمياء والطب من تجارب تحضير هذا الإكسير، واستفادوا منها في اختراع البارود الصيني. أما إكسير الخلود الداخلي، فساهم في تطوير ونشر تمارين تشيقونغ التقليدية الصينية، ومعظم تمارين تشيقونغ الشائعة حاليا في الصين مصدرها هو الطاوية.

●●●

والطاوية عقيدة متعددة الآلهة أساسها عبادة العالم السماوي. وحسب الطاوية، الملائكة لديها مهارات وقدرات خارقة، والعالم الذي تعيش فيه الملائكة يشبه مجتمع البشر، حيث هناك درجات اجتماعية صارمة ونظام إداري منتظم؛ يشرف كل مَلك على عمله المحدد في إدارة شؤون البشر ويتحمل المسؤولية عن نصح الإنسان بالتثقف والتعبد، في الوقت الذي يقوم فيه في عالم البشر بمختلف النشاطات لإظهار الخير ومعاقبة الشر وتخليص الإنسان من الفقر والكوارث وتبديد الشر ومعالجة الأمراض. الدرجة الأعلى في العالم السماوي هي الإله يوانشي والإله لينغباو والإله داودي وتسمى هذه الآلهة الثلاثة معا "سانتشينغ" والقاعة الرئيسية للمعابد الطاوية هي"قاعة سانتشينغ". أما الآلهة التي يعبدها المؤمنون من العامة، فعددها كبير، منها آلهة الأرض التي تشرف على معبد إله المدينة، وتكون مسؤولة عن قطعة صغيرة من الأرض، وآلهة الموقد وآلهة الباب التي تسيطر على كوارث وسعادة العائلة. ويعتقد المؤمنون بالطاوية، أن الآلهة التي تنهض بالأعمال المختلفة قادرة على حل كل المشاكل، فالتضرع إلى الملك التنين كفيل بإنزال المطر والتعبد لملك الحراسة يبعد الكوارث والتوسل إلى ملك الدواء يعالج المرض والتعبد لآلهة الثروة كفيل بتحقيق الثراء، وأداء الصلاة للأجداد يضمن سلامة الرحلة في البحر.

العالم المثالي الذي تدعو إليه الطاوية هو "الفردوس" الذي لا يقصد به فقط الجنة، بل هو موجود في عالم البشر. والجنة، وفقا للطاوية، في متناول البشر، حيث يمكن للإنسان العادي أن يحوز الروح الخالدة ويصبح ملاكا طالما يهذب نفسه، والمقصود بأن يصبح ملاكا وفقا للطاوية ليس أن روحه تدخل الجنة، بل أن يعمر جسم الإنسان طويلا، لذلك يمكن للإنسان أن يكون ملاكا حيا في عالم البشر ويصبح متساميا وحرا بعد دخول الجنة.

وحسب الطاوية تتناسخ الروح خمس مرات، وبعد الوفاة تدخل خمس ممرات، فالخير يدخل الممر الأول المؤدي إلى الجنة ليصبح ملاكا أو إلها؛ يؤدي الممر الثاني إلى المشيمة لمنح الروح حياة ثانية؛ يؤدي الممر الثالث بالروح إلى الطيور والحيوانات فتتناسخ إلى طيور وحيوانات؛ ويدخل الميت جائعا الممر الرابع؛ ويؤدي الممر الخامس إلى الجحيم. لذلك، تنصح الطاوية الإنسان بالإحسان وعمل الخير لتجنب آلام الجحيم.

●●●

مـن الصعـب إحصـاء عدد الذيـن يعتنقون الطاوية، فهـم لا يؤدون شـعائر دينية ثابتة، حيث يقوم بعضهم بتقديم القرابين للآلهة وحرق البخور في بيوتهم والبعض الآخر يذهب إلـى المعابـد الطاوية في أوقات معلومة لتقديم البخور. وتشـيع في الصين ظاهـرة اعتناق الفرد الواحد للطاوية والبوذية في آن واحد، وهؤلاء لا يمارسون شعائر دينية محددة، ولا يحرقون البخور ولا يصلون للآلهة إلا وقت الحاجة والضرورة، والطاويون يلوذون إلى تلك الشـعائر طلبا للسـلامة والنجاح والصحة والعافية، ولكن بعضهم يقيمها وفاء لاحتياجات تهذيب النفس والروح.

ويبلغ عدد المعابد الطاوية في الصين نحو ١٥٠٠ معبد، معظمها له قيمة أثرية كبيرة وتعتبر هذه المعابد مقاصد سياحية يؤمها كثيرون.

●●●

الجهة الرسـمية المعنية بشـؤون الطاوييـن في الصين هي الجمعيـة الطاوية الصينية التـي تأسسـت عـام ١٩٥٧ ويقـع مقرها في معبـد باييون الطـاوي ببكين. وتقيـم الجمعية مؤتمـرا وطنيا كل خمس سـنوات، وتتضمن مهام الجمعيـة وفقا للائحتها، التعبير عن آراء واحتياجات الأوسـاط الطاوية ومسـاعدة الحكومـة في تطبيق وتنفيذ السياسـات الدينية والقوانيـن المعنيـة؛ تعزيـز تطبيع النشـاطات الطاوية ومعارضة اسـتغلال الديـن لمزاولة أعمـال غير مشـروعة تخالـف القوانين الوطنية؛ إرشـاد وحـث الفرد الطاوي على حسـن إدارة الأماكن الدينية وتنقية الأجواء الطاوية؛ وتعزيز البناء الذاتي للطاوية ودفع الطاوييـن لخدمـة البنـاء الاشـتراكي؛ وتنظيم الأعمـال الإنتاجية والخدمـات الاجتماعيـة والأعمال الخيرية وتعزيز التهذيب الذاتي؛ إنشاء مدارس ومعاهد الطاوية وإرشاد منظمات الطاوية المحلية وإقامة الدورات التدريبية لإعداد متخصصي الطاوية؛ تخطيط نشاطات الشؤون الدينية الهامة والقيام بجمع وترتيب وبحث ونشر الكتب المقدسة.

●●●

الإسلام

لا يذكر أي مرجع تاريخا قاطعا لوصول الدعوة الإسلامية إلى الصين، ولكن الشائع في الكتابات الصينية هو أن رابع الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان أرسل مبعوثا إلى إمبراطور الصين في وقت ما سنة ٣٠ هجرية التي توافق ٦٥١ ميلادية. ويُعتقد أن هذا التاريخ هو الأكثر صحة، فهو قبل وفاة الخليفة الرابع بخمس سنوات. وقد وصل المبعوث إلى عاصمة إمبراطورية تانغ الصينية (٦١٨ – ٩٠٧م)، مدينة تشانغآن، وهي مدينة شيآن حاضرة مقاطعة شنشي حاليا، واستقبل الإمبراطور تانغ قاو تسونغ وفد الخليفة المسلم الذي أحاطه علما بالإسلام وأحوال دولة الخلافة وعادات المسلمين وثقافتهم. وثمة رواية أخرى تذهب إلى أن عام ٧١٤ ميلادية هو تاريخ دخول الإسلام إلى الصين عندما وصل القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي مدينة كاشغر على الحدود الغربية للصين وبعث بوفد يفاوض إمبراطور الصين، وقد قال الوفد للإمبراطور إن قائدهم أقسم أن لا ينصرف حتى يطأ أرض الصين، فأكرم الإمبراطور أعضاء الوفد وأغدق عليهم بالهدايا وحملهم صحافا من ذهب فيها تراب من أرض الصين، فوطأه الباهلي وأبرأ يمينه وانصرف، ولكن دعوة الإسلام بقيت.

وقد كانت فترة أسرة تانغ ومن بعدها أسرة سونغ الإمبراطورية (٩٦٠ – ١٢٧٩م) المرحلة الأولى لانتشار الإسلام في الصين، فقد بلغت الصين في فترة أسرة تانغ أوج ازدهارها وانتشارها العالمي وانفتاحها التجاري والفكري، في وقت أيضا كانت فيه الدولة العربية الإسلامية تعيش أزهى عصور توسعها الفكري والمكاني إبان العصرين الأموي والعباسي، وقد شهدت التجارة الصينية– العربية الإسلامية في تلك الفترة تطورا بالغا، فجاء الصين عدد كبير من التجار المسلمين، العرب والفرس، الذين كان يطلق عليهم في هذا العصر "فانكه" وأقام بعضهم في الصين لمدة طويلة. وقد توثقت علاقات الصين السياسية مع دولة الإسلام لدرجة أن حكومة تانغ طلبت من الدولة الإسلامية دعما عسكريا لقمع تمرد في البلاد. وقد بقى كثير من القوات التي جاءت لقمع التمرد في الصين وظلوا محتفظين بعقيدتهم الدينية وأسلوب حياتهم. ومن دلائل علاقة التحالف

السياسي والصداقة العميقة بين بلاط تانغ والدولة الإسلامية، أن الجنود المسلمين الذين بقوا في الصين تمتعوا بحق شغل المناصب في الدولة الصينية والزواج من الصينيات، أي أنهم حصلوا على حقوق المواطنة الكاملة. وقد زاد عدد المسلمين الذين جاءوا إلى الصين بغرض التجارة والبقاء في الصين، بل انتشر أبناء "فانكه" في المدن الساحلية على الشواطئ الشرقية ومدينة بكين والمدن الكبرى الأخرى، فتشكلت مناطق ذات كثافة إسلامية سميت "فانفانغ" وأنشئت فيها مساجد وكان رئيس فانكه الذي يسمى فانتشانغ يتم اختياره وتعيينه من قبل الحكومة المحلية من بين أبناء فانكه المسلمين، وكان بمثابة ممثل الحكومة في المنطقة.

●●●

وتعتبر فترة حكم المغول في الصين والتي عرفت باسم أسرة يوان (١٢٧١ – ١٣٦٨م) محطة هامة في تاريخ انتشار وتطور الإسلام، الذي يسمى تشينغجينغجياو (دين النقاء والطهارة) في الصين. فبعد وصول المغول إلى الدولة الإسلامية في بدايات القرن الثالث عشر، جاءوا بقوات من المسلمين، من العرب والفرس وأبناء آسيا الوسطى، إلى الصين لتعزيز القوة المغولية في حربها مع أسرة سونغ الإمبراطورية الصينية. وقد اتبع هؤلاء المسلمون المقاتلون نمط معيشة يجمع بين الجندية والفلاحة، فهم مقاتلون يحملون السلاح زمن الحرب ومزارعون يفلحون الأرض ويرعون الماشية زمن السلم. عسكر بعضهم في مقاطعات شنشي وقانسو وتشينغهاي بشمال غربي الصين وهاجر البعض الآخر إلى السهول الوسطى وجنوب غربي الصين وجنوب نهر اليانغتسي. وخلال هذه الفترة، جاء كثير من التجار والحرفيين ورجال الدين والعلماء المسلمين إلى الصين، وقد سُمي هؤلاء المسلمون وخلفهم من العرب والفرس الذين عاشوا في الصين في أسرتي تانغ وسونغ "هوي هوي" آنذاك، كما أسلم عدد كبير من أبناء قومية هان وقومية منغوليا وقومية الويغور لأسباب سياسية واقتصادية وبسبب الزواج. وقد كان المسلمون موجودين رئيسا في المدن، وبعضهم في القرى، ولم يزاولوا فقط التجارة بل الزراعة والحرف اليدوية. لكنهم كانوا يتجمعون في مناطق معينة في المدن أو القرى.

وفـي فتـرة أسـرة يـوان، أقام البـلاط مصلحة معنية بشـؤون أبنـاء هوي هـوي ثم تبع ذلـك إقامة تجمعات للمسـلمين من هوي هـوي يكون محورها المسـجد، الذي هو المركز السياسـي والاقتصادي والثقافي للمسـلمين. وقد تفاوتت هذه التجمعات في حجمها ولم يكن بينها أي ارتباط رسمي.

وبمرور الزمن واختلاط أبناء هوي هوي مع أبناء هان والمغول تشـكلت قومية جديدة خلال أسـرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤م) عُرفت باسـم هوي. ويوجد أبناء هوي في كافة أنحاء الصيـن تقريبـا وإن كانـوا يتمركـزون فـي مناطق معينـة وفي تجمعـات خاصة بهـم داخل المدينة الواحدة، وهي ظاهرة مستمرة إلى حد ما حتى اليوم. وهكذا رسخ الإسلام جذوره في الصين خلال أسرة مينغ.

وقـد اندمج المسـلمون في نسـيج المجتمع الصينـي ودمجوا بين تعاليم دينهـم والمفاهيم التقليديـة الصينيـة، بـل وفـي نمـط التعليم الذي اتبعـوه، جمعوا بيـن نظام التعليم المسـجدي الإسلامي، وهو شبيه بنظام كتاتيب المساجد، وتعليم المدرسة الخاصة التقليدي في الصين.

●●●

وفي فترة أسرة تشينغ (١٦٤٤ – ١٩١١م)، توطن الإسلام في الصين، أي تصين تماما حتـى ظهر مفهوم الإسـلام الصيني وبلغ التعليم المسـجدي قمة تطـوره وازدهاره في تلك الفترة التي شهدت حركة ترجمة قوية للكتب الإسلامية من العربية والفارسية إلى الصينية وحركة تأليف بالصينية ومحاولة دمج المفاهيم الكونفوشية مع التعاليم الإسلامية.

وكان أبرز مظاهر تصين الإسـلام خلال فترة أسـرة تشـينغ أسـلوب عمارة المسـاجد والعـادات والتقاليـد الإسـلامية في الزواج ومراسـم التأبيـن والجنازة والطعام والشـراب والكسـاء والحلـى والأعيـاد وغيرهـا، فقـد أبقـى المسـلمون علـى سـماتهم وخصائصهم الإسلامية الأصلية ودمجوها مع أسلوب العمارة الصيني وآداب وسلوكيات الحياة الصينية.

بيد أن ارتباط الإسلام بتجمعات عرقية معينة ساهم إلى حد ما في إعاقة انتشاره على نطاق واسع في الصين، فارتباط الإسلام بعشر أقليات عرقية هي هوي وويغور وقازق وأوزبك وقرغيز وتتار وطاجيك ودونغشيانغ وسالار وباوآن، جعل أبناء تلك القوميات ينظرون إلى الإسلام على أنه دين خاص بهم دون غيرهم، وجعل الآخرين أيضا ينظرون إلى هذا الدين على أنه عقيدة هؤلاء فحسب. بل إن الإحصاء الرسمي للمسلمين في الصين يعتمد على تعداد المنتمين لتلك الأقليات العرقية العشر، برغم أن من بين أبناء تلك القوميات من لم يعد مسلما، وأن هناك أبناء قوميات أخرى يعتنقون الإسلام ولكن لا يتم إحصاؤهم ضمن المسلمين. ويساهم في ذلك أن الهوية الشخصية للفرد في الصين يدون بها القومية التي ينتمي إليها، ومن ثم فإن الفرد من قومية هان مثلا إذا كان مسلما يعتبر، رسميا، غير مسلم لأن المسجل في هويته أنه من هان، وعلى هذه الخلفية كان عدد أبناء تلك القوميات العشر، حسب الإحصاء السكاني لعام ٢٠٠٠، هو ٢٠ مليونا، ينتشرون رئيسيا في منطقة شمال غربي الصين، منهم ٨ر٣٩٩٤ ملايين نسمة ويغور و٢٥٠٥ر١ مليون نسمة قازاق و٨ر١٦٠ ألف قرغيز و٤١ ألف نسمة طاجيك و٤ر١٢ ألف نسمة أوزبك و٤٩٠٠ نسمة تتار، ويعيش أبناء هذه القوميات الست في منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم بصورة عامة؛ ٥ر١٤٠ ألف سالار ينتشرون بصورة عامة في مقاطعة تشينغهاي؛ ٨ر٥١٣ ألف نسمة دونغشيانغ و٥ر١٦ ألف نسمة باوآن، ينتشرون بصورة عامة في مقاطعة قانسو. أما عدد أبناء هوي فهو ٩ر٨١٦٨ ملايين نسمة، ينتشرون في أنحاء الصين لكنهم يتجمعون بصورة عامة في نينغشيا وتشينغهاي وقانسو وشينجيانغ وشنشي في شمال غربي الصين، ويونان بجنوب غربي الصين ومقاطعات خبي وخنان وشاندونغ ومنغوليا الداخلية.

●●●

حسب الأرقام الرسمية، يوجد بالصين ما يقرب من خمسة وثلاثين ألف مسجد، منها ثلاثة وعشرون ألفا في منطقة شينجيانغ فقط، أي أن ثلث مساجد الصين موجود في تلك المنطقة. ومعظم المساجد في شينجيانغ مبنية بأسلوب العمارة العربي الإسلامي،

علـى عكس المسـاجد في عمـوم الصين المبنية بأسـلوب العمارة الصينـي القديم. وإمام المسـجد في الصين يسـمى آخون، وهي كلمة مأخوذة من اللغة الفارسـية، ويكون مسؤولا ليس فقط عن الشـعائر الدينية في المسـجد وإنما تمتد مسـؤولياته إلى دائرة أوسـع في حياة المسلمين اليومية، فهو الذي يتولى عقد القران في مناسبات الزواج وهو الذي يقود ترتيبـات الجنازة والذي يدعى لنحر الذبائح وتسـمية أبناء المسـلمين بأسـماء إسـلامية، إذ يكـون للمسـلم فـي الصين دائما اسـم ديني غير اسـمه الرسـمي المدون في سـجلات الحكومـة. ويكـون فـي العادة لكل إمـام كبير عدد مـن التلاميذ يتولـى إعدادهم ليصبحوا أئمة في المستقبل، وإن كانت هذه المهمة تراجعت في السنوات الأخيرة مع انتشار التعليم الإسـلامي النظامي في معاهد العلوم الإسـلامية. ويُعين الإمام من قبل الجمعية الإسـلامية التـي يتبعها المسـجد المعنـي، حيث توجد في معظـم الأماكن ذات التجمعات الإسـلامية فروع للجمعية الإسـلامية الصينية التي تأسست عام ١٩٥٣.

وقد أنشـأت الجمعية عام ٢٠٠١ هيئة تسـمى لجنة الإرشـاد الإسـلامي مهمتها وفقا للائحتها هي تفسير المذاهب والشريعة الإسلامية تفسيرا موثوقا يتفق مع تطور العصر؛ ووضـع نموذج رسـمي لشـرح الكتـب الإسـلامية وتوحيد محتوياتـه؛ ورفع مسـتوى هيئات التدريس الإسـلامية؛ ومكافحة التطرف الإسـلامي؛ وتقديم مسـاهمة إيجابية في تطوير الإسلام تجعله يتناسب مع تطور العصر.

وقد ارتبط الإسـلام في الصين بظاهرة تربوية اسـمها التعليم المسـجدي، حيث كان المسـجد هو أيضا المدرسـة التي يتلقى فيها المسـلم تعليمه. كان التعليم المسـجدي في البداية دينيا قحا ولكنه تطور لاحقا مسـتفيدا مـن مناهج التعليم العامة والعلوم الحديثة. وفـي بدايـة القـرن الماضي بدأ التعليم الإسـلامي في المعاهد، وحاليـا يوجد في الصين أحـد عشـر معهـدا إسـلاميا، أكبرها المعهـد الإسـلامي الصينـي ببكين ويمنـح خريجيه الدرجة الجامعية.

●●●

المسيحية

جي دو جياو وتيان جو جياو

ربما يدهش الناس خارج الصين عندما يقرءون في الكتابات الصينية، التي تتحدث عن الأديان، أن الصين بها خمسة أديان رئيسية هي البوذية والطاوية والإسلام والمسيحية والكاثوليكية. والمقصود بالمسيحية أو جي دو جياو باللغة الصينية هو البروتستانتية، والبروتستانت في الصين أكثر من الكاثوليك برغم أن البروتستانتية دخلت الصين بعد الكاثوليكية بفترة طويلة.

كلمة "جي دو جياو" تعني دين يسوع المسيح، وفي مدلولها الصيني تشير إلى الذين يعتقدون أن عيسى (يسوع المسيح) هو المخلص، بينما يستخدم الصينيون كلمة تيان جو جياو (تيان معناها السماء، وجياو معناها الدين) التي تعني دين الرب أو السماء في الإشارة إلى الكاثوليكية، وهناك كلمة أخرى هي دونغ تشنغ جياو، (دونغ تعني الشرق) ومعناها الحرفي هو المذهب الشرقي، وفي دلالتها الصينية تعني الكنيسة الشرقية، وتحديدا الأرثوذكس في روسيا وأوروبا الشرقية.

لم يكن طريق المسيحية، سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية، إلى الصين سهلا على عكس الحال مع البوذية والإسلام. وإذا كانت الصين عرفت النسطورية، في القرن السابع الميلادي وفقا لنصب حجري نصبه المبشرون في غابة الأنصاب بمدينة شيآن عام ٧٨١م. فإن قرار إمبراطور أسرة تانغ بالقضاء على البوذية في منتصف القرن التاسع شمل النسطورية أيضا.

الكاثوليكية

دخلت الكاثوليكية الصين سنة ١٢٩٤، عندما جاء إلى بكين- التي كانت تسمى آنذاك دادو- مبشر اسمه جون مونتكورفينو (John Montecorvino) من كنيسة الفرنسيسكان (Francisan) بأمر من بابا روما، وحصل على إذن سلطة أسرة يوان بإنشاء كنيسة، بل

وحصل على راتب رسمي من سلطة أسرة يوان. وقد ارتبط وجود الكاثوليكية بوجود أسرة يوان، حيث كان معظم معتنقيها من المغول ومن التجار الأجانب، وعليه اختفت الكاثوليكية عندما انهار بلاط يوان سنة ١٣٦٨.

بحلول القرن السادس عشر الميلادي، حيث كان الاستعماري الغربي قد توسع إلى الصين، دخلت الكاثوليكية الصين مرة ثانية، ولكن هذه المرة برفقة المستعمر. وفي هذه الفترة وضع الإيطالي ماتيو ريتشي (Matteo Ricci) (١٥٥٢ – ١٦١٠م) أسس التبشير بالكاثوليكية في الصين. وكانت ماكاو، بعد أن احتلها البرتغاليون سنة ١٥٥٤، نقطة الانطلاق التبشيري بالكاثوليكية في كل منطقة الشرق الأقصى. في عام ١٥٨٢، وصل ماتيو ريتشي إلى ماكاو لدراسة اللغة الصينية، وفي عام ١٥٨٣، بدأ أعمال التبشير بالكاثوليكية في قوانغدونغ بإقامة صداقات وعلاقات مع أبنائها والتكيف مع عاداتهم وتقاليدهم فحلق رأسه مثل الرهبان البوذيين وأطلق على نفسه اسم "الكاهن الغربي". ولكن ماتيو ريتشي اكتشف بعد فترة أن الكونفوشية، وليس البوذية، هي الأكثر تأثيرا في الصينيين، فخلع رداء الراهب وأرسل شعره (مثل الكونفوشيين) وارتدى عباءة الكونفوشية، وبدأ التبشير بالكاثوليكية. وبعد سنوات في الصين أدرك الرجل أن "رضاء" السلطة هو الطريق الميسر لنشر الدين الذي يبشر به، فشد الرحال إلى العاصمة بكين سنة ١٦٠١ من أجل نيل دعم الإمبراطور. حمل إلى الإمبراطور هدايا قيمة منها أيقونة المسيح وأيقونة العذراء وساعة منبهة وآلة موسيقية وغيرها من الأغراض الدينية القيمة، وعرض خدماته على البلاط فعمل به مُصلح ساعات، وتلك كانت مهنة لا يجيدها كثيرون. وهكذا نال رضاء البلاط وسُمح له بإنشاء كنيسة للتبشير. كانت تجربة ماتيو ريتشي واضحة في أذهان من جاءوا بعده من المبشرين الكاثوليك، فسعوا لدمج الكاثوليكية في الكونفوشية. وتقول السجلات الصينية إن ماتيو ريتشي عندما مات عام ١٦١٠ سار في جنازته أكثر من ألفي كاثوليكي صيني. وفي عام ١٦٣٧، وصل عدد الكاثوليك في الصين ٤٠ ألفا، وفي عام ١٦٦١، انتشرت الكاثوليكية إلى الخمس عشرة مقاطعة صينية آنذاك، باستثناء يونان وقويتشو.

ولكن الذي حدث بعد ذلك أعاق انتشار المسيحية في الصين، فبعد وصول المستعمرين الفرنسيين إلى آسيا، دخلت الهيئات الفرنسية الكاثوليكية الصين، وقررت السلطة البابوية في روما تقسيم المناطق الصينية التي كان يعمل بها المبشرون من أصل برتغالي إلى مناطق تمثيل تولاها مبشرون من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وتبع ذلك تنازع تلك الدول على النفوذ في مناطق تمثيلها، وفي النهاية أصبحت الدعوة الدينية الكاثوليكية متداخلة مع الأطماع الاستعمارية. وقد تأزم الأمر أكثر بعد أن أصدر البابا سنة ١٧٠٤ مرسوما يحظر على الصينيين الكاثوليك ممارسة طقوس تبجيل الأسلاف والتعبير عن الاحترام لكونفوشيوس، وكلها ممارسات تفهمها واستوعبها جيدا ماتيو ريتشي ولذلك انتشرت دعوته بل وحظيت بدعم من البلاط الإمبراطوري. وكان من نتيجة هذا المرسوم وقوع خلاف بين البلاط الصيني والسلطة البابوية ووصل الخلاف إلى درجة كبيرة لدرجة أن الإمبراطور كانغ شي، أصدر فرمانا بحظر الدعوة إلى الكاثوليكية في الصين، وقد استمر هذا الحظر بعد كانغ شي أكثر من مائة سنة، وارتد كثير من المثقفين الصينيين عن الكاثوليكية. وفي بداية القرن الثامن عشر، كان عدد الكاثوليك الصينيين ثلاثمائة ألف، انخفض إلى مائتي ألف في بداية القرن التاسع عشر.

ومرة أخرى اقترنت الكاثوليكية بالاستعمار الغربي في الصين، ففي عام ١٨٤٠، اندلعت حرب الأفيون التي شنتها القوى الغربية ضد الصين لفتحها عنوة أمام تجارة الأفيون وانتهت بتوقيع الصين عدد من المعاهدات المُذلة التي منحت الكنائس في الصين صفة الهيئات الاستعمارية، وتمتع الكاثوليك الأوربيون والصينيون بنظام امتيازات خاصة، شبيه بنظام الامتيازات الذي طبقته الدول الاستعمارية في مستعمراتها الأخرى. وفي عام ١٨٤٤، وقعت الحكومة الصينية معاهدة هوانغبو مع فرنسا أعطت الأخيرة حق بناء كنائس كاثوليكية في خمس مدن ساحلية صينية، مع إلزام الحكومة الصينية بحمايتها. وفي ديسمبر من ذات العام ألغت الحكومة الصينية الحظر المفروض على نشر الكاثوليكية في الصين، بل ألزمت معاهدة بكين التي عقدتها الصين مع فرنسا عام ١٨٦٠، الحكومة الصينية بأن تُعيد إلى الكنائس الكاثوليكية أموالها التي صادرتها من قبل. ومع مزيد من

المعاهـدات، توسـع النفوذ الغربي في الصين وتضخم معه حجـم الامتيازات التي حصلت عليها الكنائس، وصولا إلى عام ١٨٩٩ الذي أصدرت فيه الحكومة الصينية لائحة خاصة باسـتقبال المبشـرين الأجانب، اعترفت فيها الحكومة رسـميا بمنح المبشـر الأجنبي لقبا رسـميا يعادل والي المقاطعـة، والمطران الكاثوليكي الأجنبي لقـب المبعوث الخاص وهو يعـادل والـي محافظة. وبحلول العام الأول من القرن العشـرين بلغ عدد المناطق التمثيلية التي أنشأتها السلطة البابوية في الصين أربعين منطقة، وبلغ عدد الصينيين الذين اعتنقوا الكاثوليكية نحو مائتي وخمسين ألفا.

●●●

كان المبشـرون رمـزا للاسـتعمار والاحتـلال الأجنبـي، كمـا أن الامتيـازات التي تمتعوا بهـا وضعتهـم في موضع مواجهـة مع عامة الشـعب الصيني، وصـارت الكاثوليكية في نظر الصينيين هي دين المستعمرين، ولهذا وقع الكثير من المواجهات بين الجانبين. وقد أدركت السلطة البابوية خطورة هذه المواجهات على مستقبل المسيحية عموما في الصين، فغيرت من أسلوب التبشير وتحولت إلى العمل الخيري، مثل إنشاء المدارس والمستشفيات، وكانت النتائج مشجعة، فخلال عشرين عاما فقط ارتفع عدد الكاثوليك من سبعمائة وخمسين ألفا إلى نحو مليونين عام ١٩٢٠ وفي عام ١٩٤٠ وصل إلى أكثر من ثلاثة ملايين. ولكن الكنيسة في الصين ظلت حتى سـنة ١٩٤٩، سـنة تأسيس الصين الشعبية، رمزا للاستعمار والتدخل الأجنبي، ففي تلك السـنة كان عدد القساوسـة الأجانب في الصين ٦٠٢٤ مقارنة مع ٢١٥٥ قسيسا صينيا، وكانت كل كنيسة على أرض الصين ترفع علم دولة المطران الأجنبي بها.

وكان طبيعيـا أن يقـع الصـدام بيـن تلك الكنائـس والجمهورية الشـعبية التي أسسـها الحـزب الشـيوعي، فالفاتيـكان لـم يعتـرف بالصيـن الجديدة، وحتـى الآن لا يعتـرف بها، وبعـض الكنائـس الكاثوليكية اتخذت موقفا معاديا معلنا من السـلطة الجديدة. في خضم هذه المواجهة ولد بعد عام واحد من تأسـيس الصين الجديدة ما سُـمي بحركة الذاتيات الثلاث للكاثوليك الصينيين، ويقصد بها الإدارة الذاتية والتمويل الذاتي والتبشـير الذاتي

للكنيسة الكاثوليكية في الصين، وفي عام ١٩٥٧ أعلن عن قيام الهيئة الوطنية للكاثوليك الصينيين، التي تغير اسمها إلى الجمعية الوطنية الكاثوليكية الصينية عام ١٩٦٢، وهي الجمعية التي أصبحت بمثابة السلطة العليا فيما يتعلق بشؤون الكنيسة الكاثوليكية في الصين.

وترك عدد كبير من المبشرين الأجانب الصين، راغبين ومكرهين، بعد قيام الدولة الشيوعية الجديدة، واحتدمت المواجهة بين الصين والفاتيكان عندما بعثت الجمعية الوطنية الكاثوليكية الصينية بقائمة لمطارنة مرشحين للحصول على موافقة الفاتيكان، ولكن السلطةَ البابوية رفضت الترشيحات وردت الجمعية بتكليف المطارنة عن طريق الانتخاب الذاتي، ولم تعد ترجع إلى السلطة البابوية، حتى الآن، للحصول على الموافقة لترسيم المطران أو الأسقف، وهو أمر يجدد الخلاف بين الجانبين من حين لآخر مع كل ترسيم جديد لمطران أو أسقف.

ظل عدد الكاثوليك في الصين ثابتا بل وتراجع قليلا حتى نهاية الثورة الثقافية (١٩٦٦ – ١٩٧٦م) ولكنه ارتفع بعد ذلك، ولكن بمعدلات أقل من زيادة عدد البروتستانت. وفقا للأرقام الرسمية يوجد في الصين حاليا أكثر من خمسة ملايين كاثوليكي، ولكن التقديرات غير الرسمية تشير إلى أن عددهم حوالي خمسة عشر مليونا، وفقا للدراسة التي نشرتها مجلة "دونغفانغ لياووانغ" الصينية في عددها الأول لشهر فبراير عام ٢٠٠٧. ويوجد في الصين حوالي ٤٦٠٠ كنيسة كاثوليكية وناد ورابطة و٣٦ معهدا وديرا للاهوت، أكبرها المعهد الكاثوليكي الوطني الذي أنشئ عام ١٩٨٣.

●●●

البروتستانتية

لأسباب، يصفها الباحثون الصينيون بأنها تاريخية، المسيحية عند الصينيين هي البروتستانتية، بينما يشيرون إلى الكاثوليكية على أنها ديانة أخرى. وعدد معتنقي البروتستانتية في الصين أكثر من الكاثوليك وأسرع انتشارا، برغم دخول الكاثوليكية الصين قبلها.

كان أول من دعا إلى البروتستانتية في الصين مبشر بريطاني اسمه موريسون، وصل الصين عام ١٨٠٧. كان موريسون يدعو سرا، حيث كان قرار الحكومة الصينية بحظر الأديان مازال ساريا. وفي عام ١٨٤٢، أي بعد عامين من اندلاع حرب الأفيون، وصل عدد المبشرين البروتستانت أربعة وعشرين مبشرا، معظمهم مارس نشاطه في المناطق الساحلية بجنوب شرقي الصين. وفي عام ١٨٥٨، صرحت حكومة بلاط تشينغ الصينية للمبشرين الأجانب بنشر البروتستانتية علانية، فارتفع عدد البروتستانت من مائة فقط عام ١٨٤٢ إلى نحو ثمانين ألفا بحلول عام ١٨٩٩. ولكن الصينيين ربطوا البروتستانتيين بالاستعمار والحروب، على عكس المسلمين واليهود مثلا، فقد كان غرض وصول المسلمين واليهود إلى الصين في المرحلة الأولى هو الهجرة بشكل عام، ولم يدعوا الصينيين بشكل مباشر إلى الدخول في دينهم، على عكس المبشرين البروتستانت الذين جاءوا إلى الصين بهدف الدعوة الدينية، وتمتعوا بالحماية التي وفرتها لهم المعاهدات التي وقعتها الصين عقب هزيمتها في حرب الأفيون. وكان هناك دائما تصادم بين الصينيين والكنيسة البروتستانتية، ففي الفترة من عام ١٨٤٠ حتى عام ١٩٠٠ بلغ عدد تلك المصادمات أكثر من ٤٠٠ حادثة. وكان من نتيجة هذه المجابهة بين الصينيين والكنيسة اندلاع أحداث دموية ضد الكنيسة عام ١٩٠٠، فيما سُمي بحركة إيختوان، التي كان من نتائجها إدراك المبشرين في الصين أهمية تغيير أسلوب دعوتهم لعدم إثارة كراهية الصينيين ضدهم، ولهذا ركزوا مع بداية القرن العشرين على التبشير من خلال الأعمال الخيرية، مثل إنشاء المدارس والمستشفيات. وقد شهدت السنوات الأولى زيادة هائلة في عدد مبشري البروتستانتية الأجانب في الصين، فزاد عددهم من ألف وخمسمائة عام ١٩٠٠ إلى ثمانية آلاف عام ١٩٢٧، وارتفع عدد البروتستانت الصينيين من ثمانين ألفا عام ١٩٠٠ إلى أربعمائة ألف عام ١٩٢٢، وتضاعف إلى سبعمائة ألف عام ١٩٤٩، عام تأسيس الصين الجديدة التي اعتبر المسيحيون البروتستانت والكاثوليك قيامها حجر عثرة في طريق نشر دعوتهم نتيجة لارتباط المسيحية في الصين بالاستعمار الغربي.

وعلى هذا كانت مهمة قادة المسيحية الصينيين في الصين الجديدة هي فك ارتباطها بالغرب وتغيير صورتها المرتبطة بالإمبريالية. وقد كانت الخطوة الأولى على هذا الطريق هي إصدار عدد من القيادات المسيحية الصينية ما سمي ببيان الذاتيات الثلاث الذي دعا المسيحيين في كل أنحاء الصين إلى: الاجتهاد لبناء الصين الجديدة المستقلة الديمقراطية السلمية الموحدة المزدهرة القوية، وقطع العلاقة مع الكنائس المسيحية الغربية لتحقيق حركة الإدارة الذاتية والتبشير الذاتي والاعتماد على الذات. وفي عام ١٩٥٤ عقد البروتستانت مؤتمرا وطنيا وأقاموا لجنة الحركة الوطنية للذاتيات الثلاث ووضعوا نهاية لسيطرة المنظمات المسيحية الغربية على الكنائس الصينية.

في عام ١٩٧٨ عندما تبنت الصين سياسة الانفتاح على الخارج وانتهجت سياسة متسامحة تجاه حرية الاعتقاد الديني، ظهرت مؤشرات على تزايد الإقبال على البروتستانتية التي صارت مرتبطة في أذهان الصينيين بالغرب المتقدم، فبعد عام واحد من تبني الصين سياسة الانفتاح وصل عدد البروتستانت في الصين ثلاثة ملايين، وقفز إلى ستة عشر مليونا عام ٢٠٠٢، وحسب تقرير مجلة "دونغفانغ لياووانغ" الذي سبقت الإشارة إليه يبلغ عددهم حاليا أربعين مليونا، وهو رقم قابل للزيادة، فالبروتستانتية أسرع الأديان انتشارا في الصين حاليا.

في عام ١٩٨٦ كان عدد الكنائس البروتستانتية في الصين حوالي أربعة آلاف، وصل عددها عام ١٩٩٦ أكثر من ١٢ ألفا ويوجد حاليا حوالي خمسين ألف كنيسة بروتستانتية في الصين.

ومنذ عام ١٩٨٨ إلى نهاية عام ٢٠٠٢، بلغ عدد نسخ «الكتاب المقدس» التي طبعت وصدرت في الصين ٣٠ مليونا.

وهناك هيئتان معنيتان بشؤون البروتستانت في الصين، هما اللجنة الوطنية الصينية لحركات الذاتيات الثلاث والجمعية المسيحية الصينية.

●●●

اليهودية

اليهودية ليست من الأديان التي تعترف الحكومة الصينية بوجودها في الصين، ولكن هذا لا يعني أن اليهودية لم تعرف طريقها إلا الصين، أو أن اليهود لم يعيشوا في الصين. والحقيقة أن ظروفا معينة دفعتني إلى البحث في هذا الأمر؛ فذات يوم في سبتمبر عام ١٩٩٩ كنت واحدا ضمن مجموعة من الأجانب اختارت الحكومة الصينية أن تمنحهم جائزة الصداقة الصينية، وقد رتبت لنا لقاءات مع عدد من كبار المسؤولين في الحكومة. كنا نجلس بواحدة من الغرف الفسيحة لقاعة الشعب الكبرى المهيبة في قلب العاصمة الصينية، وكان مضيفنا هو نائب رئيس مجلس الدولة (السابق)، أحد الأعضاء السبعة للمكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني، السيد لي لان تشينغ. كنت أجلس في مواجهة السيد لي مباشرة. كانت زخارف القاعة التي تفوح بالعبق الصيني آسرة حقا إلا أن شخصا كان ترتيبه في الجلوس الثاني على يسار السيد نائب رئيس مجلس الدولة لفت انتباهي وأخذني من سحر المكان؛ لسببين، الأول أنه كان الوحيد من الموجودين بالقاعة الذي يرتدي ملابس كاجوال؛ قميصا بمربعات زرقاء، بينما نحن جميعا نرتدي ملابس رسمية، برابطة العنق. السبب الثاني، طريقته في الجلوس؛ فاردا ظهره واضعا ساقا فوق أخرى، ناظرا إلى أمامه برأس مرتفعة. بعد الانصراف من القاعة سألت عنه، فقيل إنه سيدني شابيرو، واحد من الذين دافعوا، ومازال، عن قضايا الصين لفترة طويلة.

كان الذي يجلس بين شابيرو والسيد عضو المكتب السياسي رجلا أعرفه ويعرفني بحكم المهنة والجوار السكني، وهو إسرائيل أبشتاين، وقد تحدث خلال اللقاء عن الإعلام الصيني وكيفية النهوض به، بادئا كلامه باللغة الصينية، عدة عبارات، ثم انتقل إلى الحديث بالإنجليزية، وضحكت المترجمة وقالت له إذن أنت تترجم لنفسك.

أبشتاين وشابيرو يهوديان جاءا إلى الصين وناضلا بجانب الشيوعيين الصينيين خلال حرب التحرير، ولهذا منحتها جمهورية الصين الشعبية جنسيتها.

جمعتني بضع مناسبات مع شابيرو، وقرأت له وعنه، وعرفت عن ترجماته وكتاباته وزياراته إلى الولايات المتحدة وإسرائيل بحكم أنه يهودي، ومحاضراته التي ألقاها

بهـا. ومـرة أخرى لفتـت انتباهي ردود شـابيرو في لقـاء صحفي بمناسـبة اختياره عضوا باللجنة الوطنية للمؤتمر السياسي الاستشاري للشعب الصيني السادس عشر، التي يشغل عضويتها منذ اللجنة الوطنية السادسـة، فعندما سُـئل، ما هو تخصصك؟ قال: أنا مواطن صينـي، علـى الرغم أنني ولـدت أجنبيا، متقاعد مـن مجلة الصين المصـورة، على الرغم مـن أننـي على المعـاش لم أتوقـف أبدا عن العمـل وكتبت العديـد من الكتـب والترجمات مـن البيـت. وفـي رده علـى سـؤال، مـن أين جئـت؟ ولعـل السـائل كان يقصد ما هـي بلده الأصلـي، قـال: من بكين. وقال: بيتي يقع في زقاق صغير بجانب بحيرة شيتشـاهاي، وقد عشت هناك لسنوات طويلة، جيراني معظمهم من السكان العاديين. يوجد معسكر للجيش بالقرب من زقاقنا، أفهم جيراني، اهتماماتهم متنوعة وتتعلق بمختلف أوجه الحياة؛ النظام الاجتماعـي، الأمـن، العمـل المسـتقر والدخل، وتعليـم الأطفـال. اهتمامـات عادية لناس عاديين.

إسـرائيل أبشـتاين، الذي توفي عام ٢٠٠٥، عن عمر يناهز التسـعين عاما، كان يشـغل أيضا عضوية المؤتمر الاستشـاري السياسـي للشـعب الصيني، فقد حصل على الجنسية الصينية بعد قيام الصين الجديدة.

بعد هذا اللقاء في قاعة الشعب الكبرى عرفت بأن الصين بها شخصان على الأقل من أصول يهودية، يحملان جنسـية جمهورية الصين الشـعبية، بل أعضاء بالجهاز الاستشاري للدولة.

وبعد ذلك وقعت بين فترة وأخرى مواقف وأحداث أخرى جعلتني أسـعى أكثر لمعرفة المزيد عن تاريخ اليهود بالصين؛ ففي شـهر أكتوبر عام ٢٠٠٣ قرأت تحقيقا مطولا، على صفحـة كاملة، بصحيفة "تشـينا ديلي" التـي تصدر باللغة الإنجليزية، وهـي تابعة لمجلس الدولـة الصينـي، بعنـوان "تاريخ لا يُنسـى.. النـاس والمعمار يجـددان ذكريـات اليهود في هاربيـن قبـل نصـف قـرن"، وهاربيـن هـي عاصمة مقاطعـة هيلونغجيانغ بشـمال شـرقي الصين. وفي مؤتمر صحفي عقده السيد وانغ شي جيه، المبعوث الصيني الخاص السابق

للشـرق الأوسط، في السـادس من نوفمبر ٢٠٠٣ بعد عودته من جولة في الشرق الأوسط قال: بالنسـبة لي شـخصيا، إنني من مدينة شـانغهاي، وأكن لليهود شـعورا طيبا، فقد لجأ الكثير منهم إلى شانغهاي بالصين هربا من اضطهاد بعض الدول لهم إبان الحرب العالمية الثانيـة. لقـد لاقوا اسـتضافة ودية من قبل الشـعب الصينـي، كما أود الإشـارة إلى وجود علاقـات طيبـة بيني وبين الكثير من اليهود خلال عملي ببعثة الصين لدى الأمم المتحدة. وبعد شـهر من ذلك نشـرت صحيفة ساوث تشينا مورننغ بوسـت، التي تصدر بالإنجليزية فـي هونـغ كونغ، صـورة ضخمة علـى غلاف المجلـة الملحقة بهـا لميكائيل قـادوري، ابن اللورد قادوري البغدادي، وهو أحد أشـهر اليهود الذين عاشـوا في شانغهاي قبل أن ينتقل إلى هونغ كونغ ويصبح من أقوى شخصياتها.

بعد بحث طويل استطعت أن أرصد عددا من الملاحظات بشأن اليهود واليهودية في الصين، أهم تلك الملاحظات ما يلي:

أولا: أن اليهود كانوا يسـمونهم في الصين قديما هوي ذوي القبعة الزرقاء تمييزا لهم عن المسـلمين الذين يسـمونهم هوي ذوي القبعة البيضاء، وربما مرجع هذه التسـمية أن اليهود عندما جاءوا إلى الصين كانوا يعيشون في الأحياء السكنية التي يقطنها المسلمون مـن أبنـاء هوي الذين مـن عادتهم، إلى اليوم، ارتـداء قبعات بيضاء. وأقـدم تاريخ لوصول اليهـود إلـى الصيـن هو القرن الثامـن الميلادي، عندمـا كان طريق الحريـر يربط الصين بالمناطق الواقعة غربها، فقد كان لليهود حي في مدينة كايفنغ (في مقاطعة خنان حاليا) التـي بنـي بها معبد يهودي عام ١١٦٣م، ويقول بعض أبنائها إن لهم دماء يهودية. ويقال إن يهود كايفنغ الذين كانوا يسمونهم في الصين "يوتاي" ترجع أصولهم إلى بلاد فارس والهند وجاءوا إلى الصين عبر طريق الحرير البري، ومازال في كايفنغ بضع عائلات تعتبر نفسها من اليهود على الرغم من عدم معرفتها أو ممارسـتها لأي شـعائر دينية يهودية. وقد تقدم عـدد من أبنـاء كايفانغ الذين يعتقدون أن لهم أصولا يهوديـة بطلب إلى الحكومة الصينية في خمسينات القرن الماضي لتسجيلهم كأقلية قومية، ولكن الحكومة قررت عدم إمكانية معاملتهم كمجموعة عرقية متميزة لانصهارهم التام مع أبناء هان وعدم وجود لغة خاصة

بهم ولا مكان تجمع واحد ولا عادات ولا عقيدة تميزهم. وفي عام ١٩٩٦ تقدم عدد منهم إلى السفارة الإسرائيلية ببكين يطلبون الهجرة إلى إسرائيل باعتبار أنهم يهود، ولكن طلبهم قوبل بالرفض. مازالت كايفنغ تحظى باهتمام كبير من جانب اليهود، وقد عقدت بها في الفترة من ٥ إلى ٩ مايو عام ٢٠٠٢ ندوة "يهود الديسابورا (الشتات) في الصين"، افتتحها البروفيسور هونغ ين شينغ، نائب رئيس جامعة نانجينغ. وفي سبتمبر ٢٠٠١ أقيم بها معرض للتاريخ اليهودي.

ثانيا: أن ثمة تاريخا آخر لوصول اليهود إلى الصين، ولكن هذه المرة إلى الجنوب، هو أغسطس ١٢٧١م، وتلك معلومة لا يوجد ما يؤكدها في المصادر الصينية أو غير الصينية، وإنما ذكرها دافيد سلبورن، وهو عالم إنجليزي عمل بتدريس الفلسفة السياسية في جامعة أوكسفورد، وتفاصيلها أنه، أي سلبورن، ترجم مخطوطة لشخص يهودي اسمه يعقوب وصل مدينة zaitun "زيتون" الصينية التي كانت أكثر موانئ العالم ازدهارا في تلك الحقبة، ويقول العالم الإنجليزي إن الكلمة الإنجليزية satin (حرير الستان) مأخوذة من zaitun (مدينة الزيتون هي تشيوانتشو حاليا وقد كتب عنها ابن بطوطة)! ويروي يعقوب، أو سلبورن، مشاهدات له في الزيتون ويصف الجالية الأجنبية الكبيرة بها قائلا إنه كان بها ما يربو على ٢٠٠٠ يهودي والكثير من المسلمين والأفارقة والأوربيين. ولكن لا يوجد أي دليل على ما قاله سلبورن الذي رفض أن يُظهر النص الأصلي للمخطوطة التي تحدث عنها، ولم يقل من هو صاحبها.

ثالثا: أنه بعيدا عن قصة "يعقوب" وتاريخ كايفنغ، يمكن تأريخ التدفق اليهودي إلى الصين، في نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين، إلى ثلاث موجات، كانت الأولى بعد عام ١٨٤٢، وتوقيع الصين، عقب حرب الأفيون، اتفاقية فتحت بمقتضاها عددا من موانيها، ومنها شانغهاي، وقد استفاد التجار اليهود من غربي آسيا من هذه المعاهدة، فجاء كثير منهم وخاصة من بغداد، إلى شانغهاي مثل عائلتي ساسون وقادوري، اللتين استقرتا فيما بعد في هونغ كونغ، وأصبحتا من أكثر العائلات ثراء بها، يمتلكون فنادق ومتاجر، ومن بين مائة شخص كانوا مسجلين في بورصة شانغهاي عام ١٩٣٢ كان أربعون منهم من اليهود السفارديم.

ثم جاءت الموجة الثانية لهجرة اليهود إلى الصين عام ١٨٩٩، وكانوا من اليهود الروس الهاربين من حملات الاضطهاد، ثم الثورة الروسية، ومعظم هؤلاء استوطنوا في شمال الصين. وفي عام ١٩١٠ كان عدد اليهود في هاربين (عاصمة مقاطعة هيلونغجيانغ) ١٥٠٠، ووصل العدد ١٣ ألفا عام ١٩٢٩م، وقد انتقل كثير منهم إلى شانغهاي في ثلاثينات القرن الماضي بعد استيلاء اليابان على ما كان يسمى منشوريا (شمالي الصين). ولكن اليهود الروس لم يختلطوا كثيرا مع يهود شانغهاي، فقد كانت لهم مطاعمهم ومتاجرهم ومسارحهم، وكانت بينهم خلافات دينية.

الموجة الثالثة جاءت مع تدفق نحو عشرين ألف يهودي إلى شانغهاي من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٣٩، هربا من الاضطهاد النازي أثناء الحرب العالمية الثانية، بعضهم كان مجرد عابر إلى مكان آخر، وبقي ٩٠٪ منهم، واستمر وصول بعضهم على الرغم من وضع قيود على الهجرة في أغسطس ١٩٣٩، وبعد أن قصفت الطائرات اليابانية ميناء بيرل هاربور الأمريكي عام ١٩٤١ وتغيُر مسار الحرب، تم إرسال رعايا الدول المتحالفة، في شانغهاي، إلى معسكرات سجون بينما اعتُبر اليهود رعايا لا دولة لهم وتم تجميعهم في جيتو هونغ كو بشانغهاي عام ١٩٤٣.

بعد الحرب استعادت الجالية اليهودية في شانغهاي عافيتها، ولكن مع اندلاع الحرب الأهلية في الصين أخذ اليهود يهجرونها إلى دول أخرى، ولم يبق في شانغهاي عام ١٩٥٣، أي بعد تأسيس الصين الجديدة بأربع سنوات، سوى ٤٤٠ يهوديا تقلص عددهم إلى ٨٤ فقط عام ١٩٥٨، معظمهم من المرضى وكبار السن وتولى رعايتهم مجلس الجالية اليهودية في شانغهاي. وبعد ذلك اختفى الوجود اليهودي تماما من المدينة، بينما ودع آخر يهودي في مدينة هاربين الحياة عام ١٩٨٥. وقبل أن نترك هذه الملاحظة قد يكون من المفيد أن نذكر الدبلوماسي الصيني هو فنغ شان، الذي كان القنصل العام لجمهورية الصين في النمسا من سنة ١٩٣٨ إلى سنة ١٩٤٠، وقد أصدر خلال هذه الفترة، رغم معارضة سفير الصين والسلطات النمساوية، تأشيرات سفر إلى الصين لأكثر من ألف يهودي للفرار إلى شانغهاي من النظام النازي الألماني، وقد توفي عام ١٩٩٧ في سان

فرانسيسكو بالولايات المتحدة، حيث كان يعيش، وأقيم مؤتمر تذكاري بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده في مسقط رأسه، مدينة ييانغ بالصين، حضره عدد من الشخصيات اليهودية الهامة.

كما لا يفوتنا أن نشير أيضا إلى عدد من الشخصيات اليهودية الشهيرة التي عاشت في الصين، ومنها إضافة إلى أفراد عائلتي ساسون وقادوري، مايك بلومنثال، وزير الخزانة الأمريكي الأسبق، إريك هالبرن، مؤسس مجلة فار إيسترن إيكونومك ريفيو، التي مازالت تصدر في هونغ كونغ، وكان أول محرر لها، وموريس كوهين (كان يُسمى كوهين ذو المسدسين) وقد عمل حارسا (بودي غارد) لزعيم الثورة الديمقراطية الصينية صون يات صن. ويضاف إلى القائمة يوسف عولمرت، جد رئيس وزراء إسرائيل إيهود عولمرت، ويحرص الحفيد إيهود على زيارة ضريح جده في مقبرة اليهود بمدينة هاربين تقريبا في كل مرة يزور فيها الصين.

رابعا: أن اليهود الذين عاشوا في الصين، سواء في كايفنغ قديما، أو في هاربين وشانغهاي وغيرها من المدن الصينية، كانوا شأنهم شأن اليهود في باقي دول العالم؛ يعيشون حياتهم في تجمعات مغلقة (جيتو)، فقد كان اختلاطهم مع الصينيين مقصورا على العمل، ولم يحدث بينهم ارتباط بالزواج والمصاهرات كما حدث مع جاليات أجنبية أخرى دخلت الصين، ولعل الذي يبقى في ذاكرة من عاصروا اليهود في الصين هو "أن اليهود مهرة جدا ويجيدون الأعمال التجارية" وفقا لما نقله تحقيق لصحيفة "تشينا ديلي" في ١٦ أبريل عام ٢٠٠١، عن فو يوه دوه، مدير مستشفى الأسنان في هاربين سابقا. وينقل التحقيق نفسه عن يهودي من الذين عاشوا في هاربين هو ياكوف ليبرمان، الذي ولد في هاربين عام ١٩٣٨ ثم انتقل إلى شانغهاي حتى غادرها عام ١٩٤٨ إلى حيفا، قوله.. إننا عشنا ثلاثة أجيال في أرض فسيحة تُسمى الصين، لا مندمجين ولا منعزلين مع أهل هذه الأرض، وإذا كان هذا يبدو كأنه جيتو، تأكد أنه لم يكن، فنحن؛ يهود الصين، كان مسموحا لنا، ولم نكن مجبرين، من مضيفينا الكرماء أن نعيش حياتنا الخاصة.

خامسا: أن الفترة من الخمسينات إلى بداية التسعينات شهدت ارتباطا ضعيفا بين اليهود والصين، ولكن الارتباط كان موجودا بوجود شخصيات مثل أبشتاين وشابيرو وغيرهما، ومع نهاية السبعينات من القرن العشرين، وانتهاج الصين سياسة الانفتاح على العالم بدأ العديد من اليهود الذين قضوا فترة من حياتهم بالصين، العودة لزيارتها، ومنهم ياكوف ليبرمان وتيدي كوفمان، رئيس جمعية الصداقة الصينية الإسرائيلية وهيلموت ستيرن، عازف الكمان بأوركستيرا برلين، وإيهود عولمرت، رئيس وزراء إسرائيل الذي أقامت أسرة جده في مدينة هاربين زمنا. وقد أقام اليهود الذين عاشوا في الصين جمعيات "يهود من الصين" في العديد من مدن العالم، مثل نيويورك، لوس أنجلوس، سان فرانسيسكو وسيدني وملبورن.

سادسا: أن الصين بها عدد من مراكز الدراسات اليهودية، منها مركز الدراسات اليهودية بجامعة نانجينغ، الذي أنشئ في مايو عام ١٩٩٢، ويرأسه البروفيسور شو شين، الأستاذ بكلية الدراسات الأجنبية في جامعة نانجينغ، وأنشط الشخصيات الصينية في مجال الدراسات اليهودية. وهذا المركز ينظم دورات حول تاريخ اليهود، يدرس بها نحو مائتي دارس سنويا. ويقوم البروفيسور شو شين بجولة سنوية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل، وقد منحته جامعة بار إيلان الإسرائيلية درجة الدكتوراه الفخرية "اعترافا بمساهماته في الدراسات اليهودية في الصين"، كما جاء في قرار مجلس الجامعة. ولا تكون جولات البروفيسور شو شين لقاءات وحديثا عن يهود الصين فحسب وإنما لجمع التبرعات لمركزه الذي أصدر عددا من الإصدارات، لعل أهمها الموسوعة اليهودية (بالصينية)، أساطير اليهود الصينيين في كايفنغ (بالإنجليزية)، اليهود في شانغهاي (بالإنجليزية والصينية) ومعاداة السامية.. كيف ولماذا (بالصينية) لشو شين نفسه.

المركز الهام الآخر هو مركز هاربين لدراسات اليهود في أكاديمية هيلونغجيانغ للعلوم الاجتماعية، وقد استقبل المركز، منذ افتتاحه في أبريل عام ٢٠٠٠، كثيرا من اليهود من الذين عاشوا في هاربين، وأصدر لي شو شياو، نائب مدير هذا المركز، ألبوما حول حياة يهود هاربين خلال القرن الماضي بعنوان "اليهود في هاربين" كتب له إسرائيل أبشتاين مقدمته التي جاء فيها ..."من أجل يهود هاربين، سوف تستمر ذكريات وطنهم الصيني إلى الأبد".

هذا إضافة إلى الجمعية الصينية اليهودية وأندية ومطاعم ومقاهي اليهود في المدن الصينية الكبيرة، ومنها بار mitzvah في بكين، الذي يقدم خدمات دينية لليهود في العاصمة الصينية، وkehillah Beijing أي جالية بكين، وهو ناد يقيم عشاء وصلوات مساء كل جمعة لليهود، وفي شانغهاي النشاط اليهودي أكثر من بكين بمراحل.

.....

هذه هي الحالة الدينية في الصين، فهل يمكن القول إن الصين دولة لا دينية؟ وهل يتعارض الانتماء للحزب الشيوعي مع الانتماء الديني للفرد؟ وهل سيظل أصحاب العقائد في الصين، برغم تزايد عددهم، أقلية بين الصينيين؟

هذه كلها أسئلة مطروحة حاليا داخل الصين ذاتها، وتخضع لدراسات وتحليل عميق من جانب الصينيين أنفسهم.

●●●

obeikan.com

الفصل السادس

الأقليات العرقية في الصين

نموذج مغاير

الأقليـات العرقية في الصين تعتبر حالة خاصة مميزة عن نموذج الأقليات في العديد مـن دول العالـم، ليس فقط للتعدد العرقي الهائل في الصين، حيث توجد ٥٥ أقلية عرقية معتـرف بهـا رسـميا وإنمـا لأن كل هذه الأقليـات لا يزيد عدد المنتمين لهـا عن ٨ر٤٪ من سـكان بـر الصيـن الرئيسـي بينما يمثـل أبناء قوميـة هان، القومية الرئيسـية فـي الصين ٦ر٩١٪ من سكان البلاد، وفقا لآخر إحصاء سكاني في الصين عام ٢٠٠٠، ولأن لكل منها لغـة وعـادات وتاريخ وثقافـة تختلف عن الأخـرى، ولأن الأقليات العرقية لعبـت دورا هاما في نجاح الثورة الصينية الشيوعية وخاصة خلال المسيرة الطويلة التي استمرت من عام ١٩٣٤ إلـى عـام ١٩٣٥، والتـي قطع خلالها الجيـش الأحمر من جنوب غربـي الصين إلى شـمالها الغربي، حوالي عشـرة آلاف كم، معظمها في مناطق يقطنهـا أبناء الأقليات، فقد أدرك قـادة الحزب الشـيوعي خلال تلك المسـيرة مدى حساسـية وأهميـة الهوية العرقية لكثيرين من قاطني تلك المناطق.

فـي رحلتـي إلى قويتشـو، بعد شـهور قليلة مـن وصولي إلـى الصين، ثـم رحلاتي إلى مناطـق أخـرى يقطنها أبناء الأقليات القومية، في نينغشـيا وفي شـينجيانغ، بل وفي بكين عندمـا كان يوجـد بهـا بعض الشـوارع المكتظـة بمطاعم أبناء شـينجيانغ والتـي حمل كل منهـا فـي تلـك الفترة اسـم "قرية شـينجيانغ"، كان لا بـد أن يثير انتباهـي واهتمامي هذا التنوع العرقي الممزوج بتنوع في الثقافة والطعام والسـلوك، بل والمظهر. كان مدهشـا أن أصادف صينيا في الصين لا يعرف اللغة الصينية، وهذا الصيني ليس مهاجرا إلى الصين وإنمـا ولـد هو وآبـاؤه فيهـا. والحقيقـة أن الأقليات الخمس والخمسـين التـي تعترف بها الحكومـة الصينية ليسـت كل الأعراق الموجودة في الصين، بـل إن هذا الحصر للأقليات القوميـة لـم يكـن موجودا قبل تأسـيس الصيـن الجديدة، وإنمـا تم بعد إقامـة الجمهورية

الشعبية عام ١٩٤٩، حيث أرسلت القيادة الجديدة في عام ١٩٥٠ فرق مسح للمناطق الحدودية لتحديد الجماعات العرقية التي أرادت أن يتم تسجيلها كقوميات رسمية (مينزو باللغة الصينية الرسمية). وقد ركز عمل تلك الفرق على دراسة تاريخ وعادات وتقاليد ولغة وعقيدة كل مجموعة عرقية. وقد تقدم أكثر من أربعمائة مجموعة عرقية بطلبات للاعتراف بها رسميا كقومية (مينزو) ولكن اعتُرف بثماني وثلاثين منها فقط في الإحصاء السكاني الذي أجري عام ١٩٥٣، وارتفع العدد إلى ٥٣ في إحصاء عام ١٩٦٦، ووصل عدد القوميات إلى ٥٦ في الإحصاء السكاني لعام ١٩٨٢ وعام ١٩٩٠، وكانت قومية جينوه هي آخر مجموعة عرقية اعتُرف لها بصفة القومية المستقلة. ومن بين المجموعات التي تقدمت بطلب للاعتراف بها كقومية بعض أبناء مدينة كايفنغ الذين يعتقدون أنهم من أصول يهودية.

وحسب الإحصاء السكاني الصيني الخامس الذي أجري في عام ٢٠٠٠ جاء ترتيب الأقليات العرقية الخمس والخمسين من حيث عدد الأفراد كما يلي: قومية تشوانغ، قومية مان، قومية هوي، قومية مياو، قومية الويغور، قومية توجيا، قومية يي، قومية منغوليا، قومية التبت، قومية بويي، قومية دونغ، قومية ياو، قومية كوريا، قومية باي، قومية هاني، قومية القازاق، قومية لي، قومية داي، قومية شه، قومية ليسو، قومية قلاو، قومية دونغشيانغ، قومية لاهو، قومية شوي، قومية وا، قومية ناشي، قومية تشيانغ، قومية تو، قومية مولاو، قومية شيبوه، قومية القرغيز، قومية داهور، قومية جينغبوه، قومية ماونان، قومية سالار، قومية بولانغ، قومية الطاجيك، قومية آتشانغ، قومية بومي، قومية أونك، قومية نو، قومية جينغ، قومية جينوه، قومية دآنغ، قومية باوآن، قومية روسيا، قومية يويقو، قومية الأوزبك، قومية منبا، قومية آلونتشون، قومية دولونغ، قومية التتار، قومية ختشه، قومية قاوشان، قومية لوبا.

وفي الصين تتضمن بيانات بطاقة هوية الفرد الانتماء العرقي له، بجانب النوع (ذكر/ أنثى) وتاريخ ومكان الولادة. ولا يمكن لأي مواطن صيني أن يغير انتماءه العرقي رسميا بعد بلوغه سن العشرين. ويتم تحديد الانتماء العرقي للفرد حسب الانتماء العرقي لوالده

أو والدتـه، فـإذا كان الأب والأم من قومية هان مثلا يكون انتماء الطفل لذات القومية، أما إذا كان الأب والأم ينتميـان إلـى قوميتيـن مختلفتيـن، هان وهوي مثـلا، فيحق للوالدين أن يختارا الانتماء العرقي لابنهما، إما تبعا لقومية الأب أو تبعا لقومية الأم، ولكن عندما يبلغ الطفل سن الثامنة عشرة يكون له حق اختيار انتمائه العرقي بنفسه، وبعد أن يتجاوز عتبة العشرين من عمره لا يحق له تغيير انتمائه العرقي مرة أخرى. إذا لا يمكن لأي شخص أن يغير انتماءه العرقي بإرادته بعد أن تم تحديد انتمائه العرقي رسميا.

.....

والحكومة الصينية تولي المسـألة العرقية اهتماما كبيرا، بل إن الحكومة الصينية بها لجنة على مستوى الوزارة معنية بالشؤون القومية والدينية، وتحرص الصين في مناسبات عديـدة علـى إبـراز تنوعها العرقـي، ويوجد فـي الصين محطـات تلفزيونيـة وإذاعية تبث برامجهـا بلغـات الأقليات العرقية.. وربما يكون السـؤال هو: لماذا هذا الاهتمام الرسـمي الكبير في الصين بالأقليات العرقية؟

هـذا يردنا إلى فترة حاسـمة من تاريـخ الصين الحديث، وواقعة محددة غيرت مسـار الأحـداث فـي الصين، عندما قرر الحزب الشـيوعي الصيني عام ١٩٣٤ القيام بما سُـمي بالمسـيرة الطويلة التي قطع خلالها الشـيوعيون الصينيون نحو عشـرة آلاف كيلومتر، ما بيـن عامـي ١٩٣٤ و١٩٣٥، هربـا من تهديد الإبادة لهم من قبل قوات تشـيانغ كاي شـيك، زعيم حزب الكومينتانغ آنذاك. كانت المسيرة الطويلة فرصة ربما ما كان يمكن أن يتيسر بدونهـا لقادة الحزب الشـيوعي، الوعـي العميق بالوجود العرقي والهويـة العرقية النابضة بالحيـاة للعديـد مـن الناس الذين صادفوا الشـيوعيين خلال مسـيرتهم مـن جنوب غربي الصين إلى شـمالها الغربي، والتي فقد خلالها الجيش الأحمر الشـيوعي عددا كبيرا من رجاله ونسـائه قبل أن يصل في النهاية إلى يانآن بمقاطعة شنشـي، حيث أسس بها المقر الجديد للحزب الشـيوعي؛ قاعدة يانآن الثورية، التي صارت في ما بعد أبرز معالم الثورة الصينية، ثم المقصد الأهم في رحلات "السـياحة الحمراء" التي يقصد بها زيارة الأماكن المقدسة للثورة الصينية..

انطلقت المسيرة الطويلة في أكتوبر سنة ١٩٣٤ من مقاطعة جيانغشي، عندما كان جيش الجبهة الأولى للجمهورية السوفيتية الصينية، التي أعلنها الشيوعيون، على وشك الهلاك التام في معقله بمقاطعة جيانغشي على يد قوات تشيانغ كاي شيك، ولكن الشيوعيين، تحت قيادة ماو تسي تونغ وشو إن لاي، تمكنوا من الانتقال إلى الغرب والشمال في رحلة استمرت نحو ٣٧٠ يوما، عبر أكثر المناطق تعقيدا في الطبوغرافيا والتضاريس بغربي الصين، وذلك بالاتجاه غربا في البداية، ثم شمالا حتى الوصول إلى شنشي بعُشر القوات التي خرجت من جيانغشي.

●●●

خلال هذه الرحلة الطويلة القاسية، أبدى أبناء الأقليات العرقية المتمركزة في غربي وشمال غربي الصين تعاطفا مع رجال الحزب الشيوعي ونسائه، وهو تعاطف ربما لم يتوقعه الشيوعيون أنفسهم. ومن القصص التي رويت لي عن تعاطف ومساعدة أبناء الأقليات القومية لقوات الجيش الأحمر، ما حدث عندما وصلت القوات الشيوعية إلى تونغشين في منطقة نينغشيا التي يوجد بها عدد كبير من أبناء قومية هوي المسلمين، بشمال غربي الصين سنة ١٩٣٦، وأقامت حكومة يويهاي الذاتية الحكم لقومية هوي، في المنطقة التي تسمى تونغشين حاليا. في تلك الأثناء بعث الجيش الأحمر بمجموعة من رجاله دخلوا سرا إلى ضاحية في تونغشين اسمها هونغقانتسه، للدعوة إلى تأييد الجيش الأحمر وحشد الدعم الجماهيري له. وقد علم جواسيس الكومينتانغ بهذا الأمر فراحوا يحيكون المؤامرات والحيل لطرد أو قتل المجموعة الشيوعية التي كان على رأسها أحد قادة الجيش الأحمر، اسمه تانغ تيان جي. في تلك الأثناء كان إمام مسجد هونغقانتسه، أحد أبناء قومية هوي، الإمام هونغ شو لينغ، ولقبه هونغ هاي روه، يتمتع بنفوذ بين أبناء المنطقة. تعاطف الإمام هونغ مع القائد الشيوعي تانغ تيان جي لدرجة أنه أواه في المسجد ليكون بعيدا عن عيون وأيدي جواسيس الكومينتانغ، ولم يتوقع الإمام أن تدخل قوات الكومينتانغ المسجد بحثا عن القائد الشيوعي، فالكل في المنطقة يعلم قدسية المسجد لدى المسلمين. ولكن قوات الكومينتانغ دخلت المسجد ولم يجد الشيخ هونغ

بُدا من إخفاء تانغ تيان جي في الغرفة الخاصة به المخصصة للتعبد والتي لا يدخلها أحد سواه، وهو أمر يعرفه قادة الكومينتانغ بالمنطقة، فلم يجرؤ جواسيس الكومينتانغ على دخول الغرفة. خلال وجود تانغ تيان جي مع الإمام هونغ استطاع الأخير أن يعرف مزيدا عن خطط الشيوعيين وأهدافهم وسياستهم. وقد عبر تانغ تيان جي عن الامتنان للإمام ولأبناء هوي فكتب بخط يده لافتة على حرير أحمر جاء فيها: "الإمام الكبير من قومية هوي.. حب أبناء الشعب كحب السماء.. من أبناء قومية هان الذين دافع عنهم الإمام". وعندما غادر أفراد المجموعة الشيوعية هونغقانتسه أهدى الإمام هونغ كل واحد منهم قطعتي نقد من الفضة، وقال لهم: "أنتم من الجيش الذي يعمل لصالح أبناء الشعب، اجتهدوا، و«سوف تدين لكم الجبال والأنهار»"، وهي عبارة صينية تعني أن البلاد ستخضع لكم.

قبل وفاته سنة ١٩٣٧ أوصى الإمام هونغ شو لينغ زوجته وابنه هونغ تشينغ قوه بالحفاظ على اللافتة التي أهداها إليه القائد الشيوعي الذي أصبح لاحقا نائب قائد إدارة الإمداد والتموين بجيش التحرير الشعبي الصيني بعد تأسيس الصين الجديدة سنة ١٩٤٩. ومازالت أسرة الإمام هونغ تتمتع بمكانة خاصة لدى الحكومة الصينية، وقد أتيحت لي عام ٢٠٠٧ فرصة لقاء حفيد الإمام هونغ شو لينغ، واسمه إبراهيم هونغ يانغ، زعيم طائفة النقشبندية الصوفية في نينغشيا، ويدرس ابنه حاليا في مصر، وكثير من تفاصيل قصة جده هذه رواها لي هو وآخرون، ومذكورة في سجلات تاريخ الصين والحزب الشيوعي.

لقد أدرك قادة الحزب الشيوعي أهمية المسألة العرقية، ولهذا ما أن وصلت قوات الجيش الأحمر إلى يانآن حتى صدرت الوعود بالاعتراف بالأقليات العرقية وإقامة مناطق حكم ذاتي لهم، وكانت منطقة تونغشين الذاتية الحكم لقومية هوي في نينغشيا، أول منطقة من هذا النوع في الصين.

وبعـد تأسـيس الصين الجديدة عـام ١٩٤٩، لعب الاعتراف بمجموعـات عرقية معينة على أنها "أقليات"، والاعتراف بقومية هان على أنها "الأغلبية" الموحدة، دورا جوهريا في صياغة أمة صينية موحدة.

●●●

وإذا كان أبناء الأقليات العرقية ينتشرون في كل أنحاء الصين، فإنهم يتمركزون بشكل واضح في المناطق الصينية الحدودية الغربية، وتحديدا في مناطق قوانغشـي وشينجيانغ ومنغوليـا الداخلية والتبت ونينغشـيا ومقاطعات يوننان وقويتشـو وسيتشـوان وتشـينغهاي وقانسـو وغيرها. وتعتبر قوانغشـي أكبر منطقة في الصين من حيـث عدد أبناء الأقليات، الـذي يقترب من عشـرين مليونا، بينما تعتبر التبت أكثر منطقـة صينية ذات تميز عرقي، حيـث أن نحـو ٩٤ر٤٪ من سـكانها ينتمـون إلى الأقليـات العرقية، وغالبيتهـم العظمى من قومية التبت. ومن المناطق ذات الوجود العرقي المميز منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم، حيث يمثل أبناء الويغور أكثر من نصف سـكانها بينما نسـبة أبناء هان حوالي ٤٠٪ مـن إجمالـي عدد سـكانها. والملاحظة الجديرة بالاعتبار هي وجـود أبناء قومية هان في كل مناطـق الأقليـات العرقية، وإن كان هذا الوجود يتضاءل إلى مسـتوى الوجود الحكومي ممثـلا في الجيش والشـرطة والإداريين فقـط في مناطق معينة نائيـة مثل أقصى جنوبي شينجيانغ.

يتركـز أبنـاء الأقليـات العرقيـة الصينيـون على حدود البـلاد التي تمتـد أكثر من ٢١ ألـف كيلومتـر، ومثلما الحال في دول عديدة، فإن الثلاثين أقلية صينية التي تقطن مناطق حدوديـة لهـا امتداد في دول مجـاورة، فأبناء القوميـة الكورية لهم أهل في شـبه الجزيرة الكورية، وكذلك أبناء القومية الروسية، والقازاق والمغول والقرغيز والطاجيك لهم امتداد عرقي في الدول المجاورة.

ومـن مفاراقـات الوضع العرقي فـي الصين، أن مناطق الأقليـات العرقية التي تصنف ضمن أفقر مناطق الصين، بها ثروات طبيعية هائلة، ففي منطقة شـينجيانغ وحدها أكثر من ثلث احتياطي الصين من النفط والغاز الطبيعي، ومع ذلك فعندما زرت شينجيانغ عام ٢٠٠٥ رأيت الفقر فيها يمشي على قدمين.

وتطبق الصين ما يسمى بالحكم الذاتي الإقليمي في مناطق الأقليات العرقية، وحسب الدستور الصيني، يحق للأقليات القومية، تحت قيادة الحكومة المركزية الموحدة، أن تمارس الحكم الذاتي في المناطق التي يتواجد فيها أبناؤها، وتقام الأجهزة الحكومية الذاتية الحكم التي تتمتع بصلاحية الحكم الذاتي لهذه الأقليات. وقد وضعت الصين في عام ١٩٨٤ "قانون الحكم الذاتي الإقليمي لمناطق الأقليات"، الذي يوضح حقوق وواجبات المناطق الذاتية الحكم للأقليات القومية في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية. ومع تغير الظروف أدخلت اللجنة الدائمة لمجلس نواب الشعب الوطني، أعلى سلطة تشريعية في الصين، عام ٢٠٠١ تعديلات على هذا القانون، حيث أضافت اللجنة موادا جديدة تقضي بزيادة الاستثمارات في المناطق القومية الذاتية الحكم وتعجيل خطوات التنمية فيها بهدف التغلب على المشاكل الواقعية التي تعرقل التطور الاقتصادي والاجتماعي المحلي.

ويوجد في الصين خمس مناطق يطبق فيها الحكم الذاتي للأقليات القومية، كان أولها منطقة منغوليا الداخلية التي تأسست عام ١٩٤٧، وهي المنطقة الوحيدة التي أقيم بها الحكم الذاتي قبل إقامة الصين الجديدة، ومنطقة شينجيانغ الويغورية ومنطقة التبت ومنطقة قوانغشي لقومية تشوانغ، ومنطقة نينغشيا لقومية هوي، وتحتل هذه المناطق الخمس ٤٥٪ من مجموع مساحة الصين.

وحسب دراسة ميدانية أجريت عام ٢٠٠٥ على عينة شملت ١٪ من سكان الصين بلغ مجمل عدد أبناء الأقليات العرقية الخمس والخمسين ١٢٣ر٣٣ مليون نسمة، أي ٩ر٤٤٪ من سكان الصين، وهو رقم أعلى من الرقم لإحصاء عام ٢٠٠٠، الذي أشرنا إليه في بداية هذا الفصل. ومن بين الأقليات القومية، بلغ عدد الأقليات القومية التي يتجاوز أفراد كل منها مليون نسمة ١٨ أقلية قومية، على رأسها قومية تشوانغ، إذ بلغ عدد أفرادها ١٦ مليونا و١٧٨ر٨ ألف نسمة تقريبا، وأقلها قومية لوبا وعدد أبنائها ثلاثة آلاف ليس أكثر.

●●●

وحسب كتاب "القوميات الصينية"، فإن قومية تشوانغ، هي الأكثر عددا بين الأقليات القومية في الصين، إذ يصل عدد أبناء تشوانغ ستة عشر مليونا و١٧٩ ألف نسمة، منهم

obeikan.com

أربعة عشـر مليونا و٢٠٧ آلاف نسـمة يعيشـون في منطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشـوانغ ويمثلـون حوالي ٨٨٪ مـن أبناء القومية. وبالإضافة إلى ذلك، يعيشـون في كل من يونان وقوانغدونغ وقويتشو وهاينان وهونان وخبي. وهم يستخدمون لغة تشوانغ المنطوقة والمكتوبـة ولغـة الهان المكتوبـة. أما قومية مان، فهي ثاني أكبـر أقلية عرقية في الصين، إذ يبلغ عدد أبناء مان، الذين يسـمونهم خارج الصين بالمنشـوريين، نحو أحد عشر مليون نسمة، معظمهم يعيش في شمال شرقي الصين، وخاصة في مقاطعة لياونينغ، وقليل منهم فـي مـدن الصين الأخرى. وقد حكم أبناء مان الصين مائتين وخمس وسـبعين سـنة، فهم مؤسسو إمبراطورية تشينغ التي استمرت من سنة ١٦٣٦ حتى سنة ١٩١١م.

ومـن بعدهمـا تأتـي قوميـة هـوي التـي يبلغ عـدد أبنائهـا نحو عشـرة ملايين نسـمة، يتمركزون رئيسـيا في منطقة نينغشـيا الذاتية الحكم، إذ يصل عدد أبناء هوي بها مليوني نسمة، يمثلون ثلث سكان المنطقة، كما أنهم موجودون في بكين ومقاطعات خبي ولياونينغ وآنهـوي وشـاندونغ وخنـان ويونان ومنطقـة منغوليا الداخليـة. وفي شـينجيانغ يبلغ عدد أبنـاء هـوي أكثر من مائتي ألف. أما قومية مياو، التي يبلغ عدد أبنائها نحو تسـعة ملايين نسـمة، فيعيش منهم في مقاطعة قويتشـو أربعة ملايين وثلاثمائة ألف يمثلون نحو نصف أبناء القومية. وهم موجودون أيضا في كل من مقاطعات يونان وهونان وهوبي وقوانغدونغ وسيتشـوان وبلديـة تشونغتشـينغ. وفـي منطقة قوانغشـي الذاتيـة الحكم لقومية تشـوانغ يتجاوز عدد أبناء قومية مياو مائة ألف نسمة. ولقومية مياو لغة منطوقة ومكتوبة.

ويبلـغ عـدد أبنـاء قومية الويغـور، ثمانية ملايين وأربعمائة ألف نسـمة، يعيشـون كلهم تقريبا في منطقة شـينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم، وهم جميعا مسـلمون ويسـتخدمون اللغـة الويغوريـة التـي تنتمي إلى الأرومـة التركية وتسـتخدم الحروف العربيـة. ومن أقدم قوميـات الصيـن، قوميـة يي، التـي يبلغ عـدد أبنائها سـبعة ملايين وثمانمائة ألف نسـمة تقريبا، ويعيش أبناؤها رئيسـيا في مقاطعات يونان وسيتشـوان وقويتشـو وشـمال غربي منطقة قوانغشـي الذاتية الحكم لقومية تشـوانغ، ولها لغة منطوقة ومكتوبة. وهناك قومية كبيرة في الصين اسـمها توجيا، يبلغ عدد المنضوين تحتها أكثر من ثمانية ملايين نسـمة،

يعيش معظمهم في ولاية شيانغشي الذاتية الحكم لقوميتي توجيا ومياو في مقاطعة هونان، وولاية أنشي الذاتية الحكم لقوميتي توجيا ومياو في مقاطعة هوبي، وهم قوم لهم لغة منطوقة. أما قومية منغوليا، فيبلغ عدد أبنائها حوالي ستة ملايين، يعيش منهم نحو أربعة ملايين في منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم، وهم يمثلون نحو سبعين في المائة من أبناء القومية. كما أن المغول، الذين حكموا الصين حينا من الدهر، موجودون في مقاطعات خبي ولياونينغ وجيلين وهيلونغجيانغ. وفي منطقة شينجيانغ الويغورية أكثر من مائة ألف منهم.

ويعيش نصف أبناء قومية التبت الخمسة ملايين وخمسمائة ألف نسمة، في منطقة التبت الذاتية الحكم، حيث يوجد مليونان وخمسمائة ألف تبتي بها، يشكلون ٥٢٪ من عدد أبناء القومية. وهم موجودون أيضا في مقاطعات سيتشوان وقانسو وتشينغهاي ويونان. وهم يعتنقون البوذية التبتية، ويستخدمون اللغة التبتية.

وهناك عدد من الأقليات التي يتراوح عدد أبنائها بين ثلاثة ملايين ومليون فقط، مثل قومية بويي، التي يبلغ عدد أبنائها نحو ثلاثة ملايين نسمة، يعيش معظمهم في جنوبي مقاطعة قويتشو، ويعيش بعضهم في مقاطعتي يونان وسيتشوان ومنطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ. وهم يستخدمون لغة قومية بويي المنطوقة والمكتوبة إضافة إلى لغة قومية هان. وقومية دونغ، التي يقترب عدد أبنائها من ثلاثة ملايين، يعيشون رئيسيا في المناطق الحدودية لمقاطعتي قويتشو وهونان ومنطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ، ولهم لغتهم الخاصة المنطوقة، وإن كانوا يستخدمون أيضا لغة قومية هان. ويبلغ عدد أبناء قومية كوريا في الصين نحو مليوني نسمة، يتركزون رئيسيا في ولاية يانبيان الذاتية الحكم لقومية كوريا بمقاطعة جيلين، على الحدود مع كوريا الشمالية، ولكن بعضهم يعيش أيضا في مقاطعتي هيلونغجيانغ ولياونينغ ومنطقة منغوليا الداخلية، ولهم لغتهم المنطوقة والمكتوبة.وقومية ياو، يبلغ عدد أبنائها مليونين وسبعمائة ألف نسمة، ينتشرون بصورة رئيسية في مقاطعات هونان ويونان وقوانغدونغ وقويتشو وجيانغشي ومنطقة قوانغشي، ولهم لغتهم المنطوقة. قومية باي، التي يقترب عدد أبنائها من مليوني نسمة،

يعيش معظمهم في ولاية دالي الذاتية الحكم لقومية باي بمقاطعة يونان، وهم يعتنقون البوذية ولهم لغة منطوقة. وقومية هاني، يبلغ عدد أبنائها نحو مليون ونصف المليون نسمة، ويتركزون في جنوبي مقاطعة يونان. ويبلغ عدد القازاق في الصين مليونا وربع المليون ينتشرون بصورة رئيسية في أجزاء من منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم، وهم مسلمون ولهم لغتهم المنطوقة والمكتوبة. وقومية داي التي يبلغ عدد المنتمين لها مليونا ومائتي ألف نسمة، يعيشون في منطقة شيشوانغبانا بمقاطعة يونان. ثم قومية لي، يبلغ عدد أبنائها مليونا وربع المليون نسمة يعيشون رئيسيا في مقاطعة هاينان.

هذا إضافة إلى عدد من الأقليات العرقية التي يقل عدد أفرادها عن مليون، مثل قوميات ليسو، وا، شه، قاوشان، لاهو، شوي، ناشي، دونغشيانغ، جينغبوه، بولانغ، قرغيز، تو، داهور، مولاو، تشيانغ، سالار، طاجيك، ماونان، قلاو، شيبوه، آتشانغ، بومي، نو، أوزبك، روسيا، أونك، باوآن، دآنغ، يويقو، تتار، لوبا، دولونغ، ألونتشون، ختشه، منبا، جينوه، جينغ.

●●●

وباستثناء عناصر معينة في التبت وشينجيانغ، لا يسعى أبناء الأقليات العرقية في الصين للانفصال عن الدولة، وإن كانت جهود الصين في مكافحة النزعات الانفصالية في شينجيانغ لا تتوقف، وقد أعلن المتحدث باسم مصلحة الأمن في شينجيانغ في الثامن من يناير عام ٢٠٠٧، عن مقتل ثمانية عشر "إرهابيا" خلال هجوم لقوات الأمن على معسكر للتدريب في شمال شرقي شينجيانغ تديره "حركة تركستان الشرقية الإسلامية"، وفي سبتمبر عام ٢٠٠٦ أعلن تشين قانغ، المتحدث باسم وزارة الخارجية الصينية، استنكار الحكومة الصينية ترشيح السيدة الإيغورية رابيا قادر (ربيعة قادر)، المقيمة حاليا في الولايات المتحدة، لجائزة نوبل للسلام، وبرر ذلك بأن تصريحات وأفعال رابيا تهدف إلى زعزعة السلام والاستقرار في المجتمع الصيني. وقال تشين إن رابيا (ربيعة) عضو في جيش "تركستان الشرقية" الإرهابي، وتم اعتقالها وحكم عليها القضاء الصيني بتهمة الإضرار بالأمن العام. هذه التصريحات أعادت إلى ذاكرتي رحلتي إلى شينجيانغ.

والحقيقة أنني قبل سفري إلى منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم، شمال غربي الصين، والتي تذكرها كتابات عربية باسم "سنكيانغ"، نصحني بعض من الأصدقاء الصينيين بأن أنتبه لسلامتي وأمني، فقد أتعرض لما يسيء إلي هناك. في الطريق إلى مطار العاصمة ببكين وأثناء رحلة الطائرة من عاصمة البلاد إلى عاصمة شينجيانغ، مدينة أورومتشي، لم تكن صورة شينجيانغ، التي يكتبها الويغور "شنجاك"، في مخيلتي قاصرة على تعاريش العنب وبطيخ هامي والغناء والرقص الفلكلوري المميز لأبناء الويغور، ولم تكن فقط صورة الإبل والفيافي أو حتى صورة مطاعم شينجيانغ في بكين، تلك المطاعم الأكثر تفضيلا لدي، فصورة شينجيانغ مرتبطة أيضا بالحركات الانفصالية والقلاقل التي شهدتها هذه المنطقة خلال تسعينات القرن الماضي وما يُكتب عنها خارج الصين والتنظيمات الانفصالية لقوى تسعى إلى إقامة ما تسميه "تركستان الشرقية".

أمضيت عدة أيام بين ربوع شينجيانغ؛ من أقصى جنوبها في كاشغر- "قه شقه ر"، كما تُكتب بلغة الويغور- إلى ألتاي في الشمال، كدت خلالها أنسى هذا الموضوع، فها أنا في قلب شينجيانغ أخرج بعد منتصف الليل إلى الشوارع، أسير بمفردي فلا أرى شيئا غير عادي، وإن كان الهاجس الأمني جعلني أحيانا أحدق في حارس الفندق الذي نزلنا به في مدينة ألتاي وهو يتفقد ليلا السيارات الواقفة أمام البناية بمصباح كشاف، ينظر أسفلها وفي داخلها.

ثم حدث ما لم أتوقعه!

ذات مساء، تم إخطار وفدنا الصحفي الزائر لشينجيانغ بأن نائب رئيس المنطقة سوف يلتقي بنا صباح اليوم التالي ومن شاء طرح أسئلة ينبغي أن يتقدم بها مكتوبة مسبقا. وحتى اللحظة الأخيرة كنت أستعد بالسؤال عن قضية الأمن في شينجيانغ، ولكنني لم أفعل. في الصباح كنت أمام كوره شي- مه خسوت (قرشي مقصود) وهو ويغوري، نائب رئيس المنطقة. شرع الرجل يتحدث في كل شيء بقلب وعقل مفتوح ويتطرق دون سؤال منا إلى قضية الأمن في المنطقة، ويقول صراحة إن من أولويات حكومة المنطقة توفير

الأمن والاستقرار بها، ذلك أن شينجيانغ يعيش بها أبناء ٤٧ قومية ولها حدود طويلة تمتد ٥٦٠٠ كم، وتجاور ثماني دول، بعضها يعاني قلاقل واضطرابات ودعوات انفصالية.

وقال المسؤول الصيني الويغوري إن شينجيانغ واجهت قبل وحتى تسعينات القرن الماضي تحديات زعزعة الأمن والاستقرار بها من قبل الانفصاليين وقد أثر هذا بالفعل على استقرار المنطقة، ".. وهذه حقيقة لا نخفيها". وأوضح مه خسوت بأن حكومة المنطقة لم تفعل ما يكفي في ذلك الوقت للتغلب على هذه المشكلة وهذا ما أعطى الفرصة لمجموعة قليلة من الناس للسعي إلى تقسيم الصين. ولكن، والكلام لنائب رئيس المنطقة، بدعم من الحكومة والشعب تحقق الكثير في تحسين الوضع الأمني. وأوضح بأن المنطقة زادت من جهود التعاون الأمني مع الدول المجاورة من خلال منظمة شانغهاي للتعاون، موضحا أن الهدف الأساسي لهذه المنظمة هو توحيد الجهود لقمع الإرهاب والعنف الدولي.

لم يكن حديث كوره شي- مه خسوت بهذه الصراحة والوضوح مفاجأة لي وحدي وإنما لكل أفراد مجموعة الصحفيين القادمة من بكين، وهي مفاجأة جعلت البحث في قضية الانفصاليين في شينجيانغ ليست، كما ظننا، سيرا في حقل ألغام!

وبينما نحن في عاصمة شينجيانغ تلقيت مفاجأة أخرى في دار نشر العلوم والتكنولوجيا التي يتولى رئاستها شاب ويغوري اسمه ديلشات ئابدوكيريم (دلشات عبد الكريم). المفاجأة هي ذلك الكتاب الذي حصلت عليه من الدار ويحمل عنوان "معلومات شينجيانغ" ويتضمن موضوعا بعنوان "أصل قضية تركستان الشرقية". هذا الكتاب الصادر في الأول من يوليو عام ٢٠٠٤ يعرض قضية تركستان الشرقية بشيء من التفصيل.

وفقا للكتاب، ظهر مصطلح "تركستان" في الأعمال الجغرافية العربية في العصور الوسطى، وهو يعني "منطقة الترك" ويشير إلى المناطق الواقعة شمال نهر سير دريا، (وهو أحد نهرين، الآخر هو آمو دريا، يصبان في بحر آرال بآسيا الوسطى). وقد يكون من المفيد هنا أن أشير إلى أن كلمة "ستان" ليست عربية، والأغلب أنها فارسية

وإن ذكرت بعض المصادر أن أصلها كردي أو تركي، وهي تعني الأرض أو المنطقة أو البلد، فأفغانستان هي أرض الأفغان وقازاقستان هي منطقة القازاق وكذلك باكستان وقرغيرستان وأوزبكستان إلخ.

وحسب كتاب "معلومات شينجيانغ"، مع التطور التاريخي نشأت المجموعات العرقية الجديدة في آسيا الوسطى واحدة بعد أخرى، وبنهاية القرن الثامن عشر أمسى مفهوم "تركستان" الجغرافي مبهما للغاية، ولم يعد أحد يستخدمه تقريبا في السجلات التاريخية لذلك الزمان. ولكن في بداية القرن التاسع عشر ومع التوسع الاستعماري للإمبريالية إلى آسيا الوسطى عاد مصطلح "تركستان" إلى الظهور مرة أخرى.

ويقول الكتاب إن شخصا روسيا اسمه تيمكوفسكي استخدم مصطلح تركستان مرة أخرى عام ١٨٠٥ في تقرير عن مهمة دبلوماسية لوصف الموضع الجغرافي لآسيا الوسطى وحوض تاريم في جنوبي شينجيانغ الصينية. وبالنظر إلى اختلاف التاريخ واللغة والعادات والانتماءات السياسية للمنطقتين، قال إن حوض تاريم في شينجيانغ يقع إلى الشرق من تركستان وهو "تركستان الشرقية" أو "تركستان الصينية". وفي منتصف القرن التاسع عشر ضمت روسيا الثلاثة خانات في آسيا الوسطى وهي خيوا أو خيفا وبخارى وكوكاند، وعليه فقد أطلق البعض في الغرب على منطقة ما وراء النهر "تركستان الغربية" أو "تركستان الروسية"، وأطلقوا على منطقة شينجيانغ اسم "تركستان الشرقية".

في بداية القرن العشرين والفترة التالية، وبتأثير من التوجه الدولي للتطرف الديني والشيفونية القومية- حسب الكتاب- قامت مجموعة ضئيلة من الانفصاليين والمتطرفين الدينيين بتسييس وتمييع مصطلح "تركستان الجغرافي" واختلقوا منظومة أيديولوجية ونظرية حول ما يسمى "استقلال تركستان الشرقية"، على أساس المزاعم التي لفقها المستعمرون القدامى. ويقول الكتاب إن هؤلاء يزعمون أن تركستان الشرقية كانت دولة مستقلة منذ قديم الزمان وأن شعبها الذي يرجع تاريخه إلى عشرة آلاف عام هم أفضل أمة في تاريخ البشرية. وقاموا بتحريض كل المجموعات العرقية التي تتحدث التركية

وتدين بالإسلام أن توحد جهودها لإقامة دولة ثيوقراطية دينية، وطالبوا بمعارضة كل القوميات غير الترك والقضاء على الوثنيين، زاعمين أن الصين هي عدو تركستان الشرقية لمدة ثلاثة آلاف عام.

وبعد ظهور نظرية "تركستان الشرقية" رفع الانفصاليون بمختلف أطيافهم راية "تركستان الشرقية" لتنفيذ نشاطات تهدف إلى تحقيق رغبتهم في إقامة دولة "تركستان الشرقية".

وقد قامت قوى "تركستان الشرقية" في الفترة من بداية القرن العشرين حتى عام ١٩٤٩ بالعديد من الاضطرابات بتشجيع ودعم من القوى الأجنبية المعادية- حسب وصف كتاب "معلومات شينجيانغ"- وفي عام ١٩٣٣ أقام ثابت دامولا وآخرون ما سُمي "جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية" في كاشغر ولكنها انهارت خلال أقل من ثلاثة أشهر. في عام ١٩٤٤ اندلعت "ثورة المناطق الثلاث" (إيلي وتاتشنغ وألتاي)، ضد حكم حزب الكومينتانغ "الوطنيين"، غير أن إلهان (إلهام) توريه، وهو أوزبكي من الاتحاد السوفيتي السابق اغتصب قيادة الثورة في أيامها الأولى وأسس ما سمي "جمهورية تركستان الشرقية" في ينينغ، جنوبي شينجيانغ، ونصب نفسه رئيسا لها. وفي يونيو ١٩٤٦ أزاحه أحمد جان قاسمي وعبد الكريم عباسوف (عباس) وجعلا "جمهورية تركستان الشرقية" مجلسا استشاريا لمنطقة إيلي الإدارية، وكان ذلك ضربة قاصمة للقوى الانفصالية. وفي سبتمبر عام ١٩٤٩ كانت شينجيانغ تحت سيطرة الحزب الشيوعي الصيني بعد التغلب على ما بقي من قوى للكومينتانغ بها. ولكن دعاة انفصال شينجيانغ لم يكفوا عن سعيهم. وحسب الكتاب فإنهم بتأثير من التطرف الديني والإرهاب الدولي قاموا في تسعينات القرن الماضي بنشاطات تخريبية وانفصالية داخل وخارج الصين ومنها عمليات اغتيال وتفجيرات. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتصاعد الدعوة إلى التعاون في مجال مكافحة الإرهاب الدولي أدرجت حركة تركستان الشرقية الإسلامية في القائمة الدولية للمنظمات الإرهابية.

وفي تقديري أن هذه الحركات الانفصالية في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر تواجه طريقا كان بالفعل مسدودا قبل هذا التاريخ.

في شينجيانغ، وعلى أرض الواقع لا تلاحظ شيئا يقول إن هؤلاء الناس يفكرون في الانفصال أو اللجوء إلى العنف لأنهم ببساطة مشغولون حتى الرمق الأخير بتدبير قوتهم في بيئة طبيعية قاسية، ولأن شينجيانغ ركن أساسي في الدولة الصينية، فهي سُدس مساحة الصين، وبها نحو ثلث احتياطي النفط وثلث احتياطي الغاز الطبيعي وأكثر من ثلث احتياطي الفحم في الصين وهي بوابة الصين الشمالية الغربية، فكيف يمكن أن تسمح الصين لأحد أن يقتطع هذا الجزء، أو غيره منها؟

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السابع

ثقافة المائدة الصينية

في أحد أيام شهر أكتوبر عام ١٩٩٢، وكنت قادما جديدا إلى الصين، دعيت إلى غداء ترحيب مع مدير ورئيس تحرير "الصين اليوم"، السيد منغ جي تشين. صعدت مع من صحبني من زملاء العمل إلى الطابق الثاني لمطعم دار النشر باللغات الأجنبية "واي ون جيويه"، وكان هذا الطابق مخصصا للقادة والمدراء. وقد لفت انتباهي أننا وصلنا إلى المائدة حوالي الساعة الحادية عشرة ونصف صباحا تقريبا، وتساءلت في نفسي: هل هذا غداء أم إفطار متأخر، ناسيا أنني هنا في الصين.

لم أنتبه لترتيب الجلوس الذي أشار به الزملاء، في لطف شديد، ولكن وجدت نفسي وجها لوجه مع مضيفي، السيد منغ. الوليمة التي بدأت ببعض أطباق الفاكهة استمرت حتى ما بعد الثالثة عصرا وكان فيها تبادل كلام ومشاعر أكثر من الطعام الكثير الذي عمرت به المائدة. كانت هذه أول مرة أجلس نحو أربع ساعات متواصلة على مائدة طعام ولعلها أيضا كانت أول مرة أتكلم فيها على الطعام أكثر مما آكل. منذ هذا اليوم بدأت رحلة طويلة بيني وبين المائدة الصينية، التي اكتشفت لاحقا أنها أبعد كثيرا من طاولة توضع عليها أطباق وأكواب وعصي لتناول الطعام.

الطعام بحد ذاته في الصين ليس مجرد لقيمات تملأ المعدة وتسد الرمق بل تاريخ وثقافة وأدب وفن وعلاقات عامة، وفوق هذا وذاك متعة من نوع خاص. وللطعام مكانة هامة في تكوين الشخصية الصينية، وفهم هذا الأمر قد يريح كثيرين من الذين يَعجبون عندما يترك الصينيون كل شيء وأي شيء حين يحين وقت الطعام، فالطعام يجُب ما قبله وما بعده. ولعل هذا قد يعين في إدراك مغزى كل حركة وكلمة على المائدة، فقد قال الصينيون منذ بدء قصة الحضارة: "بالنسبة للشعب، الطعام في المقام الأول".

ورحلة الطعام في الصين عمرها عمر حضارة الصينيين ذاتها، لدرجة أنني يمكن أن أزعم أن حضارة الصينيين بدأت من بطونهم. وعلى الرغم من افتتان العرب بالشواء وولعهم المعروف بالأطعمة المشوية، فالحقيقة هي أن الصينيين كانوا أول من اخترع واستخدم النار في الشواء، وبعد أن كان الإنسان الصيني يأكل الطعام نيئا صار يشويه، وهكذا فإن هذا الاختراع الصيني ميز الإنسان عن مملكة الحيوان. ويذكر كتاب صيني قديم يحمل عنوان "تشو لي" أي طقوس تشو- والمقصود هنا أسرة تشو الملكية- أن أول من ابتكر النار واستخدمها في الشواء شخص أسطوري اسمه سوي رن شي. وقد ظل الصينيون مئات السنين يشوون طعامهم في النار المفتوحة، سواء مباشرة على اللهب أو على ألواح حجرية تُحمى بالنار، قبل أن يعرفوا طريقة أخرى لطهي الطعام هي السلق، فقد كان سلق الطعام ثاني طريقة استخدمها الصينيون في طهي طعامهم. وكان أسلوب السلق الأول عبارة عن وضع أحجار ساخنة في أوعية من الخشب والحجر والجلد مليئة بالمياه حتى يصل الماء درجة الغليان. وقد أدى اختراع الصينيين للأواني الفخارية إلى جعل عملية غلي الماء وسلق الطعام أكثر سهولة، حيث يمكن وضع الوعاء الفخاري مباشرة على النار. وحوالي سنة خمسمائة قبل الميلاد كان سلق الطعام في الأواني الفخارية شائعا في كل مكان بالصين.

●●●

كان التطور التالي في الطهي هو الطبخ على البخار، إذ تشير المكتشفات الأثرية في الصين إلى أن أوعية الطعام المطهو على البخار كانت مستخدمة في زمن أسرة ين (القرن ٦١ - القرن ١١ ق.م). فقد استخدم الصينيون طاقة البخار قبل آلاف السنين من اختراع المحرك البخاري في أوروبا، في القرن السادس عشر، ومازال أشهر أنواع الخبز الصيني الذي يسمى بالصينية "مانتو" ينضج على البخار، ومازال الصينيون يطهون الأرز على البخار حتى يومنا هذا.

بعـد الأدوات الحجريـة والأواني الفخارية ظهرت الأوانـي المتخصصة وأواني الطعام المصنوعة من البرونز، ثم من الحديد، ومن أشـهر تلك الأوعية ما يسـمى بالصينية دينغ، وهـو وعـاء لـه ثلاثة قوائم تجعله مسـتقرا عند وضعـه علـى الأرض. وكان دينغ إلى جانب اسـتخدامه كوعـاء للطعام والماء، يسـتخدم أيضا في الطهي بوضعـه فوق النار. وفي زمن أسـرتي شـانغ وتشـو كانت أواني دينغ البرونزية والحديدية أدوات مائدة ذات قيمة عالية فـي ذلـك الزمان. ونظـرا لارتفاع تكلفتهـا كان يقتني أواني دينغ الأثريـاء وأصحاب النفوذ فـي المجتمع، فقد كانت رمـزا للوجاهة والثراء. وهناك قول صيني يعبر عن هذا المعنى، وهـو "موسـيقى الأجـراس ترافق الطعام الذي يُقدم في دينغ"، إشـارة إلـى الحياة المُترفة التي كان يعيشـها أفراد الطبقة الحاكمة فـي الصين القديمة؛ فقد كانوا يتناولون طعامهم فـي المناسـبات في أوانـي دينغ برونزية على أنغام الموسـيقى الجميلـة والرقص. وبمرور الوقـت باتـت أواني دينغ رمزا للمكانة العاليـة والوضع الاجتماعي، وفي النهاية كانت رمزا للسلطة الإمبراطورية. وخلال فترة أسرة هان الإمبراطورية بدأت أدوات المائدة الخزفية في الظهور، واستمر تفوق الصينيين في صناعة أدوات المائدة الخزفية، حتى صار اسمها مرادفا للصين، فالعرب يسمونها الصيني، وفي الغربي كانوا يسمونها تشينا.

أمـا ملاقـط (عصي) الطعام فقـد عرفها الصينيون قبل ذلك بزمـن طويل، فقد كانت شائعة الاستخدام في أرجاء الصين في بداية فترة الربيع والخريف، الفترة التي ظهر بها مفكر الصين العظيم كونفوشيوس.

●●●

والصينيون لهم قصب السـبق في اسـتخدام التوابل، حيث لم يكن مفهوم تتبيل الطعام موجودا في عصور ما قبل التاريخ لا في الصين ولا في غيرها، فبعد اختراع الطهي، ظل الطعـام يـؤكل بدون طعم معيـن لفترة طويلة. وتشـير كتابات صينية قديمـة إلى أن أنواعا معينة من البُهارات كانت مسـتخدمة في زمن أسـرة شانغ. ويقال إنه عندما كان إمبراطور أسـرة تشـو يقدم القرابين أو يقيم مناسـبات كبيرة لضيوف على درجة عالية من الأهمية،

كان يُوضع على المائدة مائة وعشرون نوعا من الصلصة المتبلة. ولا عجب في هذا، فالصين بها أكثر من خمسمائة نوع من البهارات، وتضاف الصلصة لكل الأطعمة الصينية تقريبا، وحتى اليوم عندما تدخل مطعما صينيا تجد على كل مائدة قنينة صلصة، وأخرى بها الخل الأحمر.

والذين يكتبون عن الأطعمة الصينية يؤكدون دائما على أن الصينيين يأكلون كل ما يقف على أربع إلا طاولة الطعام، وكل ما يطير في السماء إلا الطائرة، وكل ما في البحر إلا السفينة. والحق أن الطعام في الصين متنوع بشكل لا مثيل له في أي مجتمع آخر، وفي أسواق الخضار واللحوم والدواجن الصينية ترى أشكالا غريبة، عليك طبعا وليس على الصينيين، من كل شيء، حتى وإن وضعت جانبا الأطعمة المعدلة وراثيا التي حققت الصين فيها شأوا عظيما، فترى النوع من الخضار ضعف حجمه الذي كنت تراه قبل عشرين عاما، وترى أنواعا من الخضراوات لا تؤكل في بلدك ولكنها شهية ومقبولة في الصين. وقد عجبت عندما رأيت على طاولة بيع في أسواق الخضار أكواز اللوف الخضراء، التي يستخدمها الناس في مناطق أخرى بالعالم في الاستحمام بعد جفافها. وقد أدهشني، في البداية، من قال لي إنها لذيذة ومغذية.

وأنا أميل دائما إلى تصديق الرأي الصيني في قيمة الأطعمة، وربما لا يوجد شعب آخر في العالم غير الصينيين يحدثونك على مائدة الطعام عن القيمة الغذائية لكل صنف من الطعام أمامك ويذكرونك بالثمن الغالي لكل نوع، ويحثونك على تذوق هذا الطبق لأنه غال جدا، أو أنه من الخضراوات البرية. وتقول الكتب الصينية إن هؤلاء القوم كانت لهم بالفعل نظرية حول التغذية المتوازنة منذ فترة الربيع والخريف- الدويلات المتحاربة. وحسب تلك النظرية القديمة، تتكون الوجبة المتكاملة من خمسة أنواع من الحبوب الرئيسية، تكملها خمسة أنواع من الفواكه وخمسة أنواع من لحوم الحيوانات المستأنسة، وتتمها خمسة أنواع من الخضراوات. والنباتات الصالحة للأكل ليست فقط الحبوب والخضراوات وإنما أيضا العديد من الأعشاب والفواكه والزهور والفطر. وتشير الإحصاءات إلى أن الصينيين يأكلون أكثر من ستمائة نوع من الخضراوات. وهم يأكلون

مـن النبات كل شـيء فيـه، الجذر والسـاق والأوراق، ويسـتخدمون في طعامهـم كل أجزاء الحيوان والطير، ومنها الأذنان واللسان والأجنحة والغشاء والأعضاء الداخلية، أما الجلد فيجفف ويحمص، ويستخدم الدم المتخثر في العديد من الأطباق والحساء، وإن كان هذا التوجه يقل حاليا.

وقد لا يفهم البعض سبب تناول الصينيين لطعامهم بملاقط الطعام وعدم استخدامهم للملعقة أو الشـوكة كوسـيلة أسهل، ولكن الأمر له علاقة بتاريخ الطعام الصيني، حيث كان الطعـام الأكثر شـيوعا في الصين القديمة هو نوع من الحسـاء الغليـظ يُصنَع من الحبوب والخضراوات واللحوم، ويُسمى بالصينية قنغ، وكانت ملاقط الطعام هي أفضل أداة لرفع قطع الخضراوات واللحم من المرق إلى الفم، بديلا عن الأيدي.

وفـي العصـر الحديث، وتأكيـدا لمحورية الطعام فـي الثقافة الصينيـة، كتب د. صون يات صن (سون تشونغ شان) (١٨٦٦ – ١٩٢٥م)، زعيم ثورة ١٩١١ الديمقراطية الصينية: "الشـاي البسـيط والحبوب المسـلوقة هي الطعام اليومي للصينيين، وهم يسـتمتعون على نحو خاص بالخضراوات والدوفو (جبن فول الصويا)". والحقيقة أن هذه الوصفة تتفق مع ما ينصح به خبراء التغذية حاليا من أجل الحياة الصحية والرشـاقة البدنية. وبين سـكان الريـف الصيني الأطول عمرا هم الذين لا يشـربون الكحوليـات ولا يأكلون اللحم. وتتكون الوجبة الصينية التقليدية أساسـا من الحبوب والخضراوات ويعتقد بعض العلماء أن هذا ساهم في تشكيل طبيعة الصينيين في الالتصاق بالأرض والوطن الأم وبتقاليد أسلافهم.

●●●

وعلـى مـدى نحـو ألف عام مـن التطور الزراعـي، اكتشـف الصينيون عـددا وافرا من المنتجات النباتية الصالحة للأكل. والنباتيون لهم في الصين تاريخ يعود إلى آلاف السنين. وتشـمل الوجبـة النباتيـة الصينية، ليـس فقط الحبوب والخضـراوات، وإنمـا أيضا الفول بأنواعه، الفطر، الجذور، البقوليات، فول الصويا وبراعم الخيزران، التي أدمنت أنا عليها بعد أن كنت متأففا من تناولها في بداية معرفتي بها. وقد وظف طهاة الأطعمة النباتية في

الصين العديد من الطرق المعقدة لابتكار جملة واسعة من الأطباق، ومنها أطباق الدوفو والمرق والطهي على النار الهادئة، أي ما يُسمى في الغرب بالسوتيه. وقد وصل المطبخ الصيني النباتي قمة ازدهاره خلال فترة تانغ- سونغ (٦١٨ - ١١٢٧م). في ذلك الوقت كان يوجد أكثر من مائة نوع من أطباق الخضار في مطاعم النباتيين بعاصمة أسرة سونغ، وحظيت كتب تعليم الطهي بانتشار واسع في تلك الفترة. وبحلول فترة مينغ- تشينغ (١٣٦٨ - ١٩١١م) ظهرت أنماط من المطابخ النباتية البوذية والإمبراطورية والشعبية، وكانت هناك مطاعم نباتية مشهورة في كافة أرجاء الصين، يذهب إليها خصيصا عشاق الأطعمة النباتية. وقد دخلت مطعما صينيا في بكين لا يقدم لزبائنه إلا الفطر، أي المشروم، ما يزيد على عشرين نوعا متعددة الألوان والأشكال من هذا النبات الذي كنت أراه ينمو على شواطئ الترع وضفاف القنوات المائية في مصر وكنا نسميه "عيش الغراب". ومن أجل جذب زبائن أكثر طورت مطاعم النباتيين عددا من الأطباق النباتية التي تحاكي أطباق اللحوم، ومن بينها أطباق الدجاج النباتي، السمك النباتي واللحم المحمر النباتي، كل طبق له مذاق الطبق الذي يحاكيه. وتنتشر حاليا في بكين والمدن الصينية الكبرى مطاعم نباتية خاصة ولكن أسعارها أغلى من المطاعم العادية. والصينيون، بشكل عام، يتناولون طعامهم، سواء في الوجبات اليومية أو في اللقاءات الأسرية أو الأعياد أو المآدب الرسمية، من أوعية مشتركة، حيث يجلس الجميع حول طاولة ويتناولون الطعام منها.

●●●

والطعام رمز للمكانة الاجتماعية، في الصين كما في بلاد أخرى. وقد كان الناس في قريتي، منشاة قاسم بالشرقية في مصر، يتندرون على رجل بأنه يأكل اللفت المُخلَل ويخرج ليغسل يديه وفمه أمام البيت بالماء والصابون، وكأنه أكل اللحم ذا الدهن، فتناول اللحم كان دليلا على الثراء، تماما مثلما كان يحتفظ البعض من أهل الصين بقطع شحم (دهن) في بيوتهم يدهنون بها حواف فمهم عندما يخرجون، دليلا على تناولهم للحم. في الصين، كشفت الاختبارات التي أجريت على عظام بشرية في عدد من المواقع الأثرية عن أن وجبات الطبقة الحاكمة القديمة كانت تتكون رئيسيا من اللحم، بينما كانت وجبات

العامة تتكون رئيسيا من النباتات، ولهذا فإن المسؤولين الحكوميين كانوا يوصفون بأنهم "أكلة اللحوم".

وإذا كان أهل مصر يقولون: "إن الذي بنى مصر في الأصل حلواني"، فإن الكتابات التاريخية الصينية تؤكد أن فو شي، واضع أصول الحضارة الصينية، كان طباخا، ومن ثم فإنه ليس من المبالغة أن نقول إن الذي بنى الصين كان في الأصل طباخا.

وقد قال سياسي صيني مرموق في فترة الربيع والخريف: "بالنسبة للحاكم، الشعب في المقام الأول؛ وبالنسبة للشعب، الطعام في المقام الأول". ويردد الصينيون حتى الآن مقولة أن الطعام سماء للشعب. وتقول الأسطورة الصينية إن إمبراطور السماء منح حكام الصين القدماء مجموعة من ثمانية قوانين ليحكموا بها الشعب، أولها وأهمها كان القانون الخاص بالطعام. وهناك قول صيني شائع بأن "كل بيت ينبغي أن يكون فيه حطب، أرز، زيت، ملح، صلصة فول الصويا، خل، وشاي". وجاء في التعليمات الصينية القديمة لشن الحرب أنه: "يجب إرسال الحبوب وعلف الماشية قبل نشر القوات".

وقد أدرك مؤسس إمبراطورية مينغ في الصين، تشو يوان تشانغ (١٣٢٨ – ١٣٩٨م) أهمية إمدادات الحبوب وتوفرها إذا أراد أحد أن يستولي على السلطة في الدولة. وكانت الاستراتيجية الشهيرة والفعالة لهذا الفلاح الحصيف الذي أقام إمبراطورية، هي "شيد أسوار المدينة عالية، خزن الحبوب في كل مكان، لا تتسرع بإعلان نفسك إمبراطورا"، وهي الاستراتيجية التي مكنته من تأسيس إمبراطورية أسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤م)، واعتلاء العرش في سابقة هي الأولى وربما الأخيرة في التاريخ لتحول فلاح إلى إمبراطور. وقد رفع ماو تسي تونغ (١٨٩٣ – ١٩٧٦م)، مؤسس جمهورية الصين الشعبية، شعارا مشابها خلال سبعينات القرن الماضي، فقد قال ماو، "احفروا الأنفاق عميقة، خزنوا الحبوب في كل مكان، لا تتورطوا في الهيمنة". وهذا يعني إقامة ملاجئ واقية من القنابل، تخزين كميات كافية من الحبوب، عدم الطغيان على الدول الأضعف. وحتى في الصين الحديثة، مازالت سياسة الحبوب ذات أهمية كبيرة في سياسة الدولة ويحتل

إنتاج الحبوب في الصين مكانة هامة في السياسة الزراعية. ويُحكى أن ضيفا أجنبيا سأل ماو تسي تونغ عن السبب الذي يعزو إليه نجاح الثورة الصينية. فأجاب ماو، "الدُخن والبندقية". والدخن، بضم الدال، نوع من الحبوب. وما قاله الزعيم ماو له جذوره الفكرية والتاريخية في الصين، ففي حوار بين كونفوشيوس وواحد من تلامذته، سأل التلميذ أستاذه الحكيم: كيف يجب أن تُحكم الدولة؟ فقال كونفوشوس: مقومات الحكم هي أن يتوفر طعام كاف وتجهيزات عسكرية كافية وثقة الشعب في حاكمه، فسأل التلميذ: إن لم يكن من بُد، ويجب الاستغناء عن واحد من تلك، أي منها يجب التخلي عنه أولا؟ رد كونفوشيوس: التجهيزات العسكرية. فقال التلميذ: إن لم يكن من بُد، ويجب الاستغناء عن واحد من الاثنين الباقيين، أيهما يجب التخلي عنه أولا؟ قال الحكيم: جزء من الطعام، فمن قديم الزمان الموت هو مصير كل البشر، ولكن إن لم يكن لدى الشعب إيمان بحكامه، فلا مبرر لوجود الدولة.

●●●

للمائدة في الصين آدابها الخاصة. وقد ورد في كتاب بعنوان "الطعام والثقافة الصينية"، إنه كان من عادة العشائر في الصين القديمة، أن تقيم مآدب بغرض مناقشة شؤون العائلة، وكان للطعام آداب ومراسيم خاصة. وفي زمن أسرة شيا (٢٠٧٠ – ١٦٠٠ ق.م)، كان يوجد نظام لآداب ومراسيم الطعام للقاءات الجماعية، ومازال بعض من هذه العادات باقيا إلى اليوم.

ويحدد كتاب يي لي (المراسيم والشعائر) الآداب والمراسيم التالية للمآدب التي يقيمها الإمبراطور لكبار القوم والشخصيات الهامة. تبدأ تلك المراسم بأن يُرسل الإمبراطور مسؤولا رفيعا إلى مقر الضيف لنقل الدعوة إليه. ويكون من المتوقع أن تبدي الشخصيات الكبيرة رفضا، بأدب، عدة مرات قبل أن توافق في النهاية على مرافقة المبعوث إلى المأدبة. داخل قاعة المأدبة، يكون الجميع مستعدا والإمبراطور في كامل حُلته، يرحب بالضيوف الكبار خارج البوابة الرئيسية لقصره. ويتبادل المضيف والضيوف التعبير عن

الاحتـرام، ويعبـر الضيـوف عـن امتنانهم للدعـوة الكريمة، قبـل أن يدخلوا قاعـة المأدبة ويتخذ كل منهم مقعده، وهنا يظهر الخدم ومعهم أوعية الطعام من كل نوع، مليئة بالسمك، واللحـم، والخضراوات، والبهارات والمشـروبات. ويكون تقديم كل طبـق، وأدوات المائدة، وجلـوس الضيـوف وفق ترتيب صارم لا يجوز انتهاكـه. عندما تبدأ المائدة، يعبر المضيف والضيوف عن احترامهم لبعضهم البعض مرات متكررة قبل أن يشرعوا في تناول الطعام. بعـد انتهـاء المأدبة، يبدأ الضيوف في الاسـتئذان بالانصراف، فيقـوم الخدم بلف الطعام الـذي لـم يؤكل للضيوف، ويرافقونهم إلى بيوتهم ومعهـم الطعام المتبقي. ولهذا لا تعجب، ولا تغضـب، عندمـا يرافقك صديـق صيني إلى مطعم وبعد الانتهاء من الطعام يشـير إلى النادل بأن يلف الطعام المتبقي ثم يقترح عليك أن تأخذه إلى بيتك، فإن أصررت أنت على الرفـض لعـدم حاجتك إليه، يحمله هـو الطعام المتبقي إلى بيته. إنـه تقليد صيني أصيل فاجأنـي فـي أول مرة ذهبت إلى مطعم مع أصدقاء صينييـن، ولكنه بات أمرا مألوفا وقد تأثر به كثير من الأجانب المقيمين في الصين فصاروا يفعلون مثل أهل الصين.

هنـاك أيضا مراسـيم صارمـة للمـآدب العادية، فترتيـب جلوس المضيـف والضيوف يُحـدد بصرامـة، حيـث يكون جلوس كبار السـن والضيـوف الكبار علـى رأس الطاولة. إذا جلـس الضيوف متقابلين على امتداد الجانبين الشـمالي والجنوبي للمائدة، يعتبر الجانب الغربي رأس الطاولة، وإذا جلس الضيوف متقابلين على امتداد الجانبين الشرقي والغربي للطاولة، يعتبر الجانب الجنوبي رأس الطاولة.

وكان النـاس فـي الصيـن القديمـة، قبـل اختـراع الطاولـة والكراسـي، يجلسـون فوق الحصائر على الأرض لتناول الطعام. وبشكل عام، كان الضيف الأكبر سنا، يجلس متقدما قليـلا عـن الآخريـن. وكان الضيوف ينهضـون من جلوسـهم عند تقديم الطعـام أو وصول ضيـف كبيـر، تعبيرا عن الاحترام. وقبـل تناول الطعام، يقود المضيـف ضيوفه في طقس تقديم قرابين الطعام والشراب للأسلاف الذين اخترعوا الطهي، اعترافا بفضلهم.

وكان مـكان وضـع الطعـام يتبع قواعد معينـة، حيث كانت الأطبـاق الجافة توضع على شـمال كل ضيـف، بينما الأطباق المبللة، مثل المرق توضـع على اليمين. وتوضع الصلصة والتوابـل والخـل بحيث تكون فـي متناول يد الجميع. وليس مـن اللياقة أن يرفض الضيف مـا يقدمـه لـه المضيف من كل طبـق، إذ يكون رفضه له تصرفا غير لائـق. وبعد أن ينتهي الضيوف من الطعام، يشير المضيف إلى انتهاء المأدبة، وهنا يبدأ الضيوف بإبداء الرغبة فـي تنظيـف الصحـون وتجنيب الطعام المتبقـي. ولكن، وبعد إلحاح متكـرر من المضيف، يسمح الضيوف للخدم بتنظيفها.

●●●

كانـت هناك أيضا أخلاقيات مقبولة عموما لوجبات العائلة. وعلى سـبيل المثال، كان علـى كل فـرد أن ينتظـر دوره في تقديـم الطعام له وتناوله؛ وكان على الفـرد أن يبدأ بأكل الطعام الأقرب إليه، وكان مد اليد فوق الصحون للوصول إلى طعام شـهي يعتبر شـراهة. وكان المضغ بصوت مرتفع أو نحت العظم، وإعادة الآكل بقايا طعام إلى الطبق الذي يأكل منه الجميع أو رمي العظم للكلاب والقطط، التي عادة تكون قريبة من مكان تناول الطعام، قلـة ذوق وسـوء أدب. وكان مـن الأخلاقيات السـيئة الاسـتحواذ على طبـق معين بحيث لا يحصل الآخرون على نصيب منه. وكان ينبغي تناول المرق بدون صوت؛ وكانت قطع اللحم والخضراوات تُرفع من المرق بملاقط الطعام، كما ذكرنا آنفا. ولم يكن من الذوق أن يزيل المـرء الطعام العالق بأسـنانه أثناء الأكل؛ وكان مـن غير الأدب إضافة توابل إلى أي طبق، ففعـل ذلـك يجعل المضيف يعتذر بشـدة ويصر على أن الطعام تم إعـداده بطريقة رديئة. وكان من الوقاحة شـرب الصلصة من طبق، حيث يأخذ المضيف ذلك على أنه دلالة على عـدم وجـود طعـام كاف. وكان الطعام يُقدم لكبار السـن أولا؛ وينتظر الآخـرون حتى يبدأ الكبار في تناول الطعام ثم يبدءون هم أخذ الطعام لأنفسهم. وعندما ينتهي كبار السن من تناول الطعام على كل فرد آخر أن يتوقف أيضا.

وكان من تعاليم كونفوشيوس أنه لا كلام على الطعام، ولا ينبغي تناول طعام لم يتم إعداده وفقا للشعائر والطقوس. وقال أيضا إن الناس يجب أن يمتنعوا عن المشروبات الكحولية واللحم والأطعمة ذات النكهة القوية، مثل البصل والثوم، قبل تقديم القرابين للآلهة والأسلاف.

ومثلما كان يفعل الفراعنة، كانت شعائر الجنازة الصينية القديمة لا تشتمل فقط على تقديم قرابين من الطعام للآلهة والأسلاف، وإنما أيضا وضع طعام داخل القبر ليرافق المتوفى في العالم الآخر.

وكان كونفوشيوس يذكر الطعام دائما عندما يتحدث عن معايير السلوك الأخلاقي، فأخلاق الفرد تتجلى على حقيقتها عند تناول الطعام، وقد قال: "إن العالم (بكسر اللام) الذي يهاجم عقله الحقيقة، والذي يخجل من الملابس الرديئة والطعام السيئ لا يكون مناسبا للحديث معه". ويُحكى أن كونفوشيوس كان مسافرا مع تلاميذه، ولم يكن لديهم شيء يأكلونه لمدة سبعة أيام. في النهاية ذهب تلميذه المفضل، يان هوي، يتسول بعض الطعام وعاد ببعض من الأرز. وبينما كان يان هوي يطهو الأرز، لمحه كونفوشيوس يأكل خِلسة شيئا من القدر، مما أثار حزن معلم الصين الأول، الذي ظن أن تلميذه الذي تعمل منه الفضيلة يفعل ذلك السلوك المشين، ذلك أن ما أقدم عليه يان هوي، أقرب تلاميذه إلى نفسه، كان انتهاكا خطيرا للطقوس والشعائر. وعليه ذّكر كونفوشيوس يان هوي بأن الطقوس تتطلب شخصا ساميا يقدم القرابين للأسلاف قبل أن يبدأ بالأكل. وبسرعة أوضح يان هوي الأمر بأن بعضا من الغبار والأتربة سقطت في القدر، ولهذا فإنه انتشل الأرز غير النظيف وأكله قبل أن يلوث الحبات الأخرى حتى لا يتقزز منه الآخرون. هنا هتف كونفوشيوس معلنا أن المرء الذي يعتمد على عينيه ويصدق حُكمه هو، ليس من الضروري أن يكون على صواب، واعترف الفيلسوف المعلم قائلا: "اليوم كنت مُخطئا في كل من رؤيتي وتفكيري. إنه لمن الصعوبة بمكان أن تفهم فهما حقيقيا شخصا آخر"!

وفـي العصـر الحديـث، تربـط العديد من القصـص بين ماو تسـي تونغ والطعـام. ومن أشـهرها قصة المأدبة التي أقامها ماو تسـي تونغ لوزير الخارجية السـوفيتي، نائب رئيس الـوزراء، أناسـتاس ميكويـان (١٩٠٥ – ١٩٧٠م)، الـذي كانـت لديـه قـدرة كبيرة على شـرب الكحوليات. وقد أدرك ماو أنه لن يستطيع مجاراة ميكويان في الشرب، ولهذا فقد تحداه في منافسة لأكل الفلفل الحار. وعندما قال ميكويان إنه غير معتاد على تناول الفلفل الحار، قال لـه مـاو، "لا يمكن أن تكـون ثوريا إن لم تأكل الفلفل الحار"، في مـوازاة لمقولته "ليس رجلا حقيقيا من لا يصعد السور العظيم".

●●●

ومثلمـا هـو الحال في ثقافات عديـدة ارتبطت أنواع معينة من الطعـام بأعياد محددة في الصين، وفي الغالب تكون ثمة علاقة بين الطعام والعيد، ففي عيد البدر يكون الكعك على شـكل القمر، وفي عيد الربيع يأكل الصينيون جياوتسـي، وهي كرات عجين محشـوة باللحم والخضراوات تُغلى في الماء، تكون على شكل قوالب ذهبية وفضية وأحيانا توضع في داخلها قطع نقد معدنية، رمزا للرخاء. والنودلز أو الشـعرية ترمز للعمر المديد، ومن ثم فإن الصينيين يأكلونها في أعياد ميلادهم، فلا تدهش إذا دعاك صديق صيني لوجبة نودلز يوم عيد ميلادك.

والطعام يعد من أهم وسائل التواصل الاجتماعي وإقامة العلاقات وعقد الصفقات في الصيـن ويعتقد الصينيون أن شـخصية المرء تظهر بوضـوح خلال تناول الطعام. وقد قال كونفوشـيوس: "المرء السـامي يعطي الكثير للآخرين ويُبقي القليل لنفسـه، يضع الآخرين أولا، ويضـع نفسـه أخيـرا". وقـد طبق هذه المبـادئ على تقاليـد تناول الطعـام الصينية، فالذين يبدءون بتناول الطعام قبل الآخرين، يأخذون أفضل الطعام لأنفسـهم، فهم يؤثرون أنفسـهم، والذيـن لا يقدمون مزيدا مـن الطعام للآكلين الآخرين يعتبـرون أجلافا أنانيين. وخلال تناول الطعام، يكون عرض أفضل الطعام من كل طبق على الآخرين والإلحاح عليهم مرارا بأن يأخذوا المزيد، تعبيرا عن الاحترام وإقامة الصداقات. وفي قديم الزمان عندما

كانـت الدويـلات الإقطاعية لفترة الربيع والخريف تدخل فـي نزاعات وحروب فيما بينها، كانت تقيم تبادلات دبلوماسـية وتحالفات قوية من خلال المآدب الرسـمية. وكانت مآدب البـلاط فرصـة للحاكم لمكافأة المسـؤولين وتمتين ولائهم له. وفي المناسـبات المباركة، على نحو خاص، كأن يرتقي إمبراطور جديد العرش أو يتحقق نصر عظيم، كانت البيانات تصدر آمرة بإقامة احتفالات كبيرة في كل أرجاء البلاد.

وتلعب المأدبة دورا أساسيا في الزواج عند الصينيين، فمنذ قديم الزمان يلعب الطعام والشـراب دورا لا غنـى عنه في طقوس الزواج. فمن بدايـة الخطبة، يدخل الطعام في كل نشـاط احتفالـي لـه علاقة بالـزواج. ومازالـت الولائم تقـام للاحتفال بالخطبـة والزفاف وللاحتفال بمرور شهر على ميلاد الطفل وعيد الميلاد الأول له. ومن الميلاد إلى الممات يُحتفى بكل محطة هامة في حياة الفرد بتجمع الأهل والأصدقاء لتناول الطعام والشراب، وعلـى طريقـة المصريين، عيش وملح معا. ومازالـت مأدبة الزفاف حتى الآن الركن الأهم في إتمام الزواج، فهي بمثابة الإشهار للزواج، وإذا أهمل شخص هذه التعبيرات الاحتفالية المعبرة عن المشاعر فإن الناس ينظرون إليه على أنه عديم الإحساس وعديم الثقافة.

وعلـى مسـتوى العمل وحين تظهر مشـكلة فإن الخاطر الأول هـو أن تدعو إلى الطعام الشخص القادر على حل الموقف. ويُعتقد أن النتائج الأفضل يمكن التوصل إليها بمناقشة الأمور على عشـاء، وليس في جلسـة عمل. والمأدبة هي الطريق إلى تحقيق المآرب لدى ذوي النفوذ، وقد قالوا قديما في الصين: "ارفع الكأس تلين السياسة" على طريقة "أطعم الفم تستحي العين".

●●●

والكتـب التي تتحدث عن الثقافة الصينية تحدد أربعة مطابخ، أي أنماط طعام، كبيرة معتـرف بهـا في الصين هي مطبخ سيتشـوان ومطبخ قوانغدونغ ومطبـخ هواييانغ ومطبخ شاندونغ.

في مطبخ سيتشـوان يسـتخدمون المواد العادية لإعداد أنواع شتى من الأطباق وتتغير هـذه الأنـواع في الوجبات الثلاث يوميا طوال السـنة، ولهذا يقولـون "الأطعمة في الصين، والأذواق في سيتشوان". والمذاق الحار هو أكثر ما يميز أطباق سيتشوان، وتفسير ذلك أن حوض سيتشـوان ضبابه كثيف وأيام مطره طوال، والمطر في الصيف طبعا، والجو رطب معظم الأوقات، والطعم الحار يخفف الرطوبة بجسـم الإنسـان. مطبـخ قوانغدونغ، وانتبه إلى اسم المكان جيدا، تكثر فيه الغرائب التي تستخدم في الطهي ولا يكون الطعام مالحا؛ فحـرارة الجـو هناك لا تحتمل مزيدا من الملح. ومشـهد أبناء سيتشـوان وهم يلتهمون من قـدر كبيـر مليء بالفلفل الأحمر الحار والزيت والسـمك يعقد اللسـان عـن الكلام. وأذكر أننـي لـم أحتمـل الرائحة الحـارة المنبعثة مـن أطباق مائدة فـي مطعم سيتشـواني، ولولا حرجي من سخرية الأصدقاء أصحاب الدعوة لفررت من المطعم هاربا.

والنـاس فـي قوانغدونـغ يحبـون المأكـولات البحريـة والحيوانـات الحيـة والطازجـة، فقواندونـغ الواقعة على سـاحل البحر تتوفر لها مـوارد بحرية هائلة. وقوانغدونغ هذه هي التي ظهرت فيها أول حالة إصابة بالالتهاب الرئوي الحاد اللانمطي (سارس) بالصين عام ٢٠٠٣ والذي قيل إن الفيروس المسبب له انتقل إلى الإنسان من الحيوان.

المطبـخ الصيني الثالـث هو هوابيانغ، المتميز بدقة الطهـي والطعم الخفيف واللذيذ والمظهر الجميل والألوان المنسقة، ويشتهر بالكابوريا والأسماك النهرية والخضار.

أمـا أطبـاق مطبـخ شـاندونغ، وهـو الرابـع فـي قائمـة المطابـخ الصينيـة، فمالحـة، وتستخدم لها المواد العالية البروتين وذات القدرة العالية على تحمل الحرارة، وذلك لطول فتـرة البـرد وقلـة أنواع الخضار في شـمال الصين، وهـو مطبخ إمبراطوري بحق، وأشـهر أطباقـه بـط بكين المشـوي، وما أدراك مـا هو، وإن كان أصحـاب الأوزان الثقيلة يجب أن ينـأوا بأنفسهم عنه.

والكتب لا تتحدث عن أنواع أخرى من أنظمة الطعام في الصين ومن أشـهرها مطبخ شـينجيانغ، تلك المنطقة الإسـلامية الواقعة شمال غربي الصين، ومن أبرز معالم طعامها

الكباب والمشـويات الأخرى الشـبيهة بأطعمة آسـيا الوسـطى والمنطقـة العربية، وهناك القـدر المنغولي، نسـبة إلى منغوليا، وهي منطقة ذاتيـة الحكم في الصين، وهو عبارة عن قدر يوضع على موقد يشـعل بالكحول ويوضع في القدر حسـاء تضاف إليه رقائق اللحوم، التي تكون في رقة ورق الكتابة، والخضار وكل ما شئت لتنضج المحتويات أمامك وتلتهمها ساخنة مع إضافة بعض المشهيات إليها، وهو بالطبع إلى الشتاء، ببرده الشديد، أقرب.

●●●

التنـوع فـي المطبـخ الصيني يثير الانتباه، وقد سـألت صديقي ما جينغ تشـون، لماذا يأكل الصينيون كل شـيء تقريبا؟ وكان رده سـؤالا آخر، ولم لا؟ وأوضح أنه طالما أن هذا الخضـار أو ذاك أو لحـم هـذا الحيـوان أو ذاك لا يضـر الصحة فلمـاذا لا نأكله؟ ووجدت الـرد مقنعـا. وقـال أيضـا إن قوائم الطعـام الصينـي الذي تقدمـه المطاعـم معظمها من قوائم أطعمة البلاط الإمبراطوري، عندما كانت الصين إمبراطورية. وسـبب التنوع، وفقا لصديقـي الصينـي، هو أن الطباخين في البلاط الذين يعـدون الطعام لجلالة الإمبراطور وآل قصـره كانـوا يتفننـون في إبـداع الطعام وقـد اسـتنفدوا كل المواد والطـرق المألوفة فـي الطهـي، ولكن الإمبراطور يريـد التنويع، فما كان منهم إلا أن بـدءوا الزحف على غير المألوف من النباتات والحيوانات، والحشرات أيضا، في محاولة من جانبهم لإشباع رغبات الإمبراطور، السـاعي إلى الصحة والعمر المديد. وبمرور الوقت انتقلت قوائم الطعام من البلاط إلى العامة، ولما كنت أنا من العامة فقد وُضع أمامي في مأدبة، ذات مرة، طبق به تل مرتفع من شيء هش مقلي إذا غرست فيه عصي الأكل أصدر قعقعة، ولما استوضحت ما أمامي قال مضيفنا إنه دود القز مقليا في الزيت ويُعد من المشـهيات، وإلى جوار هذا المُشهي كان شيء آخر لا أعرفه وقد سألت فقيل إنها صراصير الشجر وتُقلى أيضا كنوع من المشـهيات! وفي مرة ثالثة كان الطبق الذي أمامي شـديد الشـبه بلحم السـمان، وقد وجدت أنه لا حاجة بي للاستبيان وبدأت من نفسي نقل قطع اللحم الأبيض من الطبق إلى معدتـي وتلـذذت بها وكدت أطلب المزيد. وبعد انتهاء الوجبـة قلت لزميلي قو دي إن لحم السمان هذا طيب حقا، فقال إنه ليس لحم سمان بل ضفادع من الحجم الكبير!

وفـي قوانغدونـغ، يـأكل الناس أنواعا شـتى مـن الحيوانات، ومـن بينها ذلـك الحيوان المسكين الذي أنحى العلماء عليه باللائمة لانتشار وباء الالتهاب الرئوي الحاد اللانمطي (سـارس). الحيـوان من فصيلـة القطط ويسـمى بالإنجليزية civet وترجمتـه إلى العربية سنور الزباد، وهو يشبه ابن عرس، ذلك الحيوان المعروف في الخرائب، والذي جاء ذكره فـي كتـاب كليلـة ودمنة. في قوانغدونغ أتـوا، فيما يبدو، على كل ما طالت شـباكهم وبنادق صيدهـم، مـن سـنور الزبـاد الموجود فـي البرية، فـكان أن فكر السـاعون إلـى الربح في تربيتـه فـي مزارع، تماما مثل مزارع البط والدجاج. وتقول الأرقام إن بر الصين الرئيسـي بـه حوالـي سـتمائة مزرعة لسـنور الزباد المسـتأنس بها أربعـون ألف رأس، يتـم التهامها جميعـا، إضافـة إلى العديد من أنواع الحيوانات البرية التـي تتم تربيتها في حظائر لتلبية الطلـب المتزايد عليها في الأسـواق. أهل بكين يؤكدون أن سـنور الزبـاد لا يعيش منه في مدينتهم إلا تسعة في حديقة الحيوانات الموجودة بها، ويقولون إن عادة تقديم أطعمة من لحوم سـنور الزباد لا توجد في العاصمة. وقد دفعت كارثة سـارس الحكومة الصينية إلى إجراء فحص على المسـتوى الوطني لسـنور الزباد وتم الطلب إلى كافة المزارع أن تفصل الحيوانـات عـن بعضهـا البعض مـع إجراء المزيد مـن الفحوص لها. ولكـن بعد أن هدأت موجـة الفـزع من سـارس والتعفف الذي أبـداه محبو لحـوم الحيوانات البريـة خلال فترة الوباء، عادت لحوم الحيوانات غير المألوفة تعرف طريقها إلى مطابخ المطاعم ويبدو أن تغيير عادة تناول لحوم تلك الحيوانات مهمة صعبة.

●●●

وقائمـة مـا يعتبـره كثيـرون غرائب فـي الطعام الصينـي طويلـة، والصينيـون يعرفون فائدة هذا وذاك، فينصحونك مثلا بأن تأكل ذلك الغشـاء الرقيق الذي بين مخالب أرجل الدجاج، واحتسـاء حسـاء مصنوع من زعانف سمك القرش، وإذا قبلت، شُرب خمر منقوع فيـه حنـش لفترة طويلـة. والمرجح أن الأباطـرة الذين كانوا يبحثون عن الفحولة وإكسـير الحيـاة علـى أمـل أن يخلـدوا، كانـوا يقبلون هذه الأشـياء وقبولهـم لها أعطاهـا قيمة بين العامـة، فأسـعار هذه الأطباق فاحشـة الغلاء وعندما يقدمها ضيـف لضيوفه ترمز للكرم

والاعتزاز بالضيوف، وهذا بالضبط ما حدث قبل خمس عشرة سنة معي وزملائي عندما كنا في زيارة لمقاطعة قويتشو، وهي مقاطعة جبلية ذات ظروف طبيعية شديدة القسوة والفقر أيضا تقع في غربي الصين. كنا في واحدة من محافظات المقاطعة حيث أمضينا يوما وليلة وفي صباح اليوم التالي نهضنا مبكرا وأخذتنا السيارة تتلوى بين الجبال في طرق وعرة لتسير نحو سبع ساعات متواصلة انتقلت خلالها أحشائي من مكانها وبلغ بي الجوع مبلغا، وكان الأمر كذلك لزملاء الرحلة ممن لا يملئون المعدة جيدا في الإفطار، مثلي. وقد وصلنا محافظة أخرى بعد الظهر وكان في استقبالنا السيد المحافظ وكبار القوم، وكعادة مثل هؤلاء الناس الريفيين الجبليين، أرادوا أن يكرموا ضيوفهم "القادمين من بعيد"، حسب التعبير الصيني، بأفخر طعام لديهم فأولموا لنا، فيما يبدو، بأعز ما لديهم. والحق أنني ما إن جلست إلى طاولة الطعام حتى تمنيت أن أحمل الأطباق التي أمامنا، ألقي بها إلى جوفي. وكان من بين الأصناف التي عمرت بها المائدة قدر كبير ممتلئ بالحساء؛ بخاره يفعل فعله في وجوهنا التي لفحها البرد، وفي وسط القدر شيء أشبه بالديك الرومي أو ذكر البط يداعب أعيننا الشرهة. وقال زميلنا وقائد رحلتنا، قو آن دنغ، الذي كان جالسا إلى جواري شيئا فهمت منه أن هذا الذي أمامنا لحم بط. وهممت أنقل بعض الحساء إلى سلطانية أمامي، ثم تقدمت نحو "البط" أحاول نزع جزء منه، فكان أن همس زميل يجلس إلى جانبي الآخر، قائلا سائلا: يبدو أنك تحب أكل لحم الكلاب؟ ماذا؟ رددت مستغربا. لماذا تقول هذا؟ رأيتك تُقبل بلهفة عليه، أوضح الزميل. سألته، أين هو؟ فقال أمامك يا عزيزي!

●●●

ومن آداب الطعام عند الجلوس إلى مائدة صينية، أن لا تضع ملاقط طعامك عموديا في سلطانية الأرز، ولكن ضعها في طبقك، لأن ذلك تصرف غير مهذب بحق المضيف والحضور. والسبب في هذا هو أنه عندما يموت الشخص في الصين يتضمن ضريحه سلطانية من الرمل أو الأرز بها ملقاطان للطعام عموديان. ومن ثم فإنك عندما تضع ملقاطي الطعام في سلطانية الأرز على هذا الشكل فإنها تبدو مثل الضريح وتعادل تمني

الموت لشخص على طاولة الطعام. وعليك أن تتأكد من أن صنبور إبريق الشاي لا يواجه أي فرد وإنما يكون مواجها خارج الطاولة، ولا تنقر على سلطانيتك بملقاطي الطعام، فهذا يفسر على أنه إهانة للمضيف أو الطباخ، فالشحاذون هم الذين ينقرون على سلطانياتهم وأيضا عندما يتأخر وصول الطعام في المطاعم ينقر الناس على سلطانياتهم، فإذا كنت في بيت صيني من الإهانة لمضيفك أو الطباخ أن تنقر على السلطانية، ولا تحاول قلب سمكة أمامك أو تخليصها من الشوك بنفسك، حيث أن فصل الهيكل العظمي للسمكة عن لحمها مهمة المضيف أو النادل في المطعم، ويُعتقد أن ذلك يجلب سوء الحظ ويسبب انقلاب مركب في البحر.

●●●

ولكن ثقافة المائدة الصينية ليست قاصرة على الطعام، وإنما تشمل أيضا ثقافة مجاورة لمائدة الطعام، هي ثقافة الشاي، الذي يحتل مكانة محورية في الحياة الصينية. وقد كنت أظن أنني أعلم عن الشاي في الصين الكثير، إلى أن دُعيت إلى "أمسية شاي" في بيت صيني، حيث أدركت أن إبريق الشاي الصيني، برغم صغر حجمه البين، أعمق كثيرا من أن يصل قاعه كبير ذواقة الشاي في العالم. ولمَ لا، والصينيون هم أول من زرع الشاي وأول من كتبوا مؤلفا كاملا عنه، في القرن الثامن الميلادي، وهو كتاب "تشا جينغ" أي "عن الشاي"، الذي يسجل كل شيء عن هذا المشروب الذي لا تُحصى أنواعه في الصين، وليس الشاي الأخضر فقط الذي يعتقد كثيرون أنه الشاي الوحيد في بلد الشاي. والشاي في الصين مشروب الفقراء والأثرياء، فأنت تجد في الصين نوعا من الشاي سعر الكيلوجرام منه يعادل دولارين أمريكيين، ونوعا آخر سعر الكيلوجرام منه ألف دولار أمريكي، ولا تسألني ما الفرق بينهما، فأنا لست خبيرا في الشاي.

والشاي الذي هو أحد أكثر ثلاثة مشروبات استخداما في العالم وتشربه شعوب أكثر من ١٦٠ دولة ومنطقة، ينطق باللغة الصينية "تشا"، وهذا مصدر اسمه بالعربية وبلغات أخرى. وتقول سجلات التاريخ إن الصين عرفت الشاي في أوائل فترة أسرة هان الغربية، حيث كان الشاي مشروبا يوميا لأسر الأمراء. وكان يوضع، مع أشياء أخرى، في

قبور الموتى. وفي زمن الأسـر الجنوبية والشـمالية شـاع شـرب الشـاي في منطقة جنوب نهر اليانغتسـي، وأصبح تقديم الشاي تعبيرا عن الترحيب والاحترام ومن أساسيات إكرام الضيـف. وفي أوائل القرن التاسـع الميلادي انتقل الشـاي من الصين إلـى اليابان وبلدان أخرى.

والشـاي في الصين، مثل كل شـيء، لابد أن يكون له أسـطورة. تذهب أسطورة الشاي إلـى أن أول مـن زرع الشـاي اسـمه وو ليانغ. ذات يوم عاد وو ليانغ إلـى بيته بعد أن قطف كمية من الشاي الجبلي وقنص غزالا نهريا. في المساء كان مشغولا بذبح الغزال وإعداده للطهي ولم يكن لديه وقت لتجفيف الشاي. في اليوم التالي وجد أن الشاي في السلة التي جمعـه بهـا قد تخمـر بعد ليلة كاملـة. على الفور قـام بتجفيف أوراق الشـاي وتحميصها، وكانت المفاجأة أنه وجد مذاق الشاي مُعتقا للغاية ولا مرارة فيه. علم وو ليانغ أبناء قريته كيفية إعداد الشاي، فأحبوا جميعا الشاي المعتق وأسموه شاي وو ليانغ.

وإذا كان قـول النبـي العربـي محمـد صلـى اللّه عليه وسـلم: "بيت ليس فيـه تمر أهله جيـاع" يعكـس أهميـة التمر في ثقافة وتاريخ العرب، فإن أبلغ دليل على أهمية الشـاي في حياة الشـعب الصيني هو القول الصيني القديم الذي ذكرناه آنفا، ويحدد سـبعة أشـياء لا غنـى عنهـا فـي كل بيت، من بينها الشـاي. وبلغت أهمية الشـاي في الصيـن القديمة حدا كبيـرا حيـث كانـت زراعة الشـاي وتجارته مـن المـوارد المالية الهامـة للدولـة، كما كانت الأقاليـم ترسـل أجود إنتاجها من الشـاي جزيـة للإمبراطور. وفي زمن أسـرة تانغ، بدأت الحكومة تُحصل ضريبة الشاي.

غيـر أن الشـاي المعـروف باسـم وولونـغ الـذي يـزرع فـي منطقـة جبـل ووي يعتبره المتخصصـون وذواقـة الشـاي أفضل أنواع الشـاي فـي العالم، وقد أدرجتـه منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) في قائمة التراث الطبيعي والثقافي العالمي عام ٢٠٠٥ تقديرا لأهميته التاريخية والثقافية، ويوجد في ووي سـتة أشـجار لهذا الشاي تسـمى بأشـجار الحبل الأحمر الكبير يرجع تاريخها إلى ٣٥٠ سـنة، وقد شـرفت بزيارتها سنة ١٩٩٥. وقد تم جمع أوراق الشاي من الأشجار الستة لآخر مرة ومعالجتها ثم أهديت

للمتحف الوطني الصيني ليضيفها إلى مقتنياته من رموز ثقافة الشاي الصينية، ومنها شاي بور الذي تنتجه مقاطعة يونان وكانت مزارعه في فترة أسرتي مينغ وتشينغ ممتلكات خاصة للطبقة الأرستقراطية، وكان ينقل بالخيل إلى المناطق الصينية الأخرى وإلى دول مجاورة عبر طريق معروف يحمل اسم "تشاما"، أي الشاي والخيل.

وحتى اليوم، الشاي في الصين له طقوس ومهرجانات، ومنها المهرجان الدولي للشاي الذي يقام سنويا في فوتشو، عاصمة مقاطعة فوجيان الواقعة شرقي الصين، حيث يعرض المشاركون فيه من الصينيين والأجانب، أحدث الاختبارات التي أجريت على الشاي وأحدث منتجات الشاي للرعاية الصحية، فالشاي ليس فقط مذاقا طيبا وإنما يفيد الصحة أيضا حيث يقال إنه مفيد للهضم وإزالة الدهون ويخفف العطش ويساعد في الهضم وينعش الذهن، وأحدث الدراسات تقول إن الشاي الأخضر يقلل من احتمالات الإصابة بالسرطان.

وفوجيان هي موطن الشاي الأحمر والشاي الأسود والشاي الأبيض وشاي الياسمين في الصين، فهذه المقاطعة لها تاريخ عريق في إنتاج الشاي وأبناؤها يستخدمونه في أغراض طبية منذ أسرة جين الغربية (٢٦٥ – ٣١٦م). ويبلغ عدد الذين يمارسون أعمالا لها علاقة بالشاي في فوجيان وحدها أكثر من ثلاثة ملايين فرد، أي نحو عشرة بالمائة من سكان المقاطعة.

وفي الصين أربعة أنواع من بيوت الشاي، أي المقاهي مجازا، وهي مقهى بكين ومقهى سوتشو ومقهى قوانغدونغ ومقهى سيتشوان. في مقهى بكين يقترن شرب الشاي بالغناء والقص الشعبي، وهي عادة بدأت منذ فترة أسرة سونغ، وأشهر مكان للاستمتاع بهذه الوجبة الثقافية الشعبية هو مقهى لاو شه، بالقرب من ميدان تيان آن من بالعاصمة الصينية. وفي مقهى سوتشو يُشرب الشاي مع الاستمتاع بالمناظر الطبيعية الجميلة التي تشتهر بها سوتشو، حاملة لقب "الفردوس على الأرض". وفي مقهى قوانغدونغ، يُشرب الشاي أثناء تناول الطعام، أما في مقهى سيتشوان، فإن الناس يحتسون الشاي أثناء الدردشة ولعب الشطرنج الصيني أو لعبة "ماجيانغ" الصينية التي تشبه ما يسمى في مصر بالسبعاوية أو التسعاوية.

●●●

ولكن شـراب الصينيين، مثل طعامهم، طرأت عليه تغيرات مثيرة، وعندما أرى لافتات المطاعـم والمقاهـي الغربيـة تغطي شـوارع المـدن الصينيـة، أتذكر قصة تقـول إن رجل أعمـال أمريكيا أراد يوما أن يقيـم مصنع أحذية في دولة بأفريقيا جنوب الصحراء، فقال لـه مستشـاروه.. ولكن يا سـيدي الناس في هذه البلاد حفاة لا يرتـدون أحذية. رد الرجل الخبير.. نعلمهم كيف يلبسون الأحذية ثم نبيعها لهم!

التغيـرات التي تشـهدها المائـدة الصينية حاليا قد تكون، بشـكل أو بآخر تطبيقا لما قاله هذا الأمريكي. فالمعدة الصينية، شـأن كل شـيء في الصين، تتغير وبمعدلات ليست أقل من معدلات نمو الاقتصاد الصيني.

ولعـل الذيـن زاروا العاصمـة بكيـن قبل فترة ليسـت طويلة، خمس عشـرة سـنة مثلا، يتذكرون مشهد الشتاء حيث كان من أبرز ملامح المدينة تلال من الملفوف الصيني، وهو نوع من الكرنب يتسـم بطول أوراقه. كانت كل أسـرة تشـتري في بداية الشـتاء "مخزونها" للفصـل كلـه مـن هـذا الملفوف الـذي يكون سـيد المائدة خلال شـهور الشـتاء التي تصل سـتة أشـهر أو يزيـد. بقدر ما كانـت تلال الملفوف معلمـا لبكين بقدر مـا صارت مطاعم ماكدونالـدز وبيتـزا وكنتاكـي وفرايدايـز ومقاهـي سـتاربكس وغيرهـا مـن تلـك الأسـماء المعروفة في عالم الأطعمة السريعة والمشروبات من أبرز ملامح عاصمة الصين. ويوجد حاليـا فـي بكيـن أكثر مـن ثلاثـة آلاف مطعم ومخبـز وبار ومقهـى غربـي. والمطاعم في الصيـن صناعـة هائلة مغرية، ففـي عام ٢٠٠٦، أنفـق الصينيون في المطاعـم ١٣٣ مليار دولار أمريكي، ووفقا لأرقام وزارة التجارة الصينية، بلغ هذا الرقم ١٥٦ مليارا عام ٢٠٠٧، وهذا يعني أن متوسط الإنفاق السنوي للفرد الصيني على تناول الطعام خارج بيته حوالي ١٢٠ دولارا أمريكيا. وقد بلغ حجم الاستثمار الأجنبي في قطاع الفندقة والطعام بالصين ٨٣٠ مليون دولار أمريكي في عام ٢٠٠٦.

●●●

كيف تغيرت المعدة الصينية وكيف أصبح إفطار البكيني كوبا من الحليب وقطعة من الخبز والبيض وفنجانا من القهوة، وكيف باتت مطاعم ماكدونالدز وكنتاكي المكان المفضل لإفطار الشباب؟

قبل خمس عشرة سنة كان في بكين مطعم واحد لسلسلة ماكدونالدز الأمريكية وكان في شارع وانغفوجينغ التجاري الشهير، الآن يوجد في بكين أكثر من مائة فرع لماكدونالدز، دائما كاملة العدد، وإذا كان مثل هذه المطاعم في الغرب تسمى مطاعم الوجبات السريعة، فإن الصينيين صينوها فترى الفرد قد جلس، بعد أن طلب كوب قهوة أو شاي، يقرأ كتابا أو يذاكر دروسه.

المطاعم الغربية في بكين لا تقدم غذاء للمعدة فحسب وإنما تحمل معها ثقافة البلاد التي جاءت منها، ولعل سلسلة ماكدونالدز هي التي بدأت موضة ارتداء قبعة بابا نوبل في أعياد الكريسماس في الصين حتى بات معظم، إن لم يكن كل، المتاجر ومنافذ البيع تُلبس العاملين بها هذه القبعة، كما أن هذه المطاعم بالطبع تغرس ثقافة الساندويتش بكل ما تحمله من قيم الفردية والاستقلال وإلى حد ما السرعة. هذا الاتجاه من المتوقع له أن يستمر؛ فالعديد من المدن الصينية الكبرى، وبخاصة شانغهاي وبكين وقوانغتشو عاقدة العزم أن تصبح مدنا دولية بمعنى الكلمة، تتحدث الإنجليزية وتأكل الطعام الغربي وبالطبع ترتدي الزي الغربي وتحتفل باحتفالات الغرب.

وإذا كان الشاي هو المشروب الأول في الصين، فإن هذا قد لا يستمر طويلا، بعد أن أصبحت الكوكاكولا والبيبسي كولا تحتل المرتبة الأولى في قائمة مبيعات المشروبات الباردة بالصين. والقهوة، التي لم يكن يميز الصيني رائحتها قبل أعوام، تتقدم بخطوات سريعة في ظاهرة ستكون حقيقة صادمة لمن لم يزر الصين حديثا.

لقد سأل الكاتب المصري أنيس منصور ذات مرة بعموده في صحيفة الأهرام، قائلا: ماذا يحدث لفنجان من القهوة سقطت فيه حشرة؟ ويجيب قائلا..الإنجليزي سيسكب الفنجان بما فيه؛ الأمريكي سيخرج الحشرة من الفنجان ويرميها ثم يشرب القهوة؛

الصيني سيخرج الحشرة؛ لا ليرميها بل ليأكلها، ثم يسكب القهوة؛ أما اليهودي فسيبيع الحشرة للصيني والقهوة للأمريكي. ولعلنا هنا نصحح الجزء الخاص بالصيني. صحيح أن الصينيين كما يقال يأكلون كل ما يقف على أربع باستثناء طاولة الطعام، وكل ما يحلق في السماء باستثناء الطائرة وكل ما يسير فوق الماء باستثناء السفينة، ولكن ليس صحيحا أن الصيني، في القرن الحادي والعشرين، سيسكب القهوة وإنما سيشرب فنجان القهوة وإن استحسنه سيطلب فنجانا آخر! ومن يريد التأكد يتجه إلى أقرب ستاربكس، سلسلة المقاهي العالمية الشهيرة التي لها مائتا فرع في الصين، والعشرات غيرها من المقاهي التي لا يخلو منها ركن في العاصمة الصينية، وسيرى العجب. ستاربكس كان لها فرع في قلب القصر الإمبراطوري ببكين افتتحته عام ألفين، وقد أغلق في منتصف شهر يوليو عام ٢٠٠٧، بعد حملة انتقادات لوجود هذا الرمز للثقافة الغربية في قلب واحد من أبرز رموز الثقافة الصينية التقليدية. ولكن المؤكد هو أن ثقافة الطعام الصينية تتغير، وتتعولم أيضا، فالمطاعم الصينية باتت حاضرة في كل المدن الكبرى بالعالم والشاي الصيني بات مطلوبا ومرغوبا لدى عدد متزايد من غير الصينيين.

●●●

obeikan.com

الفصل الثامن

بكين.. جلد يتغير وروح باقية

المطار وعلب الكبريت

بيني وبين بكين، التي ينبغي أن ننطقها ونكتبها «بيجينغ» مثل أهلها، حكايات وأحداث، فقد أمضيت بعاصمة الصين، سنوات لا ينافسها في عددها إلا مسقط رأسي. ولا أستطيع أن أخفي عشقي لبكين وأهلها، وهو عشق جعلني أعرف كل ركن فيها، أسواقها وأزقتها وحدائقها ومسارحها وساحاتها وناسها على مختلف أطيافهم وفئاتهم الاجتماعية. لقد صرت أعرف في بكين كثيرا مما لا يعرفه بعض أهلها. وقد يجوز لي أن أشعر بشيء من الزهو عندما يأتيني أحد من أهلها ويستفسر مني عن كيفية الذهاب إلى مكان ما في مدينته.

مثل أي زائر لأي بلد، يكون المطار دائما الصورة الأولى لذلك البلد، ويكون الطريق من المطار إلى وسط المدينة رحلة، تطول أو تقصر، لتأكيد انطباعك الأول أو نفيه أو تعديله. وعند وصولي بكين أول مرة عام ١٩٩٢، لم يكن مطار العاصمة الجديد قد أنشئ بعد. كان المطار القديم، الذي تحول إلى مطار للطائرات الخاصة حاليا، متواضعا في بناياته وتجهيزاته، وأذكر أن عدد الركاب القادمين والمغادرين لم يكن كبيرا، فعندما انتظمتُ في الطابور أمام ضابطة الجوازات للحصول على ختم الدخول بعد وصولي لم يكن أمامي أكثر من أربعة أفراد، وعندما توجهت إلى صالة تسلم الأمتعة، تذكرت مخازن الخشب في مصر، فالسير الذي يحمل حقائب الركاب يكاد يلامس أرضية صالة تسلم الأمتعة الصغيرة المساحة، وبالقرب منه بوابة الخروج مباشرة من المطار. في الطريق من المطار إلى وسط المدينة، وحتى الوصول إلى ساحة تيان آن من، وهي مسافة ٢٥ كم تقريبا، كان أكثر ما أثار انتباهي كمية وكثافة الغطاء الأخضر على جانبي الطريق، لدرجة ظننت معها أنني دخلت في غابة، ولعل هذه الصورة خففت إلى حد ما من وقع

حال المطار الذي لم يكن يقارن على الإطلاق بمطار دبي الذي توقفت به لمدة ساعة في طريقي إلى بكين، بل كان مطار القاهرة في ذلك الوقت أفضل منه. وقد أدهشني أنني عندما قصصت ذلك على رجل بريطاني يعمل في الصين منذ سنوات عديدة، حيث جاء إليها في ثمانينات القرن الماضي، قال لي بول وايت إن مطار بكين عندما وصلها هو كان يشبه مطار قرية أمريكية. هذا المطار الذي تم افتتاحه رسميا في الثاني من مارس عام ١٩٥٨، كان به صالة ركاب واحدة، وبعد توسيع صالة الركاب الأولى عدة مرات، غطت هي وملحقاتها ٦٠ ألف متر مربع وتم تشغيلها في الأول من يناير ١٩٨٠، وكانت مصممة لخدمة ٦٠ رحلة يوميا بقدرة إجمالية ١٥٠٠ راكب في ساعة الذروة.

ولكن مطار العاصمة الدولي ببكين تطور بنفس حجم تطور الصين وصار ينافس أكبر وأفخم المطارات في العالم، ولا أذكر أنني صادفت أحدا زار الصين لأول مرة إلا وحدثني عن مطا ر بكين، فهذا المطار ليس فقط بوابة بكين والصين وإنما عنوان التغير الذي تشهده العاصمة وكل الصين. في الفترة من ١٩٩٥ إلى ١٩٩٩ تم توسيع المطار مرة أخرى. وفي الأول من نوفمبر عام ١٩٩٩ افتتحت صالة الركاب الثانية التي تغطي ٣٣٦ ألف متر مربع ومزودة بأحدث التجهيزات، بطاقة ٩٢١٠ ركاب في ساعة الذروة، وقدرة إجمالية سنوية حوالي ٢٧ مليون راكب. والآن تعمل ٦٧ شركة طيران في المطار، منها ثلاث شركات عربية، هي مصر للطيران، والقطرية، وطيران الإمارات. وتنطلق منه أكثر من خمسة آلاف رحلة إلى ٩١ مدينة داخل الصين و٧٨ مدينة خارجها. ومن المتوقع أن يستقبل مطار العاصمة ٦٦ مليون راكب خلال عام ٢٠٠٨، عام دورة بكين الأولمبية.

●●●

بعد أيام في بكين خبت في ذهني صورة المطار وحلت محلها صور أخرى، كان منها صورة العمارات السكنية المتجاورة والتي تشبه بعضها تماما في كل شيء، وهي قريبة الشبه بما يسمى في مصر بالمساكن الشعبية التي أنشئت في ستينات وسبعينات القرن الماضي، أيام الاشتراكية. وقد أطلق الصينيون على تلك المساكن وصفا معبرا هو "علب

الكبريت" في تشبيه طريف لها بعلب أعواد الثقاب المتراصة بجوار بعضها بعضا، كل منها مكون من خمسة أو ستة طوابق. كانت هذه البنايات، التي اختفت تقريبا حاليا، من معالم مرحلة المد الاشتراكي بالصين، عندما سادت فكرة مساواة الناس في كل شيء، ومنها البيوت. وكان دخول الأجنبي أي من تلك البنايات مهمة صعبة، فلم يكن مسموحا للأجنبي الإقامة إلا في أماكن محددة للأجانب فقط، ولم يكن الصينيون يستضيفون في بيوتهم عادة أجانب، للهواجس الأمنية الموروثة من الفترة السابقة أولا، ولضيق مساحات الشقق وفقر حالها ثانيا. وقد كنت محظوظا بأن أتيحت لي فرصة نادرة لولوج عالم شُقق علب الكبريت تلك في ذلك الزمان، بعد أن تعرفت مصادفة بواحد من سكانها في حارة قريبة من شارع وانغفوجينغ التجاري الشهير. ولا أنسى مشهد دخولي إلى تلك العمارة والعيون المتطلعة من النوافذ والأبواب المجاورة تراقب هذا الأجنبي الذي يقتحم عليهم معقلهم. طرق صاحبي، وأنا على مسافة خطوات خلفه، الباب المعدني للشقة، وعندما اقتربت رأيت أن هذا الباب من خلفه باب آخر خشبي. وفي الممر الضيق وراء الباب استقبلتني أم صديقي بابتسامة ووجه بشوش، وطلب مني الصديق أن أنزع حذائي وأستبدله بشبشب موجود بجوار الباب. عبرت المسافة القصيرة من خلف باب الشقة إلى الصالة، وعن يساري المطبخ الذي لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار مربعة، وعن يميني الحمام الذي لا تتعدى مساحته مترا مربعا واحدا، وأمامه غسالة كهربائية. في الصالة المزدحمة بأريكة وجهاز تسجيل وتلفزيون، جلسنا، أم صديقي وصديقي وأنا، بالقرب من النافذة المطلة على الشارع الضيق. وبعد قليل لمحت غرفة النوم المقابلة للصالة. لم تكن مساحة الشقة الإجمالية تزيد عن ثلاثين مترا مربعا، وكان يسكنها أربعة أفراد، صديقي وشقيقته ووالداهما، إضافة إلى قطة صغيرة. ولم تكن الشقق الأخرى التي دخلتها بعد ذلك في تلك الأيام تختلف كثيرا عن شقة صديقي، وكانت تلك الشقق جزءا من صورة بكين ما بعد تأسيس الصين الجديدة، وهي صورة تكاد تكون غير موجودة حاليا. لم تعد أسرة صديقي، شأن معظم الأسر التي عرفتها منذ قدومي إلى الصين، تعيش في مساكن علب الكبريت، فقد انتقلوا إلى شقق جديدة فسيحة ذات ديكورات تخلب الألباب وبأسعار

تصيب العقول بالسعار، في تجمعات سكنية تحاكي المناطق السكنية في الدول المتقدمة. أزيلت معظم عمارات علب الكبريت وحلت محلها بنايات عالية تستخدم كعمارات مكاتب ومتاجر إن كانت في وسط المدينة، وتُحول إلى مساحات خضراء أو أعيد تنظيمها وترتيبها إلى مجمعات سكنية فاخرة. إنها صورة اندثرت وذهبت معها أشياء كثيرة.

●●●

جامعة بكين وبوابات وجسور العاصمة

بيد أن بكين تسعينات القرن الماضي كانت أوسع كثيرا من بنايات علب الكبريت التي أبرزت قزمها العمارات السكنية العالية التي بدأت تظهر في تلك الفترة، وقد قررت أن أمسح عاصمة الصين شبرا شبرا، ومسح بكين يحتاج دراجة ورفيقا يعرف خبايا الشوارع والأزقة، ولهجة البكينيين أيضا. وقد توفرت الأداة الأولى بعد فترة قصيرة من وصولي بكين، إذ اكتشفت أن الدراجة لساكن بكين لا تقل أهمية عن الحذاء، وقد حرصت طوال إقامتي في العاصمة الصينية أن يكون لدي دراجة واحدة على الأقل، حتى بعد أن اشتريت سيارة، كما أنني فقدت ما لا يقل عن عشر دراجات في بكين، بمتوسط دراجة لكل سنة ونصف تقريبا، في شهادة صريحة على أنني صرت من أهلها، فالصينيون يقولون: "ليس بكينيا من لا يفقد ثلاث دراجات على الأقل". أما الرفيق فقد عثرت عليه بعد فترة لم تطل. في مسجد هايديان الذي يقع بالقرب من مدينة الكتب في حي هايديان المشهور بكثرة الجامعات ومعاهد البحث العلمي، على مقربة من جامعة بكين، التقيت بشاب ذي ملامح مصرية. تعرفت بمجدي مصطفى أمين، وعرفت منه أنه يدرس الدكتوراه في الأدب الصيني بجامعة بكين، وأنه قبل لقائنا عام ١٩٩٢ سبق وأن زار الصين مرتين، إذا جاء إليها طالب ليسانس في بداية الثمانينات ثم دارس ماجستير في عام ١٩٨٩. والحقيقة أن جامعة بكين أنشئت في البداية استجابة لنداءات إصلاحية تبناها مثقفو الصين بعد هزيمتها في حربها مع اليابان عام ١٨٩٥، ففي عام ١٨٩٨ ظهرت "الحركة الإصلاحية" في الصين التي دعت إلى نهوض البلاد من خلال تبني نظام تعليمي جديد

وهيكل سياسي جديد. وقد دفعت هذه الحركة إمبراطور الصين آنذاك، قوانغ شيوي، إلى إصدار فرمان بإنشاء مدرسة عُليا أطلق عليها اسم "مدرسة جينغشي العالية"، التي تغير اسمها عام ١٩١٢ إلى "جامعة بكين". وفي عام ١٩١٩، بعد مؤتمر الصلح بباريس الذي عقده الحلفاء المنتصرون بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، واتخذوا فيه قرارا بأن تؤول امتيازات ألمانيا في مدينة تشينغداو الصينية إلى اليابان، قاد طلاب جامعة بكين حركة احتجاجات ومظاهرات وضعت الأسس لما سمي لاحقا "حركة رابع مايو".

وفي تلك الجامعة عمل ودرس العديد من الشخصيات التي كان لها دور بارز في تاريخ الصين الحديث والمعاصر، فقد عمل بها عدد من مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني؛ لي دا تشاو وماو تسي تونغ وتشن دو شيو. ومن اثني عشر مندوبا حضروا المؤتمر الأول للحزب الشيوعي عام ١٩٢١، كان بينهم خمسة من العاملين أو الدارسين بجامعة بكين، بل إنه من بين الثلاثة والخمسين شيوعيا في الصين في تلك الفترة كان واحد وعشرون ينتمون إلى جامعة بكين.

في غرفة بالمبنى السكني للطلاب الأجانب، جلست مع الطالب المصري الذي تشرب الثقافة الصينية. قال مجدي إن موضوع دراسته هو "الأدب الصيني في الفترة الجديدة" وتحديدا ما يسمى بالأدب المكشوف، وهي لفظة أقل حدة من عبارة الأدب الإباحي. الفترة الجديدة التي حدثني عنها الباحث المصري يقصد بها فترة ما بعد الثورة الثقافية في الصين التي استمرت عشر سنوات عجافا من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٦. والحقيقة أن هذه الفترة التي كانت تسمى في الأدبيات الرسمية بالصين "الثورة الثقافية الكبرى"، كانت ثورة ضد المثقفين، فبعد أن قام عدد منهم بتوجيه انتقادات لأداء الحزب هُوجموا بقسوة ووصموا بأنهم رجعيون، وبعد تشكيل ما كان يسمى بالحرس الأحمر، خرجت الأمور عن نطاق السيطرة، ودخلت البلاد مرحلة استثنائية ربما لم يعرف بلد آخر مثيلا لها. أتت الثورة الثقافية على الأخضر واليابس، فكان العمال، باعتبارهم الطبقة البروليتارية، ومعهم حلفاؤهم الفلاحون، هم الذين يتولون قيادة كل شيء، بما فيها المؤسسات التعليمية والعلمية، ومن بعدهم يأتي الجنود، فهم الطبقات الثلاث الأولى في المجتمع، بينما يقبع

المثقفون في ذيل القائمة، المرتبة التاسعة، وقد قيل إن لهم رائحة عفنة. تركت هذه الفترة تشوهات نفسية وجراحا روحية أليمة، ربما مازال بعض ندوبها موجودا إلى الآن. بعد انتهاء الثورة الثقافية ورحيل ماو تسي تونغ ودخول الصين مرحلة جديدة في تاريخها مع تبني سياسة الإصلاح الاقتصادي والانفتاح على العالم الخارجي، التي تم الإعلان عنها في الجلسة الكاملة الثالثة للجنة المركزية الحادية عشرة للحزب الشيوعي سنة ١٩٧٨، ظهرت العديد من الأعمال الأدبية التي خرجت من إسار تلك الفترة، التي عبر عنها أدباء صينيون في أعمال رائعة، أذكر منها رواية "نصف الرجل امرأة" التي ترجمت إلى العربية، فلم تعد هناك محرمات في الكتابة، فكانت روايات الأدب المكشوف التي تخصص في دراستها صديقي المصري.

●●●

كانت الثورة الثقافية حاضرة في ذهني عندما دخلت لأول مرة القصر الإمبراطوري، الذي يحتل قلب المدينة المحرمة. في هذا المجمع المعماري الذي يعتبر أكبر مجمع إمبراطوري إنشائي خشبي في العالم والذي صممه مهندس أسرة مينغ الإمبراطورية (١٣٦٨ – ١٦٤٤م) كواي شيانغ، الذي عاش من عام ١٣٩٧ حتى عام ١٤٨١م، والذي بدأ العمل فيه سنة ١٤٠٦م. وقد لفتت انتباهي في القصر الإمبراطوري عندما زرته سنة ١٩٩٣ لوحات معدنية صغيرة صفراء على كل بناية، كُتبت عليها عبارة بالإنجليزية تشير إلى أن هذه البناية جددت عام ١٩٧٩.

ولكن المدينة المحرمة، التي تحتل قلب بكين، لا بد أن تذكرك بماضي هذه المدينة العريقة التي يرجع تاريخ نشأتها إلى ثلاثة آلاف سنة واتُخذت عاصمة للصين لمدة أكثر من ٨٥٠ عاما وحملت أسماء عديدة آخرها "بيجينغ".

أدهشتني في بكين، الشوارع الواسعة المتوازية والمتقاطعة التي تقسم المدينة طولا وعرضا، مثل رقعة الشطرنج، كما لفتت انتباهي كثرة أسماء الأماكن المرتبطة بالبوابات والجسور، على نحو مشابه، بل أكثر، للقاهرة القديمة التي تجد فيها باب الخلق وباب

الشعرية وباب زويلة وباب الوزير وكوبري القبة وكوبري الليمون، إلخ، فالعديد من الأماكن في بكين تنتهي بلفظة «من» أي باب أو بوابة مثل جيانغقوه من، تيان آن من، تشيان من، آندينغ من، تشاويانغ من، وكذلك بلفظة "تشياو"، أي الجسر أو الكوبري مثل بايشي تشياو، سانيوان تشياو، لوقو تشياو، الخ. وهذا يرجع إلى التصميم الذي اختاره قبلاي خان (١٢١٥ – ١٢٩٤م)، أول أباطرة أسرة يوان، عندما قرر اختيار مدينة "دادو"، أي بكين ليقيم فيها عاصمة مُلكه، تلك المدينة التي ظهرت قبل ثلاثة آلاف عام كمركز سلطة محلي، بعد أن قرر وان يان ليانغ، رابع أباطرة أسرة جين، برغم معارضة وزرائه، عام ١١٥١ نقل عاصمة ملكه من شمال شرقي الصين إلى بكين.

بدأ العمل سنة ١٢٦٧، في بناء دادو، التي احتلت جزءا من شمال شرقي العاصمة القديمة، لتكون عاصمة لأسرة يوان، واستمر اثني عشر عاما، وقد خططت المدينة على شكل شبكة متسامتة ذات خطوط طولية وعرضية متساوية الأبعاد على مساحة ٥٠ كيلومترا مربعا تقريبا. وأحيطت المدينة بسور مرتفع له ثلاث بوابات في الشرق والغرب والجنوب، وبوابتان في الشمال. وتشير المكتشفات الأثرية إلى أن الطريق المركزي، الذي شكل محورا من الشمال إلى الجنوب عبر المدينة، كان عرضه ٢٨ مترا. وكان عرض الشوارع الفرعية ١٤ مترا، أي نصف عرض المحور المركزي، وعرض الأزقة سبعة أمتار، أي نصف عرض الشوارع الفرعية، فكل شيء مخطط وفقا لحسابات هندسية دقيقة.

إن كون الصين دولة مركزية، خضعت للحكم المركزي للإمبراطوريات الإقطاعية قديما، وللحكومة المركزية في العصر الحديث، جعل التخطيط العمراني بها مهمة الحكومة فقط، فليس ثمة جهة تقرر شيئا غير السلطة المركزية، ولهذا فإنه من النادر أن تجد في العاصمة الصينية بنايات عشوائية مزمنة يصعب التخلص منها مثل تلك التي تعرفها مدن كثيرة في العالم الثالث. وقد لفت انتباهي عرض الشوارع الكبير برغم أن تلك الشوارع شقت منذ زمن بعيد، فكيف كان أفق هؤلاء الناس واسعا وكم كان نظرهم بعيدا في إبداع هذا التخطيط المنظم الرائع الذي يشتمل على شوارع وأحياء مرسومة الحدود بوضوح، ولعل هذا هو الذي ساعد بلدية بكين في الفترة الأخيرة على التخلص من العشوائيات بها، لأنها كانت عشوائيات

غير مؤسسة، مجرد مزاحمات في الشوارع والأزقة لم يكن التخلص منها مشكلة مستعصية، فالشوارع الأصلية قائمة ولها حدودها أما تلك الكيانات الطفيلية التي التصقت بها في فترة معينة ظلت أجساما عالقة يمكن التخلص منها بأضرار قليلة، ولعل هذه الحقيقة تجعل فكرة البعض من الاستفادة من تجربة بكين في إزالة عشوائيات مدينة مثل القاهرة غير عملية، فالعشوائيات في القاهرة جزء بات أصيلا من المنظومة المعمارية للمدينة وأمسى التخلص منها يحتاج ثورة معمارية وتكلفة باهظة.

وتقول وثائق التاريخ الصينية إن دادو (الاسم السابق لبكين) التي بنيت في القرن الثالث عشر الميلادي شيدت وفقا لمبادئ العمارة في الكتاب الكونفوشي تشو لي، كاوقونغ جي (طقوس تشو، المرجعيات الهندسية). وقد جاء في هذا الكتاب: "عند تصميم مدينة عاصمة، يجب أن تخطط على شكل شبكة متسامتة ذات خطوط طولية وعرضية متساوية الأبعاد، بمقياس ٩×٩ لي (لي وحدة قياس صينية تساوي نصف كيلومتر) لكل جانب، وثلاث بوابات على كل من أسوار المدينة الثلاثة. ووفقا لهذا الكتاب يجب أن يكون في المدينة العاصمة تسعة شوارع وساحات، كل منها يتسع لتسع عربات خيل للمرور متجاورة. ويجب أن يكون قصر الملك في قلب المدينة، وأن يقام معبد الأسلاف في اليسار، ومعابد الآلهة على اليمين، وأن تكون البنايات الإدارية في المقدمة والسوق في الخلف.

وبالفعل أقيم معبد تايمياو لعبادة الأسلاف ومنصة شجي لعبادة إله الأرض والحبوب على جانبي الخط المحوري للمدينة الذي ينتهي بالقصر الإمبراطوري بحيث يكون عرش الإمبراطور متجها إلى الجنوب بما يعني سيطرة الإمبراطور الدائمة على أطراف الإمبراطورية.

وذكرت بعض الكتب أن الذي خطط مدينة بكين مهندس مسلم اسمه اختيار الدين، وأنه استلهم تصميمه من بغداد، عاصمة هارون الرشيد، وأدخل عليه تعديلات تتناسب مع البيئة والظروف والتقاليد الصينية. كما تشير السجلات التاريخية الصينية إلى شخصيات إسلامية وعربية ساهمت في بناء بكين علميا وثقافيا، ومنهم الفلكي جمال الدين الذي يقال إن هولاكو بعث به من منطقة مراغة، الواقعة في غربي إيران، إلى الصين للعمل

فيهـا، فحمـل معه كتـاب "جامع المبـادئ والغايات في علـم الميقات" للفلكـي العربي علي الحسـن بـن على المراكشـي. وفي سـنة ١٢٦٧م رفع جمال الدين إلى بـلاط يوان "التقويم الدائم" الذي اعتمد فيه على التقويم العربي، وتم إقراره والعمل به لفترة. وفي العام نفسه أنشـأ جمال الدين مرصدا في بكين. وهناك أيضا السـيد الأجل شـمس الدين، المعروف صينيا باسم شمس الدين ساي يان، والذي يقال إن أصوله تعود إلى جزيرة العرب، بل إلى الأسـرة الهاشـمية. وقد تولى شمس الدين القضاء في دادو لفترة، قبل أن يعين واليا على منطقة يونان في جنوب غربي الصين.

غيـر أن قيـام أسـرة مينغ في الصين عـام ١٣٦٨ واتخاذها مدينـة نانجينغ في جنوبي الصين عاصمة لها، جعل دادو تفقد شـيئا من مكانتها السياسـية والاقتصادية. ولكن ذلك لم يسـتمر طويلا، إذ سـرعان ما سـيطرت قوات أسـرة مينغ على دادو وتم تغيير اسـمها إلـى "بيبينـغ"، وفـي عام ١٤٢٠ تغير اسـمها مـرة أخرى إلـى بيجينغ، وترجمة هذا الاسـم حرفيـا هـي "العاصمة الشـمالية". وخلال هذه الفتـرة بنيت المدينـة المحرمة ونقل معبد تايميـاو ومنصـة شـجي إلى جانبي الشـارع المحوري أمـام المدينة المحرمـة، وأقيم جبل اصطناعـي إلى الشـمال منها، هو جبل جينغشـان، بمخلفات تطهير نهـر نانهاي والمجرى المائي الذي حفر حول المدينة المحرمة لحمايتها، بحيث يتوسطه الخط المحوري. وبني معبد تيانتان (السـماء) ومعبد شانتسـوان (معبد شـياننونغ حاليا) شـرقي وغربي ضاحية المدينة الجنوبية، وتم ضمهما إلى داخل المدينة في أواسط فترة أسرة مينغ خلال عملية توسـيع للمدينة، بينمـا امتد الخط المحوري إلى الجنوب حتى بلـغ طوله الإجمالي ثمانية كيلومتـرات. وقـد ظلـت بيجينغ على هذه الصـورة تقريبا حتى بعد زوال أسـرة مينغ وقيام أسـرة تشـينغ، آخر أسـرة إمبراطورية في الصين، ثـم زوالها وقيام جمهوريـة الصين التي اتخـذت مـن نانجينغ عاصمة لهـا، وانهيارها مرورا بفتـرة أمراء الحـرب والحرب الأهلية حتى إعلان قيام جمهورية الصين الشعبية في غرة أكتوبر عام ١٩٤٩، من بيجينغ وتحديدا في ساحة تيان آن من، أمام المدينة التي كانت محرمة على عامة الشعب.

●●●

أزقة بكين الجديدة

مع تأسيس الصين الشعبية دخلت بيجينغ مرحلة جديدة في تاريخها، ليس فقط لأن الجمهورية الوليدة اتخذتها عاصمة للبلاد وإنما للتغيرات الهائلة التي شهدتها المدينة، وهي تغيرات تعكس الوضع السياسي والاقتصادي بل والثقافي والفكري للصين في تاريخها المعاصر.

عندما اعتلى ماو تسي تونغ بوابة تيان آن من وأعلن تأسيس جمهورية الصين الشعبية قائلا "إن الشعب الصيني لن يُذل أو يُقهر بعد اليوم"، كانت حشود غفيرة من الصينيين تتدافع نحو الميدان لمشاهدة الاحتفال الضخم المقام هناك، ولكن أسوار الميدان العالية حالت دون وصولهم وحرمتهم من الاستمتاع بتلك اللحظات الفارقة في تاريخ بلادهم، ولهذا تقرر هدم تلك الأسوار. لم يكن مغزى عملية الهدم هو إزالة حواجز مادية فحسب، بل زوال عصر وبزوغ عصر جديد، عبرت عنه البنايات التي أقيمت حول ساحة تيان آن من في الفترة اللاحقة، حيث أقيمت جنوبه قاعة الشعب الكبرى، كرمز للسلطة السياسية الجديدة، وشرقه متحف تاريخ الصين، الذي تغير اسمه مؤخرا إلى المتحف الوطني، ووسطه نصب تذكاري لأبطال الشعب الصيني.

ولأن بكين تجدد كل شيء فيها، بدأ العمل في إعادة بناء المتحف الوطني، ومن المتوقع أن يكتمل هذا العمل عام ٢٠٠٩. ويرجع تاريخ المتحف الوطني إلى عام ١٩٥٩، عندما افتتح بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس الصين الجديدة. وكان المتحف نموذجا للتصميم المعماري الاشتراكي في فترة ماو تسي تونغ، وكان رمزا للتأثير السوفيتي على فن العمارة والآداب الصينية. البناية الجديدة للمتحف تغطي سبعين ألف متر مربع، ليكون أكبر متحف في العالم. وسوف تُبقي البناية الجديدة على بعض من ملامح تصميم المتحف القديم وستضاف أربعمائة ألف قطعة أثرية إلى مقتنياته الحالية التي يبلغ عددها ستمائة وعشرين ألف قطعة أثرية. وإعادة بناء المتحف الوطني في بكين جزء من خطة حكومة العاصمة لبناء عشرين متحفا جديدا ليصل عدد متاحف بكين إلى مائة

وثلاثين متحفا بحلول موعد إقامة أولمبياد ٢٠٠٨، وذلك في إطار خطة الحكومة الصينية لبناء ألف متحف جديد حتى عام ٢٠١٥ لتضاف إلى الألفي المتحف الموجودة حاليا في الصين وتضم عشرين مليون قطعة أثرية.

واستقبل الميدان الشهير أحدث ضيوفه، دار الأوبرا التي تسمى أيضا مركز العروض الوطني أو المسرح الوطني، الذي وضع تصميماته المهندس المعماري الفرنسي بول أندرو، مصمم مطار شارل ديغول بباريس. المسرح الوطني الجديد مصمم على شكل قبة عملاقة من الزجاج مقامة في قلب بحيرة، ويشتمل على قاعة أوبرا بها ألفان وخمسمائة مقعد، وقاعة موسيقى بها ألفا مقعد، ومسرح كبير يتسع لألف ومائتي متفرج، ومسرح صغير به خمسمائة وعشرون مقعدا. ويدخل الجمهور عبر نفق تحت البحيرة.

لقد أثار بناء المسرح الوطني، في تيان آن من جدلا واسعا في الصين حول مدى ملائمة طرازه المعماري لمحيطه من البنايات التي تعكس فن العمارة الصيني، وأيضا لمدى تأثير البحيرة الاصطناعية تحته على سلامة البنايات القريبة منها، ولكن الرأي المؤيد لبنائه انتصر في النهاية ليضيف إلى تيان آن من درة أخرى، وليظل هذا الميدان كتابا مفتوحا تقرأ فيه تاريخ الصين وتطورها.

●●●

في بكين بداية تسعينات القرن العشرين، عشقت الأزقة في العاصمة الصينية، أي الحواري الضيقة التي كانت سمة مميزة للمدينة القديمة، وكلمة زقاق في اللغة الصينية هي "هوتونغ"، ويقال إنها ترجع إلى زمن أسرة يوان، التي أسسها المغول. كانت أزقة بكين، على صورتها قبل التعديل والتحسين، تردني إلى القاهرة القديمة وإلى روايات نجيب محفوظ، صاحب زقاق المدق. كان لتلك الأزقة رائحة خاصة، هي خليط من رائحة امتزاج التراب بالماء ورائحة احتراق الحطب ورائحة المراحيض. وكان اللونان الرئيسيان في أي زقاق هما الأسود والرمادي، وكانت أرضية الزقاق في الغالب ممهدة بأحجار مستطيلة، سوداء أو رمادية أيضا.

كان فـي بكيـن عـدد كبير من الأزقـة، قدرها البعـض بأربعة آلاف. وقـد ارتبط ظهور الأزقـة بالنظـام العمرانـي الـذي التزمت به الأسـر الإمبراطورية في الصيـن في تخطيط المدن، حيث يوجد مركز للمدينة، يكون هو قمة السلطة، ويحاط المركز بدوائر متلاحقة حسب الأهمية في الهرم الاجتماعي، على هذا أحيطت المدينة المحرمة (مركز السلطة) بدوائـر كان يقيـم بهـا أصحـاب المكانة الاجتماعيـة العالية، كل حسـب ترتيبـه في الهرم الاجتماعي، فكان أفراد الطبقة الأرستقراطية يقيمون في أزقة تقع شرقي وغربي القصر الإمبراطوري، ومع الابتعاد عن القصر باتجاه الجنوب والشمال تقع أزقة العامة من الناس، حيث يقيم التجار والحرفيون والعمال. ويسمى الزقاق عادة باسم أشهر شيء فيه، شخص أو مكان أو مَعلم طبيعي، فتجد أزقة تحمل أسـماء قصور ومعابد ومخازن وورش وجسـور وأنهار وأسـواق وسـلع وأسماء أفراد، فهناك مثلا زقاق ميشيداجيه، أي سوق الأرز، وزقاق يندينغتشياو، أي جسر يندينغ.

وقد ظل النظام الصارم في التخطيط العمراني مستمرا حتى سقوط حكم أسرة تشينغ عـام ١٩١١، وبعدها بدأ البناء العشـوائي للبيوت والأزقة، ومـع دخول الصين فترة الحرب الأهلية انعكس الواقع السياسـي والاقتصادي على حالة الأزقة. واستمر الوضع العشوائي للأزقـة حتى بداية تسـعينات القرن العشـرين عندما شـرعت حكومة العاصمـة في إعادة تخطيـط المدينـة، وما صاحبها من إزالة العديد من الأزقة لتفسـح مكانا للأبراج العالية، وهـي خطـة أثـارت جدلا واسـعا فـي بكين آنـذاك. هذا الجـدل بين أنصـار الحفاظ على الأزقـة، كونها تجسـد تقاليد بكين وتمثل صورتهـا وثقافتها القديمة، وبين أنصار التخلص مـن الأزقـة نظـرا للحالـة المتردية التي وصلـت إليهـا وافتقارهـا إلى الشـروط الصحية للإقامة، دفع حكومة العاصمة إلى الإبقاء على عدد من الأزقة وترميمها وتحسين ظروفها وتوفير الحماية لها كمنشـآت أثرية، وجعلت بكين منها منتجا سـياحيا جديدا في المدينة، إذ يحـرص كثيـر مـن السـياح، وخاصـة الغربيين، على التجـول في تلك الحـواري الضيقة بدراجة لها ثلاث عجلات، في محاولة لتجربة حياة سكان تلك الأزقة قديما، عندما كانت الريكشـا هـي وسـيلة المواصلات داخلها. ولكـن بعض الأزقة يصعب حتى على الريكشـا،

أو الدراجة ذات الثلاث عجلات ولوجها، فزقاق تشيانشي، الواقع في منطقة داشيلان عرضه سبعون سنتيمترا ليس أكثر.

وقد ارتبط اسم الزقاق، باسم آخر هو سي خه يوان، أي الدار الرباعية أو المربعة، فالدور ذات الأربعة أركان المكونة من طابق واحد فقط تصطف متلاصقة على جانبي الزقاق. كانت الدار الرباعية في الأصل مسكنا لأسرة واحدة ممتدة، مكونة من عدة أجيال. وكان كل جيل، بل وكل فرد، يقيم في جانب محدد من الدار حسب مكانته وفقا للطقوس والتقاليد الصينية. كان هذا في عصور الصين القديمة، ولكن الدور المربعة التي رأيتها في تسعينات القرن الماضي كان يقيم في الواحدة منها عدة أسر، كل أسرة في غرفة أو غرفتين، ولم يكن في الدار غالبا مرحاض، وإنما يضطر الناس إلى الخروج لقضاء حاجتهم في مرحاض على رأس الزقاق. وقد أفرزت الأزقة بدُورها الرباعية ثقافة خاصة بها، ففي تلك الغرف المتلاصقة المفتوحة تقريبا على بعضها البعض، ليس ثمة مجال للحفاظ على أسرار أو الاحتفاظ بخصوصية، فالجميع في الدار الرباعية يعيشون كأسرة واحدة بنمط حياة واحد، ويتعامل كل منهم مع غرفة الآخر على أنها بيته، فإن نقُص أحدهم شيء لا يتردد في طلبه من جاره. ولهذا لم يكن سهلا على كثير من سكان الأزقة، وخاصة كبار السن الذين أمضوا حياتهم بها، أن يتركوها وينتقلوا إلى شقق سكنية معلقة في أبراج عالية، وقد قرأت في تلك الفترة عشرات القصص لناس قاوموا جرافات شركات التنمية العقارية التي جاءت تهدم بيوتهم لتقيم مكانها تجمعات سكنية فاخرة.

الأزقة، وبمعنى أكثر دقة ما بقي منها، تحولت بعد التعديل، إلى رمز وإلى واجهة ثقافية للمدينة ولأثريائها، وأضحى امتلاك دار رباعية دليلا على الذوق الثقافي للفرد، ويتسابق عشاق التراث والماضي إلى اقتناء الدور الرباعية التي ارتفع سعرها إلى عنان السماء. وأصبح مشهدا مألوفا في بكين أن ترى سيارة فارهة تزحم الزقاق الضيق واقفة أمام دار رباعية، تحولت من الداخل إلى ما يشبه القصر أو المتحف، بمرافق كاملة وأثاث فاخر. إنها حالة من النستالوجيا، الاجتماعية والثقافية، وموضة جديدة في عالم أثرياء بكين.

معابد وأسواق

الأسواق في بكين هي العتبات المقدسة التي لا بد أن يعبرها أي زائر أجنبي للعاصمة الصينية. وبالنسبة للأجانب الذين يقيمون في بكين، الأسواق إدمان مزمن حاولت أكثر من مرة أن أعالج نفسي منه وفشلت.

بعد أيام من وصولي بكين لأول مرة، وفي سياق حديث عن التسوق، سألني صديق مصري كان قد أمضى في بكين سنة وبضعة شهور: هل ذهبت إلى سوق الفلاحين؟ قلت: في الحقيقة لا أعرف أين هو حتى أذهب إليه، ورد الصديق: إنه قريب من معبد تيانتان (السماء). وحيث أنني زرت معبد السماء ضمن جولاتي الاستكشافية المبكرة بالعاصمة، ظننت أن الأمر سهلا، وفي صبيحة يوم العطلة، الأحد، شددت الرحال إلى تيانتان. وقفت أمام البوابة الرئيسية لذلك المعبد الذي بدأ العمل في بنائه عام ١٤٢٠م ورحت أتأمل فيه. كان المعبد يحمل اسم "مذبح قرابين السماء والأرض"، حيث كان الأباطرة في زمن أسرتي مينغ وتشينغ يقدمون فيه القرابين لآلهة السماء والأرض، وبلغ عدد الأباطرة الذين مارسوا فيه تلك الطقوس اثنين وعشرين إمبراطورا. ولكن المعبد تنازل عن صفة الأرض في عام ١٥٣٠م، عندما بُني "مذبح قرابين الأرض"، الذي يسمى حاليا "ديتان" لتقديم القرابين لآلهة الأرض في الضاحية الشمالية ببكين. لقد دهشت لحجم ومساحة معبد السماء عندما زرته، وأدركت، مرة أخرى وليست أخيرة، أن ما تختزنه ذاكرتي من صور لكلمات قد لا يكون هو الصواب، فهذا المعبد ليس بناية أو حتى عدد من البنايات تُؤدى فيها شعائر وطقوس تعبد، وإنما حديقة كبيرة، بل مدينة مصغرة، وقد علمت لاحقا أن مساحته تعادل أربعة أضعاف مساحة القصر الإمبراطوري ببكين. أما لماذا يكون قصر الإمبراطور أقل مساحة من معبد السماء، فلأن إمبراطور الصين قديما كان يعتبر نفسه "ابن السماء"، ومن ثم كان من الضروري أن تكون مساحة مقر إقامة ابن السماء، الذي هو القصر الإمبراطوري، أقل من مساحة من معبد السماء ذاتها، والسماء هنا تعني الرب.

ومعبد السماء محاط بسورين، واحد بعد الآخر، يقسمان المعبد إلى المذبح الداخلي والمذبح الخارجي. الجزء الشمالي من السور الخارجي يشبه القنطرة، ويتقاطع الجزء الجنوبي منه مع الجزأين الشرقي والغربي بزاوية قائمة، مما يخلق شكلا يرمز إلى "السماء المستديرة والأرض المربعة"، فقد اعتقد الصينيون قديما أن السماء قطعة مستديرة تغطي الأرض التي اعتقدوا أنها مربعة. أمام هذا السور وقفت أبحث عن سوق الفلاحين، فلا فلاحين رأيت ولا قرويات آتيات من الريف حاملات البط والحمام والبيض البلدي ظهرت لهن أمارة أمامي، إنها صورة سوق الفلاحين كما نعرفها في بلادنا.

تذكرت أن داخل هذا المعبد أقدم وسيلة للاتصال اللاسلكي، ففي نقطة محددة أمام واحدة من قاعات المعبد إذا تكلمت يُسمع صدى صوتك ثلاث مرات إلى مسافات بعيدة بفعل انعكاس الموجات الصوتية على جدار القاعة المبني بنوع خاص من الطوب الناعم. وفكرت أن أنادي "أين سوق الفلاحين"، فأنا لا أرى أمامي إلا سيارات وخط ترام (ترماي) وأكشاكا صغيرة. مر شاب بجانبي، فاستوقفته وسألته إن كان يتكلم الإنجليزية، فلغتي الصينية في ذلك الوقت لم تكن تسمح بالدخول في حوار قد يمتد. سألته عن "ذي فارمرز ماركت"، فنطر إلى السماء، وليس إلى المعبد، وهز رأسه وكتفيه. تكررت المحاولة مرات، بصينيتي المُكَسرة وبلغة الإشارة أحيانا، ولكن دون جدوى. رجعت ذلك اليوم وليس معي حتى خُفي حُنين. قررت أن أستعين بزميلي في العمل، حكيم، فهو بكيني يوحي لك مظهره أنه قادم للتو من فجر التاريخ. سألته: أين سوق الفلاحين يا حكيم بكين؟ أطرق الرجل ثم رفع رأسه ونظر من تحت نظارته السميكة، وسألني: عند تيانتان؟ قلت: هكذا قيل لي. قال: إذن هو سوق هونغتشياو وليس غيره، ومعناه سوق الجسر الأحمر، ومرة أخرى لاحظت العلاقة الحميمة بين الجسور وأسماء الأماكن في بكين. وعلى خريطة كنت أحرص دائما على أن تكون في جيبي رسم حكيم دائرة حمراء حول مكان السوق، وشرح لي كيفية الوصول إليه. في الأسبوع التالي كنت حيث وُصف لي، وللمفارقة ما إن نطقت كلمة هونغتشياو حتى ارتفعت الأنامل واشرأبت الأعناق تشير إلى اتجاه واحد. ولكن دهشتي زادت، فلا يوجد فلاحون ولا شيء من عندهم، وفقا للصورة الذهنية لدي عن الفلاحين ومنتجاتهم. فقط رأيت أكشاكا مرصوصة بجوار بعضها

مواجهة الحائط الشرقي لمعبد تيانتان، ولفت انتباهي وقوف سيارات تحمل لوحات دبلوماسية أمام تلك الأكشاك.

لماذا إذن حمل سوق هونغتشياو اسم الفلاحين؟ قال أهل الذكر في بكين، عن هذا السوق إنه ظهر في بداية ثمانينات القرن الماضي كأكشاك صغيرة بل وخرق قماش وخيش تُفرش على الأرض وفوقها بضاعة إلى جوار مبعد تيانتان، وإن الذي بدأه هم الفلاحون القادمون من خارج بكين، ويحملون لقب "وايدي رن"، أي القادمون من خارج المكان. وكان أول من أقام كشك بيع هنا رجل من مقاطعة تشجيانغ الصينية جاء إلى بكين لبيع اللؤلؤ، فبات اللؤلؤ من السمات المميزة لهونغتشياو، بل مرادف له، إذ يسميه البعض بسوق اللؤلؤ.

الذي حدث هو أن الإقبال زاد على هونغتشياو، لدرجة حولت المنطقة المحيطة بمعبد تيانتان إلى فوضى، وأصيب المرور فيها بشلل تام تقريبا، وكان لابد من حل. في تلك الفترة كانت حكومة بكين تنفذ برنامجا لإزالة كافة الأسواق العشوائية، التي كانت موجودة في كل ركن بالمدينة، ولكنها لم تُلق بباعة تلك الأسواق إلى العراء، وإنما أنشأت لهم أسواقا حديثة متعددة الطوابق ووفرت لها كافة شروط الأمن والأمان فجعلتها أماكن نظيفة، وجعلت شعار متعة التسوق حقيقة تلمسها في كل سوق. ولم يكن هونغتشياو استثناء، ففي عام ١٩٩٥ قامت حكومة العاصمة بإنشاء بناية ضخمة متعددة الطوابق مزودة بسلالم كهربائية وأجهزة وقاية من الحريق ومكان لانتظار السيارات، ونقلت التجار إليه. وتوقع كثيرون أن تلك النقلة الحضارية سوف يصاحبها ارتفاع جنوني في الأسعار، في حين كان انخفاض السعر وتنوع البضائع هما السببان الرئيسيان في رواج تجارة هونغتشياو، ولعل هذا هو السبب في أن السوق لم يشهد إقبالا خلال ستة الشهور الأولى بعد انتقاله إلى البناية الجديدة التي تقع في نفس مكان المقر القديم. ولكن لم تستمر مقاطعة المتسوقين لهونغتشياو طويلا، حيث عاد الزحام إلى سابق عهده. والباعة في هونغتشياو يجيدون تسويق بضاعتهم، برغم أن عددا قليلا منهم فقط درس تخصص التسويق وفنون البيع في المدارس. وفي هونغتشياو، كما في أسواق بكين الشعبية الأخرى، يستطيع البائع أن يجعلك تُخرِج نقودك من جيبك

راضيا، ويؤكد عليك أن تعود إليه مرة أخرى، وأن تنصح أصدقاءك بأن يأتوا إليه أيضا، وكل بائع منهم يؤكد لك أن بضاعته هي الأفضل، وأنها تختلف عن بضائع الآخرين. ومع كل بائع تشعر أنك المشتري الأولى بالرعاية، وأنه يخصك بمعاملة تفضيلية، والحقيقة أنه شعور صادق، ولكن ليس لديك وحدك فكل مشتر هنا أولى بالرعاية. ومن كثرة تردد الأجانب على السوق بات الباعة فيه خبراء في تمييز الأجناس البشرية، فهم وهن ينظرون إليك ويقولون أنت روسي أو ليبي أو ألماني الخ. وقد تعلم الباعة بضع كلمات من لغات مختلفة، فإن ظنوا أنك عربي رحبوا بك بلغتك وإن كان المتسوق هنديا كلموه بلغته. وأقام بعض الباعة علاقات دائمة مع كثير من الزبائن الأجانب، فترى الزبون يدخل السوق قاصدا صديقه البائع مباشرة، واثقا بأنه سيحصل منه على أفضل بضاعة بأقل سعر. وفي هونغتشياو، كما في كل أسواق بكين الشعبية، لابد أن تتحلى بطول البال والصبر، ليس على المكاره، وإنما على التفاوض والمساومة في السعر. وقد تحولت المساومة على السعر، بالنسبة لي، لفترة، هواية ولعبة ممتعة، ولكنها لعبة تحتاج نفسا (بتسكين الفاء) هادئة، ونفسا (بفتح الفاء) طويلا.

وقد تحول هونغتشياو، وغيره من أسواق بكين المشهورة، إلى مزارات سياحية، وإذا أتيحت لك فرصة زيارة سوق هونغتشياو سترى في صدر المحل رقم ١١٣ صورة معلقة لرئيسة وزراء بريطانيا السابقة، السيدة الحديدية مارغريت ثاتشر، التي حرصت على التجول في «سوق الفلاحين» عندما زارت بكين.

●●●

ليس هونغتشياو وحده الذي يحمل اسما غريبا، على الأقل بين جاليات معينة في بكين، وإنما أسواق أخرى، فهناك سوق مسعودة، فالجالية العربية في العاصمة الصينية تطلق اسم «سوق مسعودة» على واحد من الأسواق الشعبية في بكين، وقد حظي السوق بهذا الاسم نسبة إلى عاملة صينية في إحدى السفارات العربية، اختار لها مستخدموها اسم مسعودة، وهي التي دلتهم على هذا السوق، وهناك سوق «الأحد» للأنتيكات والتحف، الذي هو في الحقيقة سوق بانجيايوان وسوق «الحرامية»، الذي هو في الحقيقة سوق الحرير (شيو شوي)، الشهير بلقب «سلك ماركت» ولكل منها قصة وتاريخ.

كان سوق الحرير عبارة عن حارة ضيقة طويلة تقع بالقرب من منطقة لمساكن الدبلوماسيين، خلف السفارة الأمريكية ببكين تماما. في تلك الحارة التي لم يكن عرضها يتجاوز المترين تجد كل شيء، إذا كنت من هواة التدافع بالمناكب وتحمُّل إفرازات الزحام، خاصة في شهور الصيف. وقد حقق سوق الحرير شهرة بالغة في أوساط الأجانب، بل إن عديدا من الفنادق التي تستقبل وفودا سياحية أجنبية طبعت بطاقات تعريف للسائح بها أسماء أهم المزارات في العاصمة، ومنها سوق الحرير. ومثلما حدث مع هونغتشياو حدث مع شيو شوي، حيث أقيمت بناية فخمة متعددة الطوابق نُقل التجار إليها، واستمرت الأسعار كما هي، أو زادت قليلا.

أما سوق بانجيايوان للتحف فعالم خاص لعشاق الأنتيكات والتحف الأثرية، وقد تسوقت منه هيلاري كلينتون، سيدة الولايات المتحدة الأولى السابقة، التي حاولت أن تكون أول سيدة تجلس على عرش الولايات المتحدة الأمريكية. لم يحمل بانجيايوان لقب «سوق الأحد» من فراغ. في بداية ثمانينات القرن الماضي، كان أبناء بكين وضواحيها الذين لديهم مقتنيات قديمة أو سلع مستعملة يتجمعون في الأزقة بحي تشاويانغ يوم العطلة الأسبوعية، الأحد، يبيعون ما لديهم في الخفاء، حيث أن هذا النوع من التعاملات كان ممنوعا، فلم يكن مسموحا لشخص ليس مهنته التجارة أن يبيع شيئا، ولهذا كانت هناك حرب خفية بين هؤلاء الناس وأفراد شرطة البلدية. كان هذا السوق المكشوف يُنصب ساعات قليلة في الصباح الباكر وينفض قبل قدوم عسكر البلدية، وقد حمل في تلك الفترة اسما معبرا هو «سوق الأشباح»، فالباعة فيه كانوا مثل أشباح تظهر وقتا قليلا ثم تختفي. زادت شهرة السوق وازدحمت الأزقة بالمعروض فيها، ولهذا نقل هؤلاء الناس، الذين تحولوا إلى تجار، بضاعتهم في بداية تسعينات القرن الماضي إلى مكان واسع تظلله الأشجار بالقرب من جسر بانجيايوان. وفي عام ١٩٩٤ اعترفت البلدية بالمكان سوقا للتحف والأنتيكات ونقلته عام ١٩٩٥ إلى مكانه الحالي على مساحة حوالي خمسين ألف متر مربع وأقامت به ثلاثة آلاف كشك يستأجرها الباعة، ليكون أكبر سوق تحف في آسيا، وصار يفتح كل أيام الأسبوع وإن كان مازال يحمل اسم سوق الأحد. وصار بانجيايوان

مـن معالـم بكين ومزاراتها السـياحية. وأثبتـت بكين أنها مدينة تفتح أبـواب ونوافذ الرزق لأهلها، فشـهد السـوق تحسـنا يوما بعـد يوم وزود بمسـتلزمات الأمـان ومكافحة الحرائق وغيرهـا. وفـي بانجيايوان يؤكد لك الباعة أن البضاعة أصلية وأن الزهرية التي تفحصها يرجـع زمنهـا إلى أسـرة مينغ، والحقيقـة أن مهارتهم فـي التقليد تجعل مـن الصعب حتى علـى ذوي التجربـة أن يميـزوا بين الأصلي والمقلد، فهم مثـلا ينقعون البرونز في حامض ليصدأ، فتبدو التحفة قديمة، وقد اشـتريت من أحدهم نموذجا مصغرا للعربات الحربية المكتشفة في حفر التماثيل الصلصالية للجنود والخيول في ضريح الإمبراطور تشن شي هوانغ، وأكد البائع أن التحفة أصلية، وكان مظهرها حقا يوحي بأنها قديمة عريقة نادرة، وظننت أنني ظفرت بصفقة مربحة، فقد دفعت فيها ثمنا هينا، ولكن اكتشفت لاحقا أنني خدعـت خدعـة يُضرب بها المثل. وهنـاك من يجتهد بتقديم نصائـح للتمييز بين الأصلي والمقلـد، فيقـول أحدهـم إنه لكي تعرف تحفـة الأثاث الأصلية من المقلـدة، فإن الأصلية تكـون أثقـل وعندمـا تطـرق علـى الألواح تصـدر أصواتـا مختلفـة، ولكن ثبت، علـى الأقل بالنسـبة لـي، أنهـا نصائح لا تفيـد كثيرا، ولعل النصيحـة الناجعة هـي أن تذهب إلى هذا السـوق وفي يقينك أنك سـتشـتري تحفة مقلدة، سـتكون رائعة الجمال بدون شك، ولكن لا توهم نفسك بأنك اقتنيت كنزا عمره مئات السنين.

هـذه الأسـواق بكل إغرائهـا وجمـال بضاعتها التي تغوي السـائح تجعله يخـرج نقوده من جيبه راضيا مرضيا سـعيدا، وحسـب السـلطات السـياحية في العاصمة الصينية كان متوسـط إنفاق كل سـائح أجنبي في بكين عام ٢٠٠٦ هو ١٠٣٣ دولارا أمريكيا، كثير منها فـي الأسـواق. وحيث أن العاصمة اسـتقبلت نحو أربعة ملايين سـائح أجنبـي عام ٢٠٠٦، يكـون إجمالي ما أنفقوه أربعة مليارات دولار أمريكي، وهو رقم يقترب من إجمالي الدخل السـياحي لدولة سـياحية كبيرة، مثل مصر، من السـياحة الأجنبية. وبكين تجذب السـياح المحليين أيضـا، فقد زارها عام ٢٠٠٧ حوالـي مائة وثلاثين مليون فرد من أقاليم الصين الأخرى، أنفقوا فيها ما يقرب من عشرين مليار دولار أمريكي.

●●●

مساجد بكين

مـن الصعـب أن أنهي هـذه الرحلة في بكين دون جولة في نيوجيه، ذلك الشـارع الذي أحببت فيه أشـياء كثيرة، وفيه يتربع مسـجد نيوجيه الذي بناه سـنة ٩٩٦م في فترة أسـرة سـونغ الشـمالية (٩٦٠ – ١١٢٧م)، وفقا للسجلات التاريخية الصينية، ناصر الدين، الابن الثاني لعالم عربي اسمه قوام الدين جاء إلى الصين واستقر بها.

هذا المسجد الذي يعد من أبرز وأهم معالم التراث الإسلامي في الصين، أعيد بناؤه وتجديده أكثر من مرة، ولكن المسـجد في شـكله الحالي يرجع إلى فترة حكم الإمبراطور كانـغ شـي. ويذكـر التاريخ لهذا الإمبراطـور الذي جلس على عرش الصين واحدا وسـتين عامـا وعُـرف بعدلـه وحكمته، مواقف عديدة مع المسـلمين. ففي شـهر مايـو عام ١٦٩٤، الذي وافق شـهر رمضان، كان المسـلمون يتوافدون إلى مسجد نيوجيه في كل ليلة، يؤدون الصلاة أو يستمعون إلى الخطب والمواعظ من الأئمة والعلماء في المسجد. كان المسؤول عن أمن المنطقة لا يعلم شـيئا عن ثقافة المسـلمين ودينهم، فظن أن المسـلمين يجتمعون بالمسـجد للتخطيـط لانتفاضة ضد البلاط، فرفع تقريرا بذلك إلـى الإمبراطور. بعد أن اطلع الإمبراطور كانغ شي على التقرير، استطلع رأي وزيره المقرب نيو شي والمعلم الكبير وانـغ شـي، وكل منهما يسـكن بالقرب من منطقة نيوجيـه، وعلى دراية بأحوال المسـلمين هنـاك، فأخبـراه بحقيقة الأمر. قرر الإمبراطور أن يذهب بنفسـه إلى منطقة المسـلمين، وبرفقته الوزير والمعلم، لكي يرى عن كثب ماذا يفعل هؤلاء الناس في المسجد.

دخـل الإمبراطـور ورفيقـاه قاعـة الصلاة في المسـجد متنكريـن في ملابـس عادية، واستمعوا إلى خطبة الإمام. وبعد أن رأى الإمبراطور السلوك الحضاري لمن في المسجد شـعر بالطمأنينة وهمَ بالانصراف مع مرافقيه. وبالقرب من المسـجد قصدوا إلى مطعم وقالوا لصاحبه المسلم إنهم ليس معهم نقود فهل يمكن أن يطعمهم على أن يدفعوا له في اليـوم التالـي، فرحب بهم الرجل وأطعمهم وسـقاهم. في اليوم التالي أشـرف الإمبراطور كانـغ شـي شـخصيا علـى جلسـة صباحية للبـلاط داخـل قاعـة الاجتماعات فـي القصر

الإمبراطوري، واستدعى ذلك الضابط الكبير، وقام، في حضور الوزير نيو شي والمعلم وانغ شي، باستجوابه حول صحة تقريره، ونحاه عن منصبه وحوله إلى المحاكمة.

وللتعبير عن عنايته بالمسلمين أصدر كانغ شي مرسوما رسميا بشأن مسجد نيوجيه، جاء فيه: «أنا الحاكم المطلق لإمبراطورية تشينغ العظيمة، أعلن لكم أنه بعد استعراض الأحداث الهامة في تاريخ قومية هان وقومية هوي المسلمة وجدت أن أبناء هان وأبناء المسلمين مخلصين للبلاد وملتزمين بعقائدهم السياسية والدينية الصحيحة. ولأسباب عديدة نشأت في مجتمعنا عقائد شريرة تشوش عقول الناس، وتخلق اضطرابات اجتماعية، وإني إذ أعلن هنا أن البلاط قد تخلى عن قراره السابق بمحاكمة المسؤولين عن الاضطرابات الماضية، فإنني لن أسمح بارتكاب هذه الجرائم فيما بعد. إن المسؤولين والضباط من قومية هان يؤدون واجبهم الإداري ويطبقون أوامر الإمبراطور بجدية واجتهاد، ولكنهم يتسلمون الرواتب مقابل عملهم، بينما يؤدي المسلمون واجبهم الديني ويصلون لله خمس مرات يوميا، ولا يحصلون على راتب عن هذا، لكنهم مخلصون ومجتهدون أيضا، لذلك نحن نرى أن أبناء المسلمين يَفضلُون أبناء هان في هذا الأمر. ومن اليوم، إذا اقترف أي ضابط أو موظف حكومي فعل تلفيق التهم ضد المسلمين انطلاقا من ضغائن شخصية، يجب على الحاكم المحلي أن يعدمه أولا، ثم يرفع تقريرا بشأنه إلى البلاط. ومن جانب المسلمين عليهم أن يلتزموا بالتعاليم الإسلامية التزاما دقيقا، وأن لا يخالفوا قوانين الدولة في جميع تصرفاتهم. هذه هي نصيحتي لهم. تاريخ الإصدار: الشهر السادس من السنة الثالثة والثلاثين لعهد الإمبراطور كانغ شي».

بعد ذلك أهدى الإمبراطور كانغ شي إلى مسجد نيوجيه عددا من الهدايا النفيسة، منها نصف طاقم من عربة إمبراطورية؛ وقدر نحاسي ضخم يستخدم لإعداد حساء الأرز للمسلمين المجتمعين في المسجد في الأعياد الدينية؛ ولوحة كتب عليها الإمبراطور بخط يده: "المسجد المشيد بأمر الإمبراطور"؛ ولوحة أخرى كتب عليها "السراط المستقيم إلى السماء"، وأمر بتحمل البلاط تكلفة إنشاء رواق مدخل فاخر للقاعة الرئيسية للمسجد. واليوم لا يزال مسجد نيوجيه ببكين يحتفظ بهذه العهدة الإمبراطورية ورواق المدخل والقدر.

ويحظى المسجد بشهرة عظيمة بين المسلمين داخل الصين وخارجها بتاريخه العريق وعظمة بنائه وأسلوبه المتميز، فهو ليس مجرد مكان مقدس للشعائر الدينية، بل يتميز بأسلوب بناء القصور الصينية القديمة الذي يتجسد في المُصلى وبرج استطلاع الهلال والمئذنة وقاعتي تلاوة القرآن والقاعة الكبيرة وجوسقي الأنصاب التذكارية والميضأة.

ويوجد بالمسجد قبران لعالمين مسلمين هما أحمد بورتاني المتوفى سنة ١٢٨٠ وعلي عماد الدين المتوفى سنة ١٢٨٣، وقد جاءا إلى الصين بغرض الدعوة للإسلام.

وشأن كل دور العبادة في الصين، أغلق المسجد خلال فترة الثورة الثقافية (١٩٦٦ – ١٩٧٦م)، إلى أن أعيد افتتاحه بعد أن خمدت نيران هذه الثورة، وأصبح من الآثار التاريخية المحمية في الصين ومزارا سياحيا، خاصة للمسلمين الأجانب الذين يزورون الصين.

●●●

بكين مدينة ثرية في تراثها وتقاليدها، تحفر في ذاكرة وقلب زائرها ذكريات عميقة، فما بالك بمن يعيش فيها فترة، وقد رأيت الدموع تترقرق في عيون كل من أعرفهم ممن زاروا بكين أو أقاموا فيها فترة ثم رحلوا عنها. لقد جعل الاستقرار السياسي والاقتصادي والتنموي للصين بكين واحدة من أكثر المدن أمانا في العالم، فبكين تمنحك شعورا بالأمان، لا أحسب أن مدينة أخرى في العالم توفره لك، في عصر يتآكل فيه الأمان والاستقرار وتعاني فيه كثير من مناطق العالم الاضطرابات. وهنا أسترجع كلمات قالتها الأديبة الصينية الراحلة بينغ شين، مترجمة أعمال جبران خليل جبران إلى اللغة الصينية. قالت بينغ شين: "من ذا الذي يزور بكين ولا تترك فيه انطباعات عميقة، ومن ذا الذي يغادرها ولا يراوده الشوق للعودة إليها".

بكين فيها مساجد وكنائس ومعابد بوذية وطاوية، فيها يشعر كل وأي فرد أنه في بيته، وتصبح بكين على نحو متزايد مدينة كوزموبوليتانية، فعدد الأجانب المقيمين بها يقترب من مائتي ألف فرد، أنا واحد منهم.

الفصل التاسع

تحديات الحاضر وطريق المستقبل

على الرغم مما تحققه الصين من إنجازات كبيرة على كافة الأصعدة يواجه هذا البلد جملة من التحديات الراهنة والمستقبلية، وبعض هذه التحديات يشكل معضلات حقيقية، إذا لم يتم التعامل معها، فإنها تهدد تواصل مسيرة انطلاق الصين نحو المستقبل بنفس المعدلات الحالية. ولكن ما يجعل الصين مختلفة، على الأقل عن كثير من دول العالم الثالث، أن قادتها وحكومتها تدرك وتعي تلك التحديات جيدا ولا تنكرها، وتحاول، رغم وعورة الطريق، حلها أو على الأقل الحد من تفاقمها، خاصة أن عددا من تلك المعضلات هي في حد ذاتها نتيجة لعملية التنمية الصينية، فهي شر لابد منه.

وقد يكون من الصعب ترتيب التحديات التي تواجهها الصين من حيث مدى خطورتها وتأثيرها على الحاضر والمستقبل، فكل منها لا يقل أهمية عن الآخر. ولكن ربما تكون البطالة وفجوة الثراء المتزايدة بين الأفراد وبين المناطق ومشاكل البيئة والموارد من أكثر التحديات التي تهدد الاستقرار الاجتماعي ومستقبل التنمية الصينية، وإن كان هذا لا يقلل من أهمية تحديات أخرى في مجال الصحة وأنظمة العلاج وفي التعليم وتنظيم الأسرة وشيخوخة المجتمع وتأمين إمدادات الطاقة.

التوظيف

يعتبر التوظيف من أهم المعضلات التي تواجهها الصين حاليا، فقد أصبح توفير عمل لكل صيني في سن العمل، مشكلة تتعقد عاما بعد عام، وإذا كانت نسبة البطالة حاليا في الصين تتراوح بين ٦ و٧٪، فإنها أعلى بين الشباب من سن ١٥ إلى ٢٩ سنة، حيث تصل إلى نحو ١٠٪، وفقا لدراسة أجرتها جمعية الشباب لعموم الصين، والبطالة في الصين تتناسب عكسيا مع مستوى التعليم، فنسبة بطالة الشباب من خريجي المدارس المهنية هي الأعلى، وتصل ٣٧٪ بينما تقل إلى ٣٠٪، بين خريجي المدارس الثانوية وفوق

المتوسطة، في حين لا تتجاوز ٥٪ بين خريجي الجامعات. وقراءة هذه الأرقام تعني أن التعليم أحد أهم آليات التنافس في سوق العمل بالصين كما أنه وسيلة ارتقاء السلم الاجتماعي، ولهذا فإن الإنفاق على التعليم يتراوح بين المركز الأول والثاني في أولويات الإنفاق للأسرة الصينية، التي تقدس التعليم تقليديا.

وعلى الرغم من انتشار شركات الاستثمار الأجنبي في الصين مازال العمل في الحكومة، سواء في الوحدات الإدارية أو شركات القطاع العام الحكومي هو الأكثر تفضيلا لدى الشباب في المدن، لاعتبارات الأمان الوظيفي والرعاية الاجتماعية، على عكس الحال بين شباب الريف الذين يفضلون إقامة المشروعات الخاصة، وإن لم يكن هذا ممكنا، فالعمل في شركات القطاع الحكومي. وبالنسبة لنوعية العمل التي يفضلها الشباب في الصين، يأتي في المقدمة قطاع المعلومات وخدمات الحاسب الآلي وقطاع المال والمصارف، كونها الأفضل دخلا.

وضع التوظيف أكثر صعوبة في المناطق الريفية وهذا يؤدي إلى هجرة الريفيين إلى المدن بحثا عن عمل، وهذا بدوره يفرض ضغوطا على مرافق وبيئة المدن، ولكي تستطيع الحكومة الصينية السيطرة على مشكلة البطالة فإنها مطالبة بتوفير نحو ١٥ مليون فرصة عمل جديدة سنويا، إذ أن عدد خريجي الجامعات الصينية فقط يصل إلى أكثر من خمسة ملايين كل سنة، ويزداد عددهم نحو مليون سنويا، وتشير الدراسات إلى أن نحو مليون ونصف فقط منهم حاليا يمكن أن يجدوا فرص عمل بعد تخرجهم مباشرة، ويكون على الثلاثة ملايين ونصف الآخرين أن ينتظروا فترة تطول أو تقصر. وحسب الأرقام الصينية، وصل عدد سكان الصين في سن العمل، من سن ١٥ إلى ٦٤ سنة عام ٢٠٠٠ إلى ٨٦٠ مليونا، ومن المتوقع أن يرتفع الرقم في عام ٢٠١٦ إلى مليار ومائة مليون، وهو رقم يعادل عدد السكان في سن العمل في كل الدول النامية.

وعلى جانب آخر، تعاني الصين من نزيف لأفضل عقولها، فحسب تقرير للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٧ بعنوان "الكتاب الأزرق حول السياسات العالمية

والأمـن"، يوجـد ٣٠٠ ألـف صينـي يعملون فـي الصناعـات ذات القيمـة المضافـة العالية فـي الـدول الصناعيـة بالعالـم، ويتزايـد الرقم مع تفضيـل العديد من خريجـي الجامعات المدربيـن جيـدا الخروج مـن الصين، التي بلغ عدد أبنائها الذين درسـوا فـي الخارج منذ ثمانينات القرن الماضي حتى عام ٢٠٠٦ مليون فرد، فضل ثلثاهم عدم العودة إلى الصين بعد التخرج.

ومـع انفتـاح الصيـن أكثـر فـي السـنوات الأخيـرة، وتيسـيرات السـفر التـي أدخلتهـا الحكومـة الصينيـة لمواطنيها يتزايد عدد الطلاب الصينيين الذين يختارون الدراسـة في الخـارج، والمقاصـد المفضلـة لديهم هـي الولايات المتحـدة وبريطانيا واليابان، وحسـب أرقام منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسـكو) يمثل الطلاب الصينيون ١٤٪ مـن الطلاب الدوليين، وحسـب دراسـة نشـرتها الجمعية الصينيـة للخريجين، يختار ٤٠٪ مـن الطـلاب الصينييـن الذيـن يحققون أفضل نتائـج في الامتحـان الصيني الوطني للقبـول بالجامعـات، الدراسـة في الخـارج، ومعظمهم لا يعود إلى الصيـن. ويطالب خبراء صينيـون الحكومـة بضـرورة إيجاد سـبل أفضل لاسـتعادة هؤلاء الطلاب إلـى الصين بعد إتمام دراسـتهم. والحقيقة أن الحكومة الصينية تعمل في هذه الاتجاه منذ فترة، فالعديد من المدن تقيم في مناطق التنمية الاقتصادية بها ما يسـمى بالحدائق الصناعية للطلاب المغتربين، حيث تقدم لهم تسهيلات وقروضا لإقامة مشروعات تنمية تكنولوجية، وهناك نماذج عديدة لدارسين صينيين أمضوا فترة في الخارج وعادوا إلى وطنهم وحققوا نجاحا كبيرا، ولكن يبدو أن هذا غير كاف لوقف نزوح العقول الصينية إلى خارج البلاد.

●●●

فجوة الثراء

المعضلـة الثانية التي تواجها الصين هي توسـع الفجـوة بين الأثرياء والفقراء كأفراد، وبيـن المناطـق الثريـة والمناطـق الفقيـرة. وحسـب تقريـر للأكاديميـة الصينيـة للعلـوم الاجتماعيـة، لـم تفلح، حتى الآن، الجهود التي تبذلها الحكومة الصينية منذ نحو عشـرين عاما في تضييق هذه الفجوة المقلقة.

وتشـير التقديـرات الحكومية إلى وجود ما بين ثلاثين وأربعين مليون نسـمة يعيشـون تحـت مسـتوى خـط الفقـر، أي نحو ٢٪ من سـكان الصيـن، مقارنة مع ٣٠٪ قبل عشـرين عاما، وأن نحو ٢٤ مليون فرد في الريف يعيشـون على دخل سـنوي أقل من ٦٨٣ يوانا، أي نحـو مائـة دولار أمريكـي، علمـا بأن خط الفقر المحـدد من قبل الحكومة لسـكان الريف الصينـي هـو ٦٩٣ يوانا، ولا تغطي مظلة التأمينات الاجتماعية غالبية فقراء الريف، حيث تقـدم الحكومـة معونـات لنحـو ١٣ مليون فـلاح فقط. ويعيـش نحو ٢٢ مليـون صيني فى المناطق الحضرية على إعانة حكومية شهرية قدرها ١٦٩ يوانا، أي ٢٦ دولارا أمريكيا.

وواقـع الحال في الصيـن حاليا هو أن ١٠٪ فقط من الصينيين يمتلكون أكثر من ٤٠٪ من الممتلكات الخاصة بالصين، في حين يقل نصيب العشـرة في المائة الأشـد فقرا عن اثنين فى المائة.

الفجـوة ليسـت فقـط على مسـتوى الأفـراد وإنما أيضا علـى مسـتوى المناطق، حيث تشير أرقام الحكومة إلى أنه في عام ٢٠٠٥، كان متوسط الدخل السنوي للفرد من سكان بكيـن، كنمـوذج للمناطـق الغنيـة، كان ١٧٦٥٣ يوانـا أي ٢٤٨٦ دولارا أمريكيـا، مقارنـة مع ٨٠٥٧ يوانا أي ١١٣٥ دولارا أمريكيا لسـكان مقاطعة تشينغهاي الفقيرة، ولكن حتى داخل هـذه المقاطعـة الفقيرة كان متوسـط الدخل السـنوي للفرد في الريـف حوالي ٣٠٠ دولار أمريكي، وهو ربع الرقم للمواطن الحضري بها.

فجوة الثراء تثير مخاوف كثير من الصينيين، وحسـب استطلاع للرأي أجرته صحيفة "شـباب الصين"، فإن تسـعين في المائة من شـباب هذا البلد يشـعرون بالذعر من الفجوة المتزايـدة بيـن مـن يملكون ومن لا يملكون، حيث قال ٨٠ر٧ فـي المائة إنه قد حان الوقت لتصحيح هذا الخلل.

يبقى أن نشير إلى أنه وفقا لأرقام البنك الدولي بلغ متوسط نصيب الفرد في الصين من إجمالي الناتج المحلي ألفي دولار أمريكي.

كانت الفكرة التي طرحها مهندس نهضة الصين الحديثة دنغ شياو بينغ هي إتاحة الفرصة لبعض المناطق وبعض القطاعات لأن تحقق الثراء أولا، بحيث يأخذ من يحققون الثراء بيد الآخرين، ولكن يبدو أن هذا لم يتحقق، برغم الآليات التي انتهجت لتطبيق هذه الفكرة على أرض الواقع من خلال إقامة علاقة توءمة بين مقاطعة أو مدينة أو قرية حققت الثراء وأخرى مازالت فقيرة، تساعد من خلالها المنطقة الثرية المنطقة الفقيرة، إلا أن النتائج التي تحققت متواضعة، كما تشير الأرقام التي ذكرناها آنفا.

●●●

البيئة

التدهور البيئي أحد أهم المشاكل التي تهدد مستقبل الصين، ويأتي التلوث، في الجو والأرض والماء، على رأس قائمة المخاطر البيئية، حيث تشير أرقام مصلحة الدولة الصينية لحماية البيئة، إلى أن سبعين في المائة من أنهار وبحيرات الصين ملوثة، وهذا يؤدي إلى حرمان أكثر من ثلاثمائة مليون صيني من المياه النظيفة. وحسب بيانات هذه المصلحة، زادت انبعاثات ثاني أكسيد الكبريت في الصين عام ٢٠٠٦ نحو ٤٦٠ ألف طن. وحسب تقرير أصدرته وزارة الأراضي والموارد الصينية، أكثر من عشرة في المائة من الأراضي الزراعية بالصين أمست ملوثة، نتيجة الاستخدام المفرط للأسمدة الكيماوية والمخلفات الصلبة والري بالمياه الملوثة، وتؤدي المعادن الثقيلة وحدها إلى تلويث ١٢ مليون طن من الحبوب سنويا. وحسب هذا التقرير، تبلغ قيمة الخسارة السنوية الناجمة عن تلوث الأراضي الزراعية في الصين ٢ر٦ مليار دولار أمريكي. ويوصي التقرير بضرورة الحفاظ على الأراضي الصالحة للزراعة عند مستوى ٣٠٠ مليون فدان بحلول ٢٠١٠ كحد أدنى للحيلولة دون وقوع كارثة محققة، خاصة مع إعلان الحكومة الصينية أن الأراضي الزراعية بالصين انكمشت بواقع نحو عشرة آلاف فدان في الأشهر العشرة الأولى من عام ٢٠٠٦ .

ومع النمو الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة في الصين وحركة التحول الحضري السريعة التي يعتبر نزوح الملايين من سكان المناطق الريفية إلى الحضر أبرز ملامحها، حيث من المتوقع أن يبلغ عدد سكان المدن الصينية ٨٦٠ مليونا في عام ٢٠٢٠، فإن الصين مهددة بالغرق في جبال من القمامة والمخلفات المعيشية والصناعية، حيث يتوقع المجلس الصيني للتعاون الدولي والتنمية، أن يصل حجم القمامة والمخلفات في الصين إلى أربعمائة مليون طن سنويا بحلول عام ٢٠٢٠، وهو رقم يعادل قمامة العالم كله في عام ١٩٩٧، ولا عجب في ذلك فالأرقام التي يعلنها أحد الأجهزة الصينية حول مخلفات الأجهزة الكهربائية المنزلية تثير القلق، إن لم يكن الرعب، فالصينيون يلقون في صناديق القمامة كل سنة ١٥٠ مليون جهاز تلفزيون وغسالة كهربائية وثلاجة وجهاز تكييف وكمبيوتر، وفقا للجمعية الصينية للأجهزة الإلكترونية المنزلية، الأسوأ أن ٨٠٪ من المخلفات الإلكترونية للدول المتقدمة تذهب في حاويات إلى آسيا، ينتهي بعضها في الصين التي يوجد بها ١٠ ملايين جامع قمامة بدون ترخيص رسمي، وفقا لصحيفة العلوم والتكنولوجيا، لسان حال وزارة العلوم والتكنولوجيا الصينية. وتتم معالجة تلك المخلفات بطرق بسيطة تنتج كميات هائلة من الغازات السامة والمياه الملوثة بالرصاص، التي تنتهي بدورها في الأنهار والبحيرات، لتظل حلقة التلوث المفرغة.

●●●

الطاقة والموارد

تشير التقديرات إلى أن استهلاك الصين من النفط في عام ٢٠٠٧ زاد على ٣٥٠ مليون طن، أي أكثر من عام ٢٠٠٦ بعشرة ملايين طن. وستكون الصين مضطرة إلى الاعتماد أكثر على النفط المستورد في المستقبل للحفاظ على دوران عجلة تنميتها الاقتصادية، فالإنتاج الصيني المحلي من النفط يزداد بنسبة ٥ر١٪ سنويا، في حين يزداد الاستهلاك بنسبة ٨٪، مع تقديرات تشير إلى أن احتياطي الصين المؤكد من النفط سينضب خلال ثلاث عشرة سنة على الأكثر. وقد أصبحت الصين منذ عام ١٩٩٣

مستوردا خالصا للنفط، وفي عام ٢٠٠٤ حلت الصين محل اليابان كثاني أكبر مستورد للنفط في العالم، وفي عام ٢٠٠٦ استوردت الصين حوالي نصف استهلاكها من النفط من الخارج، وتحديدا ٤٧٪، فقد استوردت ١٣٩ مليون طن من النفط الخام بزيادة قدرها ١٧٪ عن عام ٢٠٠٥، ومع ارتفاع أسعار النفط من ٢٥ دولارا أمريكيا للبرميل عام ٢٠٠٣ إلى ما يقرب من مائة وخمسين دولارا أمريكيا، مع احتمال ارتفاعه أكثر، فإن فاتورة نمو الاقتصاد الصيني سوف ترتفع كثيرا.

غير أن مشكلة الموارد في الصين لا تتوقف عند الطاقة، فإذا كانت الصين هي ثالث أكبر دولة في العالم من حيث الموارد، فإن متوسط نصيب الفرد بها يحتل المرتبة الثالثة بعد الخمسين، فمتوسط نصيب الفرد في الصين من المياه سيكون ١٧٠٠ متر مكعب فقط في عام ٢٠٣٠، مما يعني أن الصين ستكون من أفقر دول العالم في موارد المياه، برغم وجود نهرين كبيرين بها، هما نهر اليانغتسي، ثالث أكبر نهر في العالم، ونهر هوانغخه (الأصفر). ويفاقم من هذه المشكلة سرعة التنمية الاقتصادية التي يكون ثمنها في الغالب الاستخدام المفرط للموارد، فإذ كان إجمالي الناتج المحلي للصين عام ٢٠٠٦ بلغ ٢ر٧ تريليون دولار أمريكي، أي ٥ر٥٪ من الإجمالي العالمي فإن الصين لكي تحقق هذا الناتج استهلكت ١٥٪ من إجمالي الناتج المحلي العالمي من الطاقة، و٣٠٪ من الفولاذ و٥٤٪ من الأسمنت. ولهذا دشنت الحكومة الصينية في الفترة الأخيرة حملة عنوانها "مجتمع مقتصد في الموارد" لتوعية المسؤولين المحليين والمواطنين بواقع الموارد في الصين وتشجيعهم على تبني نمط إنتاج وحياة موفر للموارد، وهي حملة بدأت تؤتي ثمارا قليلا. وربما تحتاج الصين إلى أكثر من مجرد حملة توعية، فتغيير نمط الإنتاج، بل والحياة بات أمرا ضروريا للصينيين.

●●●

شيخوخة المجتمع والخلل السكاني

كانت مشكلة الصين السكانية في ثمانينات القرن الماضي هي الانفجار السكاني، فقد كانت الزيادة السكانية بشكل رهيب تهدد مستقبل التنمية في الصين، ولهذا تبنت الحكومة الصينية سياسة صارمة لتنظيم الأسرة وتحديد النسل، كان من نتائجها أنها منعت إضافة أربعمائة مليون نسمة إلى سكان الصين بعد نحو ثلاثين عاما من تطبيقها. ولكن المشكلة التي تواجه الصين حاليا ومستقبلا، هي شيخوخة المجتمع الصيني وعدم التوازن بين الجنسين، الذكور والإناث. لقد كانت النتائج المباشرة لسياسة تنظيم الأسرة هي انخفاض معدل الزيادة السكانية، فقد انخفض معدل الإنجاب للمرأة الصينية من ٥ر٨ طفل في عام ١٩٧٠ إلى ١ر٨ طفل حاليا، وارتفاع نسبة كبار السن إلى صغار السن، وصغر حجم الأسرة الصينية وتغير تركيبها وخلل التوازن في النسبة بين الذكور والإناث، حيث سيواجه الشاب الصيني في الفترة القادمة مشكلة العثور على شريكة حياة صينية مع ارتفاع النسبة بين المواليد الجدد إلى مائة وعشرين ذكرا مقابل مائة أنثى فقط. فبحلول عام ٢٠٢٠ لن يجد ٣٠ مليون شاب صيني شريكة حياته من بين الصينيات، بكل الانعكاسات الاجتماعية المقلقة لهذه الظاهرة. من ناحية أخرى من المتوقع أن يصل عدد السكان في بر الصين الرئيسي فوق سن الستين ٤٠٠ مليون نسمة عام ٢٠٥٠، أي نحو ربع سكان الصين في ذلك الوقت، ومع ارتفاع مستوى المعيشة بمعدلات متسارعة من المرجح أن يستمر متوسط العمر المتوقع للمواطن الصيني في الارتفاع، برغم أنه ٧١ سنة حاليا بينما المعدل العالمي ٦٥ سنة، ويتوقع تقرير للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية أن يصل متوسط عمر الصيني ٨٥ سنة عام ٢٠٥٠. هذا القطاع الكبير من كبار السن يفرض على الحكومة أن تجد آليات للتعامل معهم، وفي ظل سياسة الطفل الواحد سيكون على الزوج والزوجة من الشباب رعاية أربعة أفراد كبار السن، هم والدا كل منهما إضافة إلى رعاية طفلهما، خاصة وأن الصين لم تطور بعد بنية أساسية للتعامل مع هذا العدد الكبير من كبار السن، سواء دور للمسنين أو مراكز رعاية صحية ونفسية لهم. إنها مشكلة تقلق الرأي العام الصيني والحكومة.

●●●

الصين .. إلى أين؟

تلك بعض من أهم التحديات التي تواجهها الصين في حاضرها، وربما في المستقبل أيضا، والقيادة الصينية تعي تلك المعضلات وتسعى للتعامل معها، كما أن هناك وعيا شعبيا متناميا بمشكلات الصين التي استطاعت أن تحافظ على معدلات نمو اقتصادي سنوي، منذ تبنيها سياسة الإصلاح والانفتاح عام ١٩٧٨، تتراوح بين ٩٪ و١١٪، وهي معدلات نادرة في تاريخ التنمية الاقتصادية بالعالم. وخلال السنوات الثلاثين الماضية أنجزت الصين في العديد من المجالات ما أنجزته دول أخرى في مئات السنين. وفي عام ٢٠٠٧ بلغ إجمالي الناتج المحلي للصين ٣ر٤٣ تريليون دولار أمريكي، بزيادة قدرها ١١ر٤٪ عن العام السابق. علما بأن معدل نمو إجمالي الناتج المحلي للصين كان ١٠٪ في عام ٢٠٠٣، و١٠ر١٪ في عام ٢٠٠٤، و١٠ر٤٪ في عام ٢٠٠٥، و١٠ر٧٪ في عام ٢٠٠٦، حيث جاءت الصين في المركز العالمي الرابع من حيث إجمالي الناتج المحلي، ثم قفزت إلى المركز الثالث في عام ٢٠٠٧، واحتلت المركز الثاني من حيث حجم التجارة الخارجية والمركز الأول من حيث احتياطي العملة الصعبة. وتشير التوقعات إلى أن الصين ستواصل تحقيق معدل نمو للناتج الوطني المحلي بنسبة لا تقل عن ٨٪ حتى عام ٢٠١٠، أي حتى نهاية فترة الخطة الخمسية الحادية عشرة للتنمية الاقتصادية الاجتماعية بها (٢٠٠٦ – ٢٠١٠) وقد وصل متوسط دخل الفرد في الصين ألفي دولار أمريكي، حسب بيانات البنك الدولي في عام ٢٠٠٧. ومرة أخرى نشير إلى أن متوسط دخل الفرد في المناطق الصينية المتقدمة جاوز هذا الرقم بكثير. وقد أصبحت الصين أكبر مستهلك تقريبا لمختلف منتجات العالم، فهي ثاني أكبر مستهلك للنفط وأكبر مستهلك للنحاس والألمنيوم والأسمنت. ولا شك أن الصين، بطلبها المتزايد على استيراد المواد الخام بمختلف أنواعها، والسلع المصنعة بدرجة أقل، تساعد كثيرا في إنعاش أسواق السلع والمنتجات على مستوى العالم. وأصبحت الصين كذلك أكبر شريك تجاري للعديد من التكتلات الاقتصادية العالمية، وتحقق فائضا تجاريا مع كافة الشركاء التجاريين لها، باستثناء الدول التي تستورد منها النفط.

وتحـدد دراسـة اقتصادية صينية، أربعة عوامل رئيسـية تدعم نمـو الاقتصاد الصيني في المستقبل وهي:

أولا: أن الصيـن أقامـت بالفعـل قواعـد ماديـة وتكنولوجية قوية تضمـن تواصل النمو الاقتصـادي والتقنـي، ولـم تعـد الصيـن تعاني من مشـكلة نقـص رأس المـال، حيث يزيد الفائـض التجـاري الذي تحققه الصين مـن تجارتها الخارجية مليارات الدولارات سـنويا، وحاليـا يزيـد إجمالي احتياطي النقد الأجنبي في الصين عـن تريليون ومائتي مليار دولار أمريكـي، وهـو الأكثر في العالم، ووصل إجمالي المدخـرات المصرفية للصينيين أكثر من ٢ر٢ تريليون دولار أمريكي؛

ثانيـا: أن الهيـكل الصناعي في الصين شـهد تغيرات كبيرة مع تعاظـم قدرة الصناعة التحويلية الصينية على المنافسة الدولية بشكل متزايد؛

ثالثا: أن الصين تتميز عن غيرها من الدول بسعة سوقها المحلية التي تتمتع بإمكانات ضخمـة للنمو تمكنها من اسـتيعاب أي أزمـة مالية أو اقتصادية عالمية، وقد لعبت الصين دورا هاما ومسؤولا خلال الأزمة المالية الآسيوية ولم يتأثر نموها الاقتصادي بتلك الأزمة؛

رابعا: أن الصين تواصل تحسـين وتحديث كافة القطاعات بها، وتواصل تحسـين بيئة الاستثمار بشكل مستمر مما جعلها القبلة الثانية في العالم للاستثمار المباشر الخارجي. وتسـعى الصيـن إلى تغيير نمط وهياكل نموها الاقتصادي، والسـير علـى طريق التحديث الصناعـي وزيـادة نسـبة قطاع الخدمـات في الاقتصـاد الوطني وتقليل فجـوة التنمية بين الحضر والريف.

وعلـى الصعيـد التكنولوجي، فإن الصين حققت أول إنجـاز تكنولوجي ضخم لها بعد خمس عشرة سنة من تأسيس الصين الجديدة، عندما نجحت في صناعة قنبلتها الذرية، وهو إنجاز تكنولوجي لفت انتباه العالم وكان مؤشـرا لقدرة الصين على تحقيق اختراقات تقنية على الرغم من الحصار التكنولوجي الذي فرضه الغرب عليها آنذاك، ومازال قائما إلـى حد ما الآن. وبعد سـت سـنوات مـن الإنجـاز الأول، وتحديدا في عـام ١٩٧٠ نجحت

الصيـن فـي إطـلاق أول قمر صناعي لها. وفـي عام ٢٠٠٣ أطلقت الصيـن مركبة الفضاء المأهولة "شنتشو ٥" وعلى متنها رائد الفضاء الصيني يانغ لي وي. وتعتزم الصين إطلاق ثلاثة أقمار صناعية لمراقبة البيئة والكوارث وتنبؤاتهما، وسـوف تطور مائة قمر صناعي في فترة خمس سـنوات، تشـمل أقمـارا صناعية للاتصـالات والبث الإذاعـي والتلفزيوني وأقمـارا صناعيـة لمـوارد الأرض، وأقمـارا صناعيـة يمكن اسـترادادها وأقمـارا للأرصاد الجويـة وللملاحة. وتخطط الصين لإنشـاء جيل جديد من الصواريـخ الناقلة القادرة على حمـل المحطـات الفضائية إلى الفضاء، مما سـيجعلها واحدة مـن دول العالم الرائدة في المجال العلمي والتكنولوجي. ولا شـك أن نجاح بكين في هذه الخطوة يضعها في مصاف الدول العلمية الرائدة في مجال علوم الفضاء على وجه التحديد.

والصين بإطلاقها رحلة فضائية مأهولة في عام ٢٠٠٣، صارت ثالث دولة في العالم، بعد كل من الاتحاد السـوفيتي السـابق والولايات المتحدة، ترسـل مركبات فضاء مأهولة بإنسـان إلـى الفضـاء الخارجي اعتمادا علـى قدراتهـا الذاتية. كذلك نجحـت الصين في وضـع رائـدي فضاء في مـدار حول الأرض لمدة أسـبوع في عـام ٢٠٠٥، وتخطط الصين لإرسال رائد فضاء إلى القمر وبناء محطة فضاء دولية في مستقبل غير بعيد، ربما خمس أو ست سنوات.

ومـن الملاحظ أن قطـاع التكنولوجيا أضحى يمثل مرتكزا رئيسـيا في خطط التنمية الصينيـة حاليـا، حيث من المتوقع أن تسـتطيع الصيـن تصنيع طائرات الـركاب العملاقة قبـل حلـول عام ٢٠٢٠، إضافـة إلى منجزاتها في تكنولوجيا اسـتخراج النفـط. ويكفي أن نشـير إلـى أن القيمـة المضافة التي حققهـا قطاع التكنولوجيـا العاليـة والحديثة بمدينة بكيـن فقـط بلغت أكثر من خمسـة مليـارات دولار أمريكي في عـام ٢٠٠٦، وازدادت أنواع الملكيـة الفكرية الخاصة لمنتجات التكنولوجيا العالية والحديثة الصينية بصورة ملحوظة وارتفعت القدرة التنافسية لهذه المنتجات بصورة كبيرة في الأسواق الدولية.

وتمتلك الصين العناصر الرئيسية الثلاثة المطلوبة للتقدم التكنولوجي، وهي:

أولا: الكفاءات البشرية المؤهلة والتي يعززها ارتفاع نوعية التعليم في الصين وبخاصة بعد تبني سياسة الإصلاح والانفتاح، وحرص الصين على إيفاد طلابها للدراسة بالدول المتقدمة والعمل بها لفترة ثم العودة إليها بالعديد من العلوم والتكنولوجيا التي يتم توظيفها لخدمة الأهداف الوطنية الصينية. فمنذ أواخر سبعينات القرن العشرين درس ما يزيد على مليون طالب صيني في الخارج وشكل عدد الطلبة الذين تابعوا الدراسة بالخارج منذ العام ٢٠٠٠ أكثر من ٧٠٪ من عدد الطلبة الإجمالي الذين توجهوا للخارج بغرض الدراسة في العقدين السابقين. ويدرس في الخارج أكثر من مائة ألف طالب سنويا منذ عام ٢٠٠٢.

ثانيا: الإرادة السياسية والجماهيرية لتحقيق التقدم، فالحكومة الصينية والمواطن الصيني تجمع بينهما الرغبة في تحقيق التقدم وبخاصة على الصعيد التكنولوجي.

ثالثا: الظروف الاقتصادية المناسبة، والتي توفر للبحث العلمي والتكنولوجي الإمكانات المادية والمالية، وعاما بعد عام تتزايد ميزانية البحث العلمي والتكنولوجي في موازنة الحكومة.

ولكن ينبغي الاعتراف بأن الصين مازالت تفتقر إلى تقنيات جوهرية نتيجة لحظر الغرب تصدير التكنولوجيا العالية لها منذ أحداث الرابع من يونيو ١٩٨٩، ولهذا فإن التقدم التكنولوجي الذي تحققه الصين في بعض المجالات قد يكون مكلفا قياسا مع الدول الغربية.

●●●

التقدم الاقتصادي والتكنولوجي والعسكري الذي حققته، ومازالت تحققه، الصين خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، هو السبب الرئيسي لانشغال الرأي العام الدولي بهذا البلد خلال العقدين الأخيرين، فقد ارتبط اسم الصين إلى حد كبير بالتنمية

الاقتصادية وبأرقام إجمالي الناتج الوطني وما يرتبط بها من فائض الميزان التجاري والزيادة في الميزانية العسكرية وارتفاع أرقام الصادرات.

وحسب تقرير للأكاديمية الصينية للعلوم ستنجز الصين تحديثها الأول في عام ٢٠١٥ لتصل إلى المستوى الذي كانت عليه الدول المتوسطة التقدم في عام ١٩٦٠، مع الأخذ في الاعتبار أن تقارير هذه الأكاديمية تضع تقديرات للحد الأدنى الذي يمكن أن يتحقق. وتحديث الصين الأول يعني عملية تحول الصين من العصر الزراعي إلى العصر الصناعي، ومن الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي، ومن المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي، ومن الحضارة الزراعية إلى الحضارة الصناعية. ولكن هذا يقصد به الصين ككل فقد وصلت الحواضر الصينية الكبرى مثل بكين وشانغهاي وقوانغتشو (كانتون) وشنتشن، مستوى الدول المتوسطة التقدم، بل وتجاوزتها.

ولعل ما يؤيد هذه الرؤية أن الصين تحولت إلى بلد مصدر للاستثمار، فقد شهدت الاستثمارات الصينية في الخارج ازديادا سريعا خلال السنوات الأخيرة. حيث بلغ إجمالي الاستثمارات غير المالية المباشرة في الخارج ما يزيد عن ستة عشر مليار دولار أمريكي في عام ٢٠٠٦، وهو رقم يضع الصين في مقدمة الدول النامية المصدرة للاستثمار. وقد تجاوز عدد المؤسسات الصينية التمويل في الخارج المسجلة لدى وزارة التجارة الصينية عشرة آلاف مؤسسة، تستثمر في أكثر من ١٦٠ دولة ومنطقة، بكل ما يعنيه هذا من ضرورة أن توسع الصين النطاق الجيوسياسي لحماية مصالحها واستثماراتها ومواطنيها، وما يستتبعه ذلك من خلافات ومواجهات على الساحة الدولية.

وقد تباينت المواقف من ازدهار الاقتصاد الصيني وآثاره أو تداعياته على الاقتصاد العالمي، كما تباينت الأوصاف التي أسبغت على نموذج التنمية الصيني، من "صعود الصين" إلى "نهضة الصين" كما اختلفت الآراء حول مكانة الصين في الاقتصاد الدولي، فالبعض وصف الصين بأنها "مصنع العالم" وقال آخرون إنها "ورشة العالم".

والحقيقة أن ما حدث في الصين ليس أكثر من تطور طبيعي، وربما أقل من الطبيعي لدولة في حجم الصين، مساحة وسكانا وتنوعا وثراء ثقافيا. غير أن كثيرين من الذين يروجون لمعجزة الصين والصعود الصيني والخطر الصيني إنما يبغون من ذلك، ليس تقدير إنجازات الصين الاقتصادية، بل التحريض عليها والتحذير، وأحيانا الترهيب، من أن يصبح الصينيون مواطنين طبيعيين يتمتعون بما يتمتع به غيرهم من أبناء أمم كثيرة. والصينيون لا يعتبرون ما تحققه بلادهم إعجازا بل يصرون على أن بلادهم دولة نامية، وأحيانا أقل من نامية، وليست قوة عظمى، ويكفي أن نشير إلى أنه وفقا لتقديرات خبراء الاقتصاد الصينيين مازالت هناك فجوة قدرها مائة عام تفصل بين الصين والدول المتقدمة، من حيث دخل الفرد والهيكل الاقتصادي.

المشكلة تكمن في قراء الأرقام المطلقة عن الصين، وهي أرقام مضللة إن لم نضعها في إطارها الصحيح، فقد اهتز العالم لوصول إجمالي الناتج المحلي للصين في عام ٢٠٠٧ إلى نحو ٢٤ر٦٦ تريليون يوان، لأن ذلك يعني أن الصين أصبحت ثالث أكبر كيان اقتصادي في العالم ولكننا هنا نتحدث عن الصين التي تغطي تسعة ملايين وستمائة ألف كيلومتر مربع، أي ما يعادل مساحة كل أوروبا الغربية، والصين تعيل أكثر من مليار وثلاثمائة مليون نسمة، أي ما يزيد على خُمس سكان العالم، ولهذا فإنه حتى وإن أصبحت الصين أكبر كيان اقتصادي في العالم يظل الأمر طبيعيا ولا يتجاوز التوقعات الطبيعية بالحسابات الاقتصادية، وذلك لا يعني أن الصين انضمت إلى نادي الدول المتقدمة لأسباب كثيرة. والحقيقة أن ما يحدث في الصين من معدلات نمو اقتصادي عالية يمكن تشبيهه بشخص تعرض لمرض فترة طويلة ففقد خلالها الكثير من وزنه، إلى أن زالت أسباب المرض وراح يستعيد عافيته ويسترد وزنه، ولكنه لم يصل بعد إلى وزنه الطبيعي. يمكن القول إن ما تحقق يعد تقدما وإنجازا، ولكنه يقينا ليس معجزة. لقد عانت الصين سنوات طويلة من الحكم الفاسد والتدخل الأجنبي قبل قيام الصين الجديدة، ومن كوارث اقتصادية خلال الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن الماضي، لأسباب سياسية داخلية وظروف دولية، وكان آخرها ما سمي بالثورة الثقافية، التي كانت توصف بالكبرى

أو العظمى (من منتصف الستينات حتى منتصف السبعينات). بعدها شرعت الصين تسير على طريق التنمية الطبيعية، فجاءت معدلات نمو أطلق عليها البعض مذهلة، ١٠٪ وأحيانا ١٢٪ سنويا. ولكن الأمر كان تعويضا للماضي، فنسبة النمو هذا العام تُحدد على أساس ما كان موجودا العام الماضي، والصين دخلت مرحلة الإصلاح باقتصاد صفر أو أقل. إن ما يحدث في الصين هو "سداد ديون" الماضي، أو قل تعويض ما فات أو استكمال الفاقد.

وأمام ما تحققه الصين من نمو اقتصادي نجد ثلاثة توجهات في تقييم هذا النمو أو ما اصطلح عربيا على تسميته بالصعود. البعض يتحدث عن الصين كقوة عظمى والبعض الآخر يرى أن الصين مازالت على طريق النهوض، وبعض ثالث يرى أن "صعود الصين" ليس أكثر من مبالغة، أو فقاعات.

هذه الرؤى الثلاث تستند إلى حقائق بعينها وتهمل حقائق أخرى، فأصحاب نظرية "صعود الصين" يقارنون حجم الناتج المحلي الإجمالي للصين في عام ٢٠٠٧، بالرقم عام ١٩٧٨، واستمرار الاقتصاد الصيني في تحقيق معدلات نمو بمتوسط ٩ر٨٪ لمدة ثلاثين سنة متواصلة، برغم حقيقة أن الصين بها مليار وثلاثمائة مليون مواطن، في حين أن اليابان مثلا، برغم صغر حجمها السكاني مقارنة مع الصين، لم تستطع مواصلة زخم نموها الاقتصادي إلا أقل من عشرين سنة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي.

أصحاب الرأي الآخر: النهوض، يقولون إن حجم الناتج المحلي للصين العملاقة سكانا وأرضا في عام ٢٠٠٥ لم يكن أكثر من ٥٪ من إجمالي الناتج العالمي، وفي عام ٢٠٠٦ كان ٥ر٥٪ مقارنة مع ٩ر٤٪ عام ١٩٥٥، أي أن نصيب الصين زاد خلال نصف قرن نصف نقطة مئوية، أو أكثر قليلا! علما بأن اليابان التي كان نصيبها في إجمالي الناتج العالمي عام ١٩٥٥ هو ٥ر٢٪ ارتفع إلى ١٠٪ في عام ١٩٨٠، برغم حقيقة أن عدد سكانها يساوي عُشر عدد سكان الصين. ونشير هنا إلى ملاحظة قد تعين في فهم ما أسميته في موضع سابق بالتعويض أو استكمال الفاقد، ففي سنة ١٩٨٠ انخفض نصيب الصين في

الإنتاج العالمي إلى ٥ر٢٪، بسبب ما شهدته البلاد في الستينات والسبعينات من فوضى "بناء الاشتراكية والباب مغلق" و"الثورة الثقافية".

وإذا كانت اليابان، كنموذج للنهوض الاقتصادي، قد سُميت "مصنع العالم" في فترة سابقة فإن ذلك كان نتيجة ما حققه اليابانيون من اختراقات تكنولوجية في مجال الإلكترونيات؛ تلفزيونات وكاميرات وأجهزة سمعية وبصرية، ولكن إطلاق صفة "مصنع العالم" على الصين حاليا مرده الصناعات الكثيفة الأيدي العاملة، وهي صناعات تقع في منتصف التيار، ما بين القمة الممثلة في بحث وتطوير المنتجات الجديدة، وبين النهاية الممثلة في قدرات استكشاف السوق العالمية. البعض يرى أن وصف "ورشة العالم" قد يكون أكثر دقة في التعبير عن الواقع الصيني، فكثير من المنتجات التي تحمل علامة "صنع في الصين" ليست إلا عملية تجميع ومعالجة لصالح الشركات الدولية العملاقة، ويكفي أن نشير إلى أن نصف صادرات الصين حاليا يخرج من مصانع المشروعات المشتركة والشركات ذات التمويل الأجنبي. يضاف إلى هذا حقيقة أن متوسط نصيب الفرد الصيني من إجمالي الناتج المحلي للصين يقل كثيرا عن نظيره في اليابان أو كوريا الجنوبية!

ولكن التقديرات تشير إلى أنه إذا واصلت الصين السير بنفس الخطى على طريق التنمية فإن حجم الاقتصاد الصيني يمكن أن يصل إلى ٣٠٪ من حجم الاقتصاد العالمي عام ٢٠٣٠، أي أنه سيتجاوز نصيب اليابان ويقترب من نصيب الولايات المتحدة. في ذلك الوقت يكون من الصواب أن نتحدث عن الصين كقوة كبيرة.

والصين ليست معجزة، ليس فقط للأسباب التي استعرضناها سابقا، وإنما أيضا لأسباب لها علاقة بتوزيع الثروة داخل الصين ومدى استفادة كافة الفئات من نمو الاقتصاد الصيني.

وبرغم تأكيد القيادة الصينية بأن التنمية الصينية تنمية سلمية، وأنها ليس لها مطامع خارجية. ولا تنقطع الدراسة والتحليل والتوقع لمستقبل الصين السياسي، وكذا قياس

الـرأي العـام العالمـي تجاه نهوض الصين، حيث تشـير اسـتطلاعات الـرأي إلى أن بعض الأمريكيين يعتقدون أن الصين سـتهيمن على العالم قريبا، برغم حقيقة أن متوسـط دخل الفـرد في الصين يقبع بعيدا خلف متوسـط دخل الفرد فـي الولايات المتحدة، وبرغم أنه إذا وصـل حجـم اقتصاد الصين إلـى حجم اقتصاد الولايات المتحـدة خلال ثلاثين عاما، كمـا تشـير التوقعات، سـيظل دخل الفرد الأمريكي أربعة أضعـاف دخل الفرد في الصين. وقـد تكثفت بحوث مسـتقبل الصين بشـكل خـاص بعد انهيار الاتحاد السـوفيتي السـابق بقيـادة الحـزب الشـيوعي، باعتبـار أن الصيـن هي الأخـرى تخضع لحكم حزب شـيوعي، وفي تلك الفترة تنبأ البعض باقتراب نهاية النظام السياسـي في الصين، وقادهم إلى هذا جهلهم، أو بغضهم لطبيعة النظام السياسـي في الصين والحزب الشـيوعي الصيني ذاته. ومع انتهاء فترة حكم كل زعيم صيني تنشـط من جديد موجة المتنبئين بمسـتقبل الصين؛ حدث هذا عندما رحل دنغ شياو بينغ وساد الحديث في الإعلام ومراكز البحث، في الغرب على نحو خاص، عن الصراع على السـلطة في الصين وعن الشـخص الذي يمكن أن يسد الفـراغ الـذي تركه دنغ شـياو بينغ. ثم انقطع حديث صراع السـلطة بعد تولي جيانغ تسـه مين مقاليد الحكم ودفة القيادة ليتجدد نفس الحديث مرة أخرى مع تقاعد جيانغ وتسلم هـو جيـن تاو دفـة القيادة في الحـزب والدولة. وبرغم الاسـتقرار السياسـي والاقتصادي والاجتماعي والأمني الذي تشهده الصين حاليا تجتهد كثير من الدراسات والبحوث لوضع التصـورات لمسـتقبل الصيـن، اسـتنادا إلى فرضية غيـر معلنة وهي أن النظام السياسـي القائـم فـي الصيـن لن يسـتمر، وإنه إذا اسـتمر لن يبقى طويـلا. ومن التنبؤات بمسـتقبل الصين والتي قرأتها وأنا أكتب هذه السطور، الدراسة التي نشرتها صحيفة لوس أنجلوس تايمـز الأمريكيـة فـي الخامس والعشـرين من فبرايـر ٢٠٠٨ بعنـوان "ثلاثة سـيناريوهات لمسـتقبل الصين" لرئيس مكتب لوس أنجلوس تايمز السـابق في بكين، الصحفي جيمس مان. يعتقد جيمس مان أن ثمة ثلاثة سـيناريوهات متصورة لمسـتقبل الصين. السـيناريو الأول يسـميه "السـيناريو السـلس"، ووفقا له فإن النظام السياسـي الصيني، الذي وصفه مـان بأنه سـلطوي، سـينفتح في النهايـة ويتجه بالفعل نحـو نوع من الليبرالية السياسـية،

تماشيا مع الليبرالية الاقتصادية القائمة. ويقوم هذا السيناريو، وفقا له، على فكرة الحتمية الاقتصادية التي تعني أن الرخاء المتزايد في الصين، وازدياد تجارتها وتبادلاتها مع المجتمع الدولي، والاستثمارات الأجنبية الضخمة التي تدخلها، كلها عوامل ستؤدي في نهاية المطاف إلى تقويض نظامها السياسي القائم وتقودها حتما إلى الليبرالية السياسية. ويشير مان إلى أن الإدارة الأمريكية راهنت على هذا السيناريو لفترة، منوها إلى أن الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون قال يوما للزعيم الصيني الراحل "دنغ شياو بينغ": "إنكم تقفون في الجانب الخاطئ من التاريخ"، حيث كان كلينتون يؤمن بأن التغييرات الاقتصادية في الصين ستؤدي إلى "تعزيز روح الحرية بمرور الوقت"، وأن ذلك نتيجة حتمية، تماما مثلما كان سقوط حائط برلين نتيجة حتمية للحرب الباردة. ويعتقد أنصار "السيناريو السلس" أن النظام السياسي في الصين سيتطور إلى نظام ديمقراطي بالطريقة نفسها التي تطور بها نظام كوريا الجنوبية مثلا خلال العقدين الماضيين، من حكم عسكري إلى نظام ديمقراطي انتخابي. ولكن مان يستبعد هذا السيناريو أو التصور، استنادا إلى أن هناك مناطق شاسعة في الصين معزولة حتى الآن عن الانفتاح، الذي وصفه بأنه نسبي، الموجود في المناطق الساحلية الشرقية من البلاد. فالذين يقولون إن الصين ستتطور مثلما تطورت كوريا الجنوبية، يبنون هذه المقولة على الانطباعات التي يخرجون بها من خلال الزيارات التي يقومون بها لبكين وشانغهاي وتجعلهم يظنون أن الوضع في باقي مناطق الصين لا يختلف عما هو موجود في هاتين المدينتين.

السيناريو الثاني الذي يسميه "سيناريو الانقلاب المباغت"، يقوم على فرضية أن النار تحت الرماد في الصين وأن البلاد تغلي وتعاني من عدم استقرار في العمق وأنها تتجه نحو كارثة سياسية أو تدهور اقتصادي حاد أو الاثنين معا. ويقول مان إن هذا السيناريو يتم طرحه كلما ظهرت مؤشرات على قرب حدوث حالة من عدم الاستقرار في الصين، كأن تحدث إضرابات عمالية في مدينة صغيرة، أو قلاقل في المناطق الريفية، أو اندلاع أعمال شغب، أو كوارث بيئية. ويشكك جيمس مان في إمكانية حدوث هذا السيناريو نظرا للتضخيم الذي ينال أي مظهر من مظاهر الفوضى في الصين، فقد

شهدت الصين حالة ذعر نادرة في تاريخها الحديث عندما ضربها وباء سارس عام ٢٠٠٣ ولـم تحدث اضطرابات اجتماعية تذكر، إضافة إلى حقيقة التماسـك التاريخي المسـتمر للدولـة الصينيـة في كافة مراحل تطورهـا والذي تجلى في أروع صـوره عندما وقع زلزال ونتشـوان فـي الصيـن في مايو ٢٠٠٨، حيث سـادت الصيـن روح وطنية لا مثيـل لها، وبرز التماسـك بيـن الشـعب وقيادته على نحو أدهـش العالم. أما التصور الأخير الذي يسـميه جيمـس مـان بالسـيناريو الثالث، على غرار الطريق الثالث، فيقـوم على فرضية أن النظام السياسي الصيني القائم على الحزب الواحد، لن يتغير على أي نحو جوهري، ووفقا لهذا السـيناريو، سـيظل هذا النظام نظاما سـلطويا لفترة طويلة قادمة. ويعتقد جيمس مان أن هذا هو السيناريو القابل للتحقيق في الصين، وحجته في ذلك أن قادة الصين سيستمرون فـي منـع أية معارضة سياسـية منظمة، وسيسـتمرون في سـيطرتهم على وسـائل الإعلام والسلطة القضائية، وأنهم حتى إذا قرروا إجراء إصلاحات، فإن تلك الإصلاحات ستكون محـدودة، ولـن تزيـد على إجراء انتخابات تتم السـيطرة عليها على مسـتوى القرية بحيث لا تـؤدي بأي شـكل إلى تهديد احتكار الحـزب الحاكم لمقاليد السـلطة المركزية. وينتهي جيمس مان إلى القول... وأنا شخصيا أعتقد أن نظام الصين القائم على الحزب الواحد سيدوم لفترة طويلة في المستقبل. ولكن جيمس مان لا يحدد تلك الفترة.

والحقيقـة أن الصيـن، كما ذكرت في مقدمة هذا الكتـاب، تقدم لك معطيات ظاهرية يمكـن أن تبنـي عليها أي تصور لمسـتقبل هذا البلـد، بيد أن القراءة المتأنية لما شـهدته الصيـن خـلال الثلاثين عاما الأخيـرة تعطي أدلة تثبـت قدرة القيادة الصينيـة، ممثلة في الحـزب الشـيوعي، وقـدرة المجتمـع الصينـي ذاتـه، على التكيـف مع مسـتجدات العصر وتطوراتـه، فالصين تعدل دسـتورها ومواقفها وتوجهاتهـا عندما ينبغي أن يحدث التعديل، والصينيون، بطبيعتهم البراغماتية، يمتلكون القدرة على توظيف التطور لخدمة مصالحهم. وقـد ظـن كثيرون أن انضمام الصين لمنظمـة التجارة العالمية مثلا، بكل ما يعنيه من فتح السوق الصينية الهائلة أمام المنتجات والشركات الدولية، سيكون ضربة موجعة للاقتصاد الصينـي، ولكـن السـنوات السـت التـي انقضـت منذ انضمـام الصيـن للمنظمة فـي دورة

الدوحة في نوفمبر عام ٢٠٠٢، أثبتت أن مكاسب الصين من دخول المنظمة فاقت كثيرا خسائرها، إن كانت هناك خسائر من الأصل. كما أن النظام السياسي في الصين يمتلك قدرة هائلة على حشد وتعبئة الشعب خلف الأهداف الوطنية، بل وخلق تلك الأهداف التي تذكي الروح الوطنية عند الصينيين، ولعل استضافة بكين للدورة الأولمبية التاسعة والعشرين هذا العام ٢٠٠٨ نموذج جيد لتلك القدرة، فقد حول الحزب الشيوعي الصيني ذلك الحدث الرياضي إلى عمل سياسي وشعبي وإنجاز وطني للصين كلها وللصينيين جميعهم، وأشرك فيه معظم مناطق الصين، حتى تلك الواقعة خارج البر الرئيسي، وأتاح الفرصة لمواطني الصين، كبارا وصغارا، للمساهمة في استضافة الأولمبياد.

ومع تزايد موجة حقوق الإنسان في العالم لم تتردد الصين في النص على مبدأ حقوق الإنسان في دستورها، بعد انضمامها للمعاهدات الدولية المعنية بحقوق الإنسان. ومع اكتساب منظمات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية مزيدا من الزخم العالمي أفسحت الحكومة الصينية المجال أمام تلك المنظمات وتشجعها على المشاركة في التنمية الاجتماعية بشكل كبير، والسياسية إلى حد معين.

إن أكثر ما يميز القيادة الصينية منذ تبني سياسة الإصلاح الاقتصادي والانفتاح على الخارج، هو وعي هذه القيادة باحتياجات شعبها ومطالبه وإدراكها لتطورات النظام الاقتصادي والسياسي الدولي وقدرتها على مواكبة تلك التطورات والاستجابة بفاعلية لمستجدات العصر. ولكن تظل الصين "سفرا" مفتوحا قابلا لكل الاجتهادات، وحقلا خصبا لدراسات وبحوث المستقبليات، وهي دراسات وبحوث تفيد منها القيادة الصينية، ولعل أكثر ما تفيد منه هو الانتقادات التي توجه إليها وتشير إلى مواضع الخلل والنقص في أدائها فتنتبه إليها وتسعى إلى تصويب المسار بخطى متأنية وخطوات محسوبة، فأبرز سمات السياسة الصينية هي التدرج والتدبر، فسياسة الصدمات لا وجود لها في الصين، وأحسب أن المجتمع الصيني لا يحتملها. والصين بها بيوت خبرة علمية واقتصادية وسياسية واجتماعية، وفي مقدمتها الأكاديمية الصينية للعلوم والأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، اللتان يعمل بهما نخبة العقول الصينية وتمثلان المرجعية

للسياسات التي تتخذها الحكومة في كافة المجالات، إضافة إلى عشرات من مراكز البحوث والدراسات التي لها قنوات مفتوحة مع الهيئات الحكومية. وقد أثبتت السنون التي انقضت منذ تبني الإصلاح والانفتاح أن الصين عبرت فترة تحول من أخطر مراحل تاريخها دون أن تتعرض لهزات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، ودون التخلي على الثوابت الصينية، فكل جديد تستقدمه الصين تُلبسه رداء صينيا، فاقتصاد السوق هو اقتصاد سوق اشتراكي ذو خصائص صينية والاشتراكية ذات خصائص صينية، وقد يكون هذا هو سياج الأمان الذي حمى التجربة الصينية الفريدة في التنمية، وهذا أمر يجعل استنساخ هذه التجربة في دول ومجتمعات أخرى عملية غاية في الصعوبة.

وتشير دلائل عديدة إلى أن هذا النهج الصيني سوف يستمر مع تواصل الأجيال القيادية، فالصين ليس بها انقطاع بين الأجيال، وإنما سلسلة متصلة الحلقات، يتعلم فيها كل جيل من خبرة الجيل السابق ويستفيد منها ويضيف إليها ويثريها ويطورها.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

ملحق:
تاريخ الصين مرتب زمنيا

فترة الأباطرة الخمسة (القرن الـ٢٦ – ٢٠٧٠ ق.م)

هوانغ دي (الإمبراطور الأصفر)

تشوان شيوي

دي كو

ياو

شون

أسرة شيا (القرن الـ٢١ – القرن الـ١٦ ق.م)

أسرة شانغ (القرن الـ١٦ – القرن الـ١١ ق.م)

أسرة تشو (القرن الـ١١ – ٢٥٦ ق.م)

تشو الغربية (القرن الـ١١ – ٧٧١ ق.م)

تشو الشرقية (٧٧٠ – ٢٥٦ ق.م)

فترة الربيع والخريف (٧٧٠ – ٤٧٦ ق.م)

فترة الدويلات المتحاربة (٤٧٥ – ٢٢١ ق.م)

أسرة تشين (٢٢١ – ٢٠٧ ق.م)

أسرة هان (٦٢٠ ق.م – ٢٢٠م)

هان الغربية (٢٠٦ ق.م – ٢٤م)

obeikan.com

هان الشرقية (٥٢ – ٢٢٠م)

فترة الممالك الثلاث (٢٢٠ – ٢٨٠م)

وي (٢٢٠ – ٢٦٥م)

شو (٢٢١ – ٢٦٣م)

وو (٢٢٢ – ٢٨٠م)

أسرة جين (٢٦٥ – ٤٢٠م)

جين الغربية (٦٥٢ – ٣١٧م)

جين الشرقية (٣١٧ – ٤٢٠م)

الأسرات الشمالية والجنوبية (٤٢٠ – ٥٨٩م)

الأسرات الجنوبية (٤٢٠ – ٥٨٩م)

سونغ (٤٢٠ – ٤٧٩م)

تشي (٤٧٩ – ٥٠٢م)

ليانغ (٥٠٢ – ٥٥٧م)

تشن (٥٥٧ – ٥٨٩م)

الأسرات الشمالية (٣٨٦ – ٥٨١م)

وي الشمالية (٣٨٦ – ٥٣٤م)

وي الشرقية (٥٣٤ – ٥٥٠م)

تشي الشمالية (٥٥٠ – ٥٧٧م)

وي الغربية (٥٣٥ – ٥٥٦م)

obeikan.com

تشو الشمالية (٥٥٧ – ٥٨١م)

أسرة سوي (٥٨١ – ٦١٨م)

أسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧م)

الأسرات الخمس (٩٠٧ – ٩٦٠م)

ليانغ الأخيرة (٩٠٧ – ٩٢٣م)

تانغ الأخيرة (٩٢٣ – ٩٣٦م)

جين الأخيرة (٦٣٩ – ٩٤٧م)

هان الأخيرة (٩٤٧ – ٩٥٠م)

تشو الأخيرة (٩٥١ – ٩٦٠م)

أسرة سونغ (٩٦٠ – ١٢٧٩م)

سونغ الشمالية (٩٦٠ – ١١٢٧م)

سونغ الجنوبية (١١٢٧ – ١٢٧٩م)

أسرة لياو (٩٠٧ – ١١٢٥م)

أسرة جين (١١١٥ – ١٢٣٤م)

أسرة يوان (١٢٠٦ – ١٣٦٨م)

أسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤م)

أسرة تشينغ (١٦١٦ – ١٩١١م)

جمهورية الصين (١٩١٢ – ١٩٤٩م)

جمهورية الصين الشعبية (تأسست في أول أكتوبر ١٩٤٩)

obeikan.com

obeikan.com

الفهرس

الصفحة

مقدمة المؤلف: ٥

تقديم: ٩

الفصل الأول الطريق إلى الصين: ١٣

الفصل الثاني: الصينيون: ٤٥

الفصل الثالث الفكر الصيني وتأثيره في حياة الصينيين

(الطب والعمارة نموذجا): ٦٩

الفصل الرابع: المجتمع الصيني الجديد: ١٠٥

الفصل الخامس: الحالة الدينية في الصين: ١٤٧

الفصل السادس الأقليات العرقية في الصين نموذج مغاير: ١٨٣

الفصل السابع: ثقافة المائدة الصينية: ١٩٩

الفصل الثامن بكين.. جلد يتغير وروح باقية: ٢٢٣

الفصل التاسع تحديات الحاضر وطريق المستقبل: ٢٤٥

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikan.com